وليد إخلاصي

دار المتعة



السلسلة الروائية

RIAD EL-RAYYES BOOKS
رياض الريس للكتب والنشر

وليد اخلاصي

دار المتعة

رواية

RIAD EL-RAYYES
BOOKS
رياض الريس للكتب والنشر
56 Knightsbridge, London SW1X 7NJ

HOUSE OF PLEASURE

by

WALID IKHLASSI

First Published in the United Kingdom in 1991

56 Knightsbridge, London SW1X 7NJ

British Library Cataloguing in Publication Data

Ikhlassi, Walid
House of Pleasure

1 - Syria - Arabic fiction
I - Title
892 - 736 [F]

ISBN 1 - 85513 - 330 - X

الطبعة الأولى: كانون الثاني / يناير ١٩٩١

القسم الأول

«.. ثم بدت لها جنات رائعة زينتها الطبيعة ببساطة وبهاء، وأخيراً وجدتْ قصراً فخماً أعد لها، مليئاً برجال سماويين خصصوا لخدمتها. وأسرع اثنان من فورهما ليخلعا عنها ثيابها، وآخران ليضعاها في الحمام، وليعطراها بأذكى العطور... وقد بدا كأن كل شيء يسهم في امتاعها: فمن ناحية تسمع موسيقى شجية بقدر ما هي إلّهية، وفي الناحية الأخرى لا ترى إلاّ رقصاً..

ومع ذلك فهناك لذات كثيرة، لا غاية لها إلاّ أن تسلم إلى لذات أمتع منها. وقالت: لقد فقدت وعيي. لو لم أكن متأكدة من أني خالدة لظننت أني ميتة.. ماذا! سأظل خالدة».

مونتسكيـــو

«رسائل فارسية»

الفصل الأول

- ١

من جديد تختل موازين العلماء من جغرافيين ومؤرخين، فيشح ماء نهر وتنضب ينابيع من تلك التي تصبّ فيه منذ آلاف السنين، فلا يتوقف نموّ المدينة واتساعها، وهكذا أتيح المجال لعدد من كتاب الروايات أن يسخروا من الحتميات التي يطلع بها العلماء عادة وكأنها أمور لا مردّ لها.

وقد اشتهرت المدينة التي جف نهرها تماماً في العقد الأخير، بالتوسع في كل اتجاه وكأنها دائرة تبحث عن مجالات لتغيير محيطها نحو الأكبر والأشمل. وكانت أبنيتها العالية وهي تتطاول في السماء فلا تصل إلى مستوى غيمة منخفضة، تتفوق أحياناً على التلال الكبيرة التي قيل أن بعضها طبيعي بينما معظمها من اصطناع الشعوب والأقوام التي تعاقبت على المنطقة كمشاهد مسرحية متباينة أو حكايات لا تصدق بعجائبيتها. وكما أن المجمعات السكنية الهائلة والمباني الرسمية الكبرى قضت على أعداد كبيرة من الأشجار والبساتين، فإن الادارات المتعاقبة كانت تحاول دوماً التعويض عن الخضرة الضائعة بتشجيع مصلحة الحدائق التي ظلّ

خبراء هولنديون يشرفون عليها، فلم تنفع خبراتهم في استعادة العذوبة التي كانت أزهار اللوز والليمون والكرز البري تنشرها في الجو الذي قيل أنه ظلّ مئات السنين يعطي احساساً كأن المدينة امرأة خرجت بطيبها الآسر من حمام ماؤه عطر.

وبالرغم من قسوة الطبيعة على المدينة، فإنها تحولت في سنيّ ازدهارها الأخير من خلية هادئة إلى عشّ نحل سياحي مرموق يحوم حوله الغرباء كالزنابير من طالبي التسلية والمتعة والمقامرة. كان للمدينة حظ في اجتذاب الأموال الأجنبية التي تدفقت عليها من كل اتجاه، فتغيرت ملامحها وكأن عليها لمسة شيخ الجان الذي تروي الحكاية أنه ألهم آخر المغول شخصياً أن يوقف المذبحة الشهيرة التي ساهم ضحاياها من أهل المدينة في تتويج التل الكلسي الذي سنأتي على ذكره بعد قليل.

وهكذا شقت الطرق العريضة متصالبة ومتوازية وشرهة تلعق بلسانها الاسفلتي الناعم عدداً لا يستهان به من المعالم الحجرية والخشبية، وتحول جوف الأرض إلى مراكز لوقوف السيارات المستوردة والملاهي المحدثة وفق أحدث نظريات تكييف الأماكن المغلقة، ونظمت الساحات الكبرى كي تتسع كل منها لمئات الألوف من الناس يجتمعون فيها أيام المناسبات والأعياد الهامة. وأعيد تنظيم الأوابد والأماكن الأثرية لتعطي المسرة، فأصلحت ساحة (خان التنابلة) المملوكي وغرفه العشرون لتكون مطعماً فرنسياً ألحقت به أركان مموهة تعرض أفلام الفيديو المثيرة، وتحولت بقايا قلعة النسور المهجورة إلى مسرح في الهواء الطلق تقدم على خشبته فرق راقصة من

مختلف البلدان أحدث صرعاتها، كما أعدت قاعة الفرسان التي بقيت شبه سليمة من تلك القلعة لتصبح نادياً عالمياً للقمار، وخصصت أروقة التكية الشيبانية لمعروضات دور الأزياء العالمية، فكانت الزخارف بأنواعها تشكل خلفية ثابتة للتقلبات الموسمية التي تحضرها معها الملابس والأحذية والمجوهرات المقلدة، فيثير ذلك التناقض شهية المستهلكين من القادرين على متابعة الحركة التاريخية السريعة لتلك الأزياء والموضات.

ومع أن المدينة بوضعها الراهن قد نمت وتوسعت على أرض احتضنت في الماضي مدناً مندثرة، أشارت كتب المؤرخين ووثائق باقية إلى أنها تميزت بأنظمة عمرانية خاصة بها، إلا أن تنظيم المدينة الحديث جاء استجابة لتأثيرات وافدة، كان أغلبها نقلاً عن تنظيمات عمرانية أوروبية جاهزة في المجلات أو أن أفلام السينما والتلفزيون أتاحت فرصة الاعجاب بها.

ـ ٢ ـ

ولم يكشف بشكل دقيق وجلي عن العدد الذي لا حصر له من كتاب اليوميات والمذكرات الشخصية الذين كانوا من أهل المدينة وهم يتناقلون فضيلة التمسك بتلك الهواية منذ أجيال. وكان تسجيل الوقائع اليومية، جدية كانت أو تافهة، من الأعمال التي استهوت أولئك الكتاب فباتت الهواية تنافس في كثير من الأحايين مهنهم الأصيلة، فكان منهم الحلاق وعامل الدباغة والمعلم في كتّاب أو مدرسة وصاحب الفندق الشعبي والسائس في اسطبل وصانع السروج والحداد والنجار وما إلى ذلك من مهن كانت المدينة تستقطبها منذ أجيال، ولهذا السبب تباينت

أساليب تلك اليوميات والمذكرات، طويلة كانت أم قصيرة، فكان منها الفصيح البليغ ومنها شبه العامي. وقيل إن عدداً قليلاً من تلك الأعمال قيض له الانتشار بين الناس الذين أعادوا نسخ صفحاتها أو بعضاً منها، ولو أن آلات التصوير والنسخ كانت مخترعة لكان الانتشار أكبر وأعمّ. ويبدو أنّ اهتمام باحثين من غرباء زاروا المدينة في فترات مختلفة هو الذي نقل نماذج تلك اليوميات إلى الخارج فنشرت في مجلات وكتب على أنها تاريخية بالغة الأهمية والواقعية لوصف المنطقة بأسرها. وهكذا بقيت معظم اليوميات حبيسة الخزائن والأدراج المقفلة يتوارثها الأبناء أو يتلفونها ولربما يدفنونها تحت البلاط إذا ما لمسوا فيها ما يشعر بخطورتها. وسيصف كاتب غريب تلك المدينة بأنها المناخ الطبيعي أو الصالح لنشوء مؤرخين شعبيين لم يكن ينقصهم سوى معهد علمي أو أكاديمية تاريخية تدربهم كي يصبح عدد منهم من علماء التاريخ أو مدونيه ممن يمتلك نكهة يفتقد إليها معظم العلماء والكتاب في العالم.

وبالرغم من شهرة أسماءٍ من أولئك الذين خلفوا يوميات مهمة، فإن شائعة ما زالت قائمة تشير إلى أن شيخاً جليلاً قد تجاوز عدد صفحات يومياته التي اختفت فلم يعثر لها على أثر، العشرة آلاف ورقة سميكة وكأنها من جلد غزلان صغيرة، لذا سمي بالشيخ الألفي، وقيل إن الشيخ قد ابتدأ أوراقه بذكر آدم عليه السلام وكيف نشأت الخليقة بقدرة قادر، وانتهى، وكان ذلك قبل مماته بأيام قلائل، بذكر ما جرى لمدينته التي باتت شعلة من أنوار الملاهي والفنادق، بينما ظلّ الحي الغربي الذي يقطنه الشيخ غارقاً في ذكريات الماضي ومياه المجاري التي

تمشي على أرض الحواري كثعابين نتنة. وقيل إن تلك اليوميات قد أتت على ذكر آلاف آلاف الأحداث والوقائع التي تعاقبت على المدينة، مع مقارنات لأهمها وأكثرها تأثيراً مع ما جرى للإنسان في تاريخه الذي أنسته الحروب والأوبئة وتجبر الملوك سعادته التي يسعى إليها، وأفقدته طمأنينته التي تفوق ضرورة الدثار في ليلة باردة. ويقال بشيء من التأكيد الذي لا يقاربه الشك أن الشيخ قد ألمح إلى أن الهواء الأصفر الذي اجتاح المدينة، كان وباءً مزاجياً فلم يدخل أحياء التلال العالية ولم يلحق الموت بأي من سكان القصور، ولا يعلم أحد كيف يمكن لغضب الله أن يتجاوز مثلاً سكان دار المتعة والمترددين عليها، إذ ظنّ الناس آنذاك أن الوباء قد هبط من السماء عقاباً للمدينة على وجود دارالمتعة فيها.

وقد جاء التطور السريع الذي لحق بالبلاد والمدينة، ليحدّ من نشاط أولئك الكتاب ومن عددهم كذلك، فذكر أنه لم يبق منهم في الأيام الحاضرة سوى نفر قليل اعتبر نفسه شاهداً على وجود مدينة تتمدد وتتوسع يوماً فيوماً، لتضرب في الصحراء والبوادي ولتحتل سفوح التلال الكثيرة وقممها ولتقهر البساتين التي بقيت قبل أن يختفي معظمها متنفساً ومرتعاً للأطفال والمحبين والأسر التي تتعبها رتابة الحياة في الحواري المقفلة.

وبالرغم من موهبة المراقبة لكل ما يجري، والتي كانت صفة تشهد بتفوق كتاب اليوميات فتكشف عن الذكاء الفطري الذي اعترف بأنه شرط هام من شروط أولئك الكتاب، بالرغم من ذلك، إلّا أن أحداً لا يذكر تماماً متى شيدت دار المتعة، كذلك لم

يأت ذكر على تاريخ دقيق يتفق عليه الجميع لبناء قصر المرأة المغولية، كما كان يحلو للظرفاء من المراقبين أن يسمي صاحبة دار المتعة. ومثل ذلك التضارب في التواريخ كان يلمح في اختلاف كتاب اليوميات على أحداث خطيرة، حتى أن مثل تلك الأخطاء في الدقة جعل رجالاً من أهل العلم يشككون في اليوميات وينسبونها إلى ما يقارب الخرافة أحياناً والسذاجة أحايين أخرى. وقيل في معرض الدفاع عن عدم الدقة في التواريخ، إنه مقصود ويهدف إلى التمويه أحياناً كي لا يدان صاحب اليوميات أنه يقصد عهداً بعينه أو فترة زمنية محددة، وقيل إن مثل هذا التمويه يشبه إلى حد بعيد، مع فارق التشبيه، ما يفعله، مزيف النقود إذ يترك عن عمد خطأ ما في القطعة المزيفة كي لا يكون حكم الاعدام أكيداً.

وقد يحلو لمدوّن دقيق أو أنه يدعي التدقيق في التواريخ، إذ يصعب العثور على مثله في المدينة، فالناس ألفوا لأسباب لم تحصر بعد ألّا يتقيدوا بالدقة في تحديد الزمن وهم يتكلمون عن تواريخ الميلاد والمحن العامة والخاصة، فيقال مثلاً إن ابن فلان ولد يوم أكل الناس القطط لغلاء اللحم أو أن الجدري انتشر يوم ترك الناس الصلاة، قد يحلو لذاك المدون أن يؤكد على أن أكثر من نصف قرن قد مرّ على بناء تلك القلعة الرائعة وقد ظهر منها فوق قمة التل الحوّاري طابقان جميلان من الحجر الصلد الذي يشتد قوامه كلما امتص أشعة الشمس ويزيد هيبة طالما تعاقب عليه الليل والنهار. ومَن الكتاب من ذهب في الإصرار إلى أن عمر دار المتعة يزيد عن قرن، وهكذا لم يحضر واحد من المعمرين الباقين لحظة تشييد القلعة التي

هبت فجأة من بين الصخور الكلسية لتشرق على المدينة بأسرها من قمة أعلى تل فيها.

ويتناقل بعض من الناس بشيء من التقديس، حكاية أوردها الشيخ الألفي في يومياته الكبرى، أن صبياً لا أهل له كان يتجول في أحياء المدينة وضواحيها بحثاً عن طعام أو مأوى، قد شاهد ذات ليلة ما يثير العجب ويخطف الأبصار فلا يفرق ناظره ما بين ليل ونهار ولا يمكن أن ينسبه إلّا إلى الأسرار. لقد رأى الصبي، وهو البريء الطاهر بالرغم من تلوث جسده بالأوساخ وتمازج طعامه بالشوائب والأدران، رأى بأم عينه سوراً عالياً كأنما يتنزل من السحب العالية ليحيط بقمة التل الكبيرة من كل جانب فيحكم عليها الخناق، فحسب الصبي أن الجن يعسكرون بخيمة مقلوبة، ولكن الأمر لم يكن كما ذهب به الخيال، لأن السور تهاوى قطعة فقطعة فلم يسمع لسقوطه على السفح ضجة أو صوت، وظهر بناء متماسك متين وكأنه صبّ في قالب محكم القياس فلمعت مداخله ومنافذه بأثـر من ضوءالقمر الخافت وقد حجبت لمعانه سحب داكنة لا بد أنها إشارة ربانية إلى غضب قادم. وكانت دار المتعة في كمالها كما الشيطان يظهر جميلاً ليزين للناس درب الأحزان، وكانت المشربيات المزخرفة تغطى بالخشب الذي لا يفنى لتحجب عن العين أسرار ما يجري داخل قلعة الشيطان تلك. وقد ظلت المشاعل تشي بالحياة في الدار إلى أن حلت الكهرباء فأضفت على الدار حلّة من خيال تتفاوت درجاته بين ليل ونهار وزمن وآخر ورجل وغيره. وهكذا بدت رواية الشيخ الألفي الأكثر تداولاً لأنها سمحت لمخيلة الناس أن تنمو بحرية في كل اتجاه.

سيقال الكثير عن دار المتعة، بل إن ما قيل فيها فاق كل ما قيل عن أي شيء في المدينة أو البلاد ولربما زاد في عدد كلماته عما قيل في التاريخ وأحداثه. قيل، وكان أكثر القول همساً أو تسارراً في مجالس الرجال وفي مجالس النساء، كان برموز علنية.

قيل مثلاً إن الحاكم العثماني للولاية التي احتلت المدينة مركز الصدارة فيها، كان مغرماً بصاحبة الدار منذ زمن، بل إن جنونه المستتر، الذي لم يتجرأ أحد على تسميته أو التلميح إليه، كان بسبب عينيها الشبيهتين بفلق اللوز، فكان يهيم بها حباً فيخلط ذكرها بأحاديثه، ويزين رسائله الموجهة إلى عماله وتابعيه، بجملة حلّت محل البسملة، قيل إنها «سبحانها ما أعظم شأنها». وقد فسر بعض المحللين أنه لا يقصد المرأة الفاتنة، بل إن قصده أن يقول. «سبحانه ما أعظم شأنه». وقد جاء التأنيث لعجمة في لسانه. ولكن هذا التفسير لم ينف عنه جنونه بها، فلهذا أرادها بعيدة عن الزوجات والمحظيات والغلمان والجواري وحسد الحاشية، فأمر بعمال جاؤوه من كل صقع، فاختلط الصيني بالمغربي بالأناضولي بغيره من صناع العالم المهرة، هرعوا بأدوات سحرية في أيديهم، فوضعوا على التل قصراً صغيراً سيصبح مع مرّ الأيام كالمنارة تهدي الضائعين والتائهين والباحثين عن مرفأ لمتعة آسرة وسعادة غامرة.

وقيل إن أحداً من أهل المدينة لم يكن يجرؤ على تخطي عتبات القصر الممتدة من سفح التل وحتى مدخل المرايا. وقلةٌ هُمْ أولئك الذين أصابهم الحظ فتنشقوا عبير البخور الذي

لم ينقطع إشعال عيدانه بعد غروب الشمس وحتى مطلع الفجر. وقد يقاس الثراء في زمن سابق بقدرة صاحبه على ارتياد دار المتعة، فكأنما الفقراء اكتفوا بالتوق إلى الجنة الموعودة بعد صبر طويل في هذه الحياة الفانية.

ثم إن الحاكم العثماني في أيامه الأخيرة، والتي قيل إنها سنوات وحددها البعض بأشهر معدودات، تخلى عن زوجاته وداره الواسعة في قلب المدينة القديمة، وانتقل إلى القصر العالي يدير منه شؤون الولاية وهو عار إلّا من مئزر مذهب يلف وسطه مخفياً نصفه الأسفل مظهراً ثدييه اللذين باتا أشبه بصدر امرأة ولّادة وقد برزت الحلمتان وكأنهما أنفان يشمان ما حوله بعد أن باتت حركته بطيئة لا تستطيع الاستجابة لحركة غدر كان يحسب لها كل لحظة ألف حساب بالرغم من سيافين يقظين يرافقانه ليل نهار.

كانت المعشوقة تشاركه صدارة القاعة، فتشخص إليها الأبصار. وقيل إنه ما من صاحب مظلمة يريد أن يضع بين يدي الحاكم ظلمه إلّا وعاد راضياً من حيث أتى لأن ابتسامة صاحبة الدار كانت بلسماً للجراح وتعويضاً عن حق هدر. لذا فقد اقتصرت أحكام الوالي على الاستماع ومن ثم الإيماء بالرأس كي ينصرف الشاكي ليحل آخر محله، وكأن الحاكم بات ظلّاً للمعشوقة.

وظل الشعراء إذا مثلوا بين يدي المقام الأعلى، كما أشاع رجاله عنه في الأيام الأخيرة، يطمعون في البداية بخلعة ثمينة، ولكنهم ما يلبثون وهم يحدقون في طلعة المرأة البهية أن ينسوا تعداد المآثر التي قام بها المقام أو الخير الذي جاء به للناس،

فكان أولئك الشعراء، ودون تصميم سابق، ينشدون غزلاً تمتلىء به أفواههم اعجاباً بمفاتن المرأة وخضوعاً لسحر الابتسامة التي لا تحمل سوى الدعوة المبطنة إلى لقاء الأجساد المشتعلة بجسد واحد هو الأمنية وهو الخلاص من حرمان أو عذاب. وسيقال بعد زمن إن تطور الشعر السياسي له علاقة بأصول جنسية وأن الغزل الذي امتزج بمديح السلطان هو الذي أعطى للشعر مكانة بين عامة الناس بينما ندد به جيل من الشباب الغاضب لم يكن له الحقّ في الاعلان عن آرائه ومعتقداته.

وفي كل الجلسات التي امتدت على مدار الأسبوع، باستثناء الجمع والأعياد الدينية والسياسية والعائلية إذ كان للحاكم مثلاً عيدان لميلاده في السنة الواحدة وأربعة عشر عيداً أخرى بمناسبة مولد أبنائه الأحياء منهم والأموات. في كل تلك الجلسات، كانت سيدة الدار تستمع إلى المديح الفاضح أو المبطن بالرضى الذي يمنحه عادة حاكم يضع يديه على المقادير كلها، بينما ذراعاها العاريتان أحياناً أو اللتان تشعان اغراء من تحت حرير شفاف، تطوقان كتفي الحاكم المكتنزتين بالشحم والإرادة الصلبة والتي لم تهتز يوماً خوفاً من تمرد شعبي أو مجاعة قادت الفقراء إلى التفكير في اقتحام القصور. وكانت صاحبة الدار تعرف متى تدلك الكتفين العاريتين بليونة تزيد عادة من حمى الشعر الذي يلعلع في القاعة كشبق حيوان حبيس، فيختلط في أفواه الشعراء الزبد بالكلمات الموزونة.

وعندما اختفى الحاكم العثماني بعد ذلك، وزالت آثار سلطانه، شاع بين الناس أنّ صاحبة دار المتعة التي أكد كتاب

اليوميات بعد حيرة وتردد أن اسمها هو (اسمهان)، وأن أحداً لا يعلم إن كان ذاك اسمها الحقيقي أم أن الحاكم العاشق هو الذي أطلق عليها الاسم لندرته أو لأن المدينة لم تعرفه من قبل فباتت به متفردة. شاع أن اسمهان هي التي استهلكته بجمالها وفتنة جسدها الذي لا يقاوم، فذاب لحم العجوز كقطعة شحم هائلة اشتعلت من حولها نيران بطيئة، وجفت عظامه كجذع شجرة نخرتها الديدان، فاستدعي إلى الآستانة مخفوراً بجنود لهم سحن مغسلي الأموات ليلقى عقاباً شديداً على إهماله أو لربما لتهربه من دفع حصة السلطان من الضرائب التي كان يجمعها من رعاية الولاية، ولإخفائه عن أعين الآستانة جرار الذهب والزمرد والياقوت وغيره من الأحجار الكريمة التي هام بها عشقاً لا يماثله سوى عشق اسمهان، وقيل أيضاً إنه في أيامه الأخيرة عجز عن كبح جماح الفلاحين الذين يزرعون أراضيه البعل والمروية والتي امتدت من الصحراء وحتى البحر دون أن يقدر ديوانه المالي مساحتها وأنواع المحاصيل والأشجار التي تنبت فيها، فكان لتمرد أولئك البسطاء وهم الذين لا يملكون سوى الفؤوس والمناجل أثر في أوساط الباب العالي.

ويبدو أن توالي السنين، وتعاقب المراحل، أنسى أصحاب اليوميات اهتماماتهم بتفاصيل التاريخ التي لن يكون لها بعد ذلك مطرح وسط الأحداث الخطيرة التي ستمر على المدينة من تطور وتغيير، وما عاد أحد يذكر التاريخ الحقيقي أو الدقيق لأحوال الحاكم العثماني أو للأصول التي تعود إليها دار المتعة التي أصبحت من معالم المدينة العريقة.

ولا بد من أن المدينة كانت في الماضي البعيد مركزاً تجارياً خطيراً، ولكنها حملت مواصفات المدن العسكرية، فالسور الذي أحاط بها لم يبق منه سوى أحجار متناثرة كبقايا أسنان في فم عجوز، والقلاع التي انهارت فلم يبق منها سوى عدد قليل، كل ذلك يدلّ على أنها ما عادت تحمل القدرة على حماية نفسها، ففتحت صدرها لكل داخل، وتراخت همتها الحربية لتصبح أكثر ليونة في التعامل مع كل وافد.

وباتت آثار خلفها الملوك القدماء للتدليل على قوتهم وانتصاراتهم، باتت قطعاً تزيينية في بيوت طبقات ثرية حمت قصورها ومنازلها ليس بالأسوار العالية إنما بالأعين الالكترونية التي تجيد الإنذار في الوقت المبكر، وكأنما أولئك شغلوا بحماية أنفسهم لا بحماية المدينة. ومثل تلك الملاحظة جاءت في مذكرات حديثة كتبها السيد عبد الكريم الذي لا بد من المجيء على ذكره في الوقت المناسب. وقد دلّل ذلك السيد على معرفة دقيقة بتطور المدن في يومياته القصيرة التي تميزت بملاحظات عامة تبدو لقارئها وكأنها مشروع حافل عن المدينة، فقد كتب أن تحول مدينة من شكل دفاعي إلى مركز سياحي مفتوح يثير التساؤل دون ريب. ونظراً لخبرته الفنية فقد تحدث أيضاً عن الألوان المتنافرة مما يجعل المدينة مكاناً قلقاً أو أنه رمز للقلق.

ولقد استمر اللون الأخضر مقدساً لقرون طويلة، ولكن المساحات الخضراء التي طوقت دار. المتعة من كل اتجاه، أثارت الدهشة في النفوس على مر السنين. كان سفح التل قد

تحول إلى حدائق متدرجة كأنها نموذج مصغر لحدائق بابل المعلقة التي ما زال المؤرخون والمصورون يتخيلونها وكأنها سلم يرقى إلى السماء. وأثارت دهشة الناس في البداية تلك الزهـور والرياحين والشجيـرات دون تشذيب وقـد غـطت المدرجات، أثارت الدهشة إذ لم يكن لحشيشة أن تنبت في أرض حوارية فإذا السفح لا يبقى منه شبر دون حياة خضراء، وسيعمد بعض المشككين إلى الزعم أن تلك النباتات ليست بالطبيعية وهي مجرد أشكال بلاستيكية متقنة وضعت لاجتذاب الناس وللإيحاء بأن دار المتعة تنسجم مع قدسية الأخضر المتوارثة، ولكن من يقترب أكثر يعرف أكثر، فالممرات الملتوية عبر السفح وقد أعدت لوصول العربات التي تجرها الأحصنة في الماضي، وهي الآن لمرور السيارات الجديدة المستوردة، تلك الممرات كانت تحرسها أشجار سامقة وتحدد أطرافها، وتغطي أحياناً أجزاء من أرضيتها بظلال أميل إلى الاخضرار، كما أن الصباريات بأنواعها الكثيرة بدت كعيون مبثوثة حول القصر لحمايته. وسيلاحظ مراقب ذكي أن غياب الأشجار المثمرة عن حدائق الدار فيه برهان على أن الثمر الحقيقي الحلو والمشتهي لن يكون ويقطف إلاّ داخل دار المتعة نفسها، يدخلها الجائع فتتساقط في أحضانه ناضجة مستساغة مشتهاة، يأكل منها بالعين وبالجلد وبكل الحواس، فلا يشبع.

وتذكر حادثة مؤكدة، وهي أن متديناً من أتباع طريقة تدعو الناس إلى العفة والتعفف قد هتف عالياً في الناس يبين لهم أن كل ما هو أخضر يحيط بدار المتعة إنما هو كخضراء الدمن لا تنمو وتزدهر وتفتن أحياناً إلا بماء الرذيلة والفسق الذي تنضح به أبواب الدار ونوافذها، وأن ناظر تلك الحدائق كالداخل من

باب الدار إلى وكر الهوى المحرم، وهو ملعون ارتكب معصية لا يغفر لها صلاة سبعين سنة ولا حج البيت الحرام ثلاث مرات بما فيها حج أكبر يوم تكون فيه وقفة عرفات في الجمعة.

ويورد الشيخ الألفي في يومياته الكثير من الفتاوى والآراء التي أطلقها أصحاب المذاهب الأربعة، فهو كما يعترف منذ البداية يحترم آراءهم جميعاً دون تمييز أو تفضيل مما أضعف عند البعض قوة رواياته وسلامة آرائه، يورد الكثير عن ضرورة الوقوف بحزم من الدعارة بكل أشكالها وبخاصة عهر النسوة، إلّا أنه لا يأتي على تفاصيل لها علاقة بما يجري في دار المتعة، وكأنه ينفي عن نفسه تهمة الدخول إليها.

وبالرغم من نزعات متطرفة كانت أصواتها تتعالى من على المنابر أو عبر الصحف اليومية بين زمن وآخر أو مرحلة والتي تليها، وتعبر عن تمسك بالأصول اقتداء بالأسلاف وحفاظاً على الموروث، وتطالب بحزم المتشددين بالوقوف ضد قضايا الدعارة الرسمية أو السرية، فإن مسؤولًا أو حاكماً واحداً لم يجرؤ على التعرض لدار المتعة بتحقيق أخلاقي أو باغلاق كما طالبت بعض الدعوات الاجتماعية الدينية والسياسية. وسيتكرر مع المراحل المتعاقبة إدراج قضية دار المتعة في برامج أحزاب وجمعيات، تربط بين ما يحدث فيها من دعارة وبين السلطات الإدارية المتعاقبة بأساليب رمزية أو تلميحية لم تصل حد اتهام مسؤول ما أو حاكم معين بشكل مباشر. وقد يكون التناحر والخلاف القائم بين تلك الأحزاب والجمعيات هو الذي جعل من ذلك الربط كما كان عليه، فقد كانت الاتهامات المتبادلة بين زعماء الأطراف المتنازعة تؤكد على أنهم من الزبائن

التقليديين لتلك الدار، أو أنهم حقاً من عملاء صاحبتها ذات النفوذ.

وكان لا بد من صوت يعلو بين حين وآخر، يمثل طبقة من المستنيرين أو المتسامحين يؤكد بالقرائن العلمية على أن أهمية القصر القديم لا تقل بأي حال من الأحوال عن القيمة التاريخية الأكيدة للآثار الظاهرة الباقية أو الغائرة المندثرة تحت التلال أو تراب السهول أو في طبقات أخفتها المباني الجديدة، والتي خلفها البيزنطيون ولربما الحثيون والأكاديون من قبلهم. فالدار بنبضها الذي لم يتوقف لعقود كثيرة خلت من السنوات الصعبة واليسيرة، تؤكد على قدرة المدينة الخالدة على حفظ التراث بقدر يعادل اخلاصها في احتواء السعادة المنشودة من البشر الذين اختزنت عقولهم ذكريات واضحة أو مبهمة عن المآسي التي لحقت بالمدينة، في الوقت الذي يمكن فيه لتلك المدينة أن تكون ساحة للمتناقضات والعجائب، وتلك هي عظمة المدن اللائقة بالخلود.

وسينتصر رأي جماعة من أولئك المستنيرين، فتستصدر مصلحة الآثار قرارها في أن تدرج دار المتعة في لائحة المباني التي لا تهدم إلّا بموافقة مسبقة من قبل المسؤولين عن التراث المعماري، وهم وإن كانوا قد تساهلوا كثيراً في اعطاء الموافقة على هدم عدد كبير من المباني الجميلة التي لا تقدر بثمن وذلك لقاء ثمن تافه بنظر عشاق المدينة، إلّا أنهم أظهروا حرصاً شديداً على حفظ كافة الوثائق التي تتعلق بدار المتعة، فأنشئت ملفات خاصة تضم صوراً فوتوغرافية ولوحات فنية رسمها فنانون شعبيون بسذاجة لافتة للنظر أو رسامون أجانب

كانوا يوفدون إلى الشرق عادة لتسجيل عاداته وفنونه وعمائره. وكانت بعض من تلك الصور الفوتوغرافية تعطي تفاصيل الواجهات الأربع للقصر، فبرزت للمتفحص نقوش في نسيج الحجر لم تكن ظاهرة للعيان، كما أنها لم تكن لتؤكد على شيء محدد أو على أسلوب ينتمي إلى أي من الحضارات العديدة المتعاقبة على المنطقة، مما أثار الحيرة والتكهنات التي بالغت في التحليل فذهبت واحدة منها إلى أن تلك النقوش من صنع الجن أنفسهم. وسيثير الدهشة حقاً مجموعة الصور المتتابعة لتفاصيل السطح التي يبدو أنها التقطت بمهارة من الطائـرة، إذ أظهرت تلك الصور لوحة هائلة من الفسيفساء غطت معظم مساحة السطح، تمثل تضرع امرأة عارية رفعت ثدييها بكفيها وكأنها تستمطرها لبناً، بينما الأعشاب والأشجار الكثيفة تحيط بها فتختلط أوراقها بشعرها المنسدل حتى الأرض وقد بلغت تلك اللوحة الفسيفسائية من دقة التنفيذ ما جعلها لائقة بتأمل من هم فوق دون البشر الذين يدبون على الأرض كأنهم في مرتبة أدنى دون ريب.

ـ ٥ ـ

وقد تكون الحكايات المتداولة بين الناس منذ عشرات السنين حول دار المتعة هي نفسها التي تسجل في أوراق أصحاب اليوميات، ولكن تباين الآراء في إطلاق الأحكام على الدار كان يعبر عن حيرة الكتاب ولربما يؤكد على أنهم يلجأون إلى تسجيل ما يقال دون إحكام المنطق والعمل بأصول المحاكمات العقلية، أو أن بعضهم كان يكتب جانباً من حقيقة الدار فيأتي الجانب الذي يدونه البعض الآخر نقيضاً ومخالفاً،

فكأنما كتب على الحقيقة ألّا تكتمل في صورة واحدة، ولهذا السبب كما يقول باحث في تاريخ اليوميات إن اللجوء إلى التخييل أحياناً قد جاء لسدّ النقص، وسيذهب بعيداً في حكمه إلى أن الآداب التي نشأت في المدينة وانتشرت إلى سائر البلدان التابعة، قد تأثرت دون شك بتلك اليوميات. ولكنه من أسف أنه ما من كاتب صنع حكاية أو رواية اعترف بفضل الكتاب الشعبيين في أوراقهم المتناثرة أو الكاملة عليه وعلى أدبه، بل إن بعضهم كان يعتبر كتابات أولئك المجهولين أو من اشتهر منهم بين الناس على مرّ العصور والمراحل نموذجاً للسوقية في التفكير، في الوقت الذي لم يحقق فيه واحد من كتاب الروايات أو الحكايات قدرة على سبر أعماق الواقع كما فعل الشعبيون.

كان كتاب اليوميات، وأعمالهم التي لم تطبع في كتب بل تداولتها الشفاه أو تناسخها الناس بأيديهم وبأقلام خطاطين تناقص عددهم مع الأيام، كان كتاب اليوميات يهتمون بالوصف دون الدخول في النتائج، ومثال ذلك أن أحداً منهم ما كان ليعير اهتماماً لعودة رجل داخل دار المتعة ذات ليلة ولم يخرج منها. ومثل تلك الحادثة التي تكررت كثيراً لم يُعلق عليها بكلمة، وكأن ذلك الاختفاء كان وهماً أو قدراً لا يناقش، وهكذا كان موقف أجهزة الأمن المختلفة من ظاهرة كتلك.

كانت تلك الأجهزة تنمو يوماً بعد يوم، وتتسلح بفنون متقدمة في المراقبة عن بعد، فلم تفلت من يدها حادثة تقع أو بقعة تزخر بالبشر، إلّا أن التوجيهات العالية لم تدفع واحداً من أفراد تلك الأجهزة نحو التدقيق الصارم في هوية الداخلين

والخارجين من دار المتعة، وهي التي تسجل عادة كل ما يجري في أرجاء المدينة. ولن يدل ذلك التسامح على اهمال سلطات المدينة لشؤون الدار، ولكنه سيؤكد على أن أهميتها تفوق كل ما يدور في الأهمية، وهكذا كانت حركة رجال بارزين في المجتمع ومن الذين يعملون في السياسة، من اتجاهات مختلفة، كانت حركتهم حرة في ارتياد الدار، وكأنها الحرية عقد اجتماعي قديم أقره العرف فبات مقدساً. وبينما كان التردد على مرافق أخرى كبيوت المتنفذين أو دور العبادة أو المطاعم والملاهي أحياناً، خاضعاً لمراقبة دقيقة، فإن دار المتعة كانت مثالاً للحرية الكاملة في المدينة التي تطورت من موقع دفاعي إلى قبلة سياحية لا يمكن لها أن تنمو وتزدهر إلّا بالحرية الكاملة في التحرك إليها ومنها.

ويصنّف المدينة رجل خبير كواحدة من أهم مراكز الجذب للمال في المنطقة الجغرافية التي تتوسطها، ويعقب قائلاً إن اقتصاد المدن الكبرى لا يمكن له أن يتماسك ويعبر عن قوته إلّا برموز موجودة كدار المتعة التي طبقت شهرتها الآفاق، فأمّها السياح الذين يمتلكون المال والفضول، وتعلق بها أغنياء المدينة والبلاد. وفي فصل من كتاب قيم عن أهمية المدن الخطيرة في تاريخ الأمم والشعوب، كتب أستاذ كبير في علم الاجتماع المديني أن مرافق ذات وظيفة محددة كدار المتعة تقدم دون ريب التوازن النفسي والخلقي للرجال من خلال العزاء الجميل للمحرومين من عطف الزوجات وتفهم نساء دار المتعة لرغبات الرجال التي تطورت مع تقدم المدينة المستمر والمتصاعد. لذا فإن قصر اسمهان كان يقدم الخدمات الروحية والاقتصادية للمدينة على حد سواء، وحمايته ورعايته إنما هما

جزء من السياسة العامة لإدارة المدينة التي درج الناس في الظروف الطبيعية على انتخاب أفرادها مرة في كل أربع سنوات. لذا فإن اسم صاحبة دار المتعة كان يتردد ذكره بكثرة خلال الأيام الساخنة التي تسبق تلك الانتخابات وبعدها أيضاً، فتختلط الحقائق بالشائعات حول الرجال الذين يمثلون اتجاهات مختلفة، وإن كان الأمر قاطعاً بالنسبة لرئيس المدينة لا يجرؤ أحد على الاقتراب من اسمه بحقيقة أو شائعة.

وهكذا تعود كتاب اليوميات من قبل على جعل الشائعات مصدراً يعتمدون عليه، فإذا ما لقيت هوى في أنفسهم أضافوا على ما يدوّن «والله أعلم» أو «علمه عند ربي»، أو أنهم يفتتحون الحادثة التي لم تؤكدها سوى الشائعات بـ «ذكر على ذمة الراوي» أو «راج في المدينة كذا فتناقله العقلاء». ولمثل هذا الأمر فإن الاعتماد بشكل كامل على ما جاء في اليوميات القديمة أو المحدثة على قلتها، إنما يحتاج إلى مزيد من التبصر وإعادة النظر في كل ما كتب كي يمكن الحصول على الحقائق بشكل أفضل، إذ لا يمكن استبعاد ظاهرة المبالغة والتهويل من صفحات تلك اليوميات، فمثل تلك الظاهرة ما زالت سائدة في أيامنا هذه وكأنها ملح لا تتخلى عنه الحياة.

وكثيراً ما ذكر شيء عن الجنون الذي ارتبط بدار المتعة، فمن رجال اهتز وقارهم، وآخرين فقدوا عقولهم، ومنهم من ظلّ يهيم على وجهه في دائرة مركزها القصر فيسمع لأنينه وقع خوار الثور على الأسماع. كانت كلمة (الحب) نادرة في وصف حالة الرجال الذين تعلقوا بصاحبة الدار، أو بواحدة من النسوة اللواتي تعاقبن على غرف الطابق الأول من دار المتعة. مصطلح

(العشق الجنوني) هو الذي تكرر ذكره في وصف العلاقة بين بعض من الرجال والقصر، أو أن وصفاً للمسّ الذي قد يصيب عقول الرجال كان من الدقة ما يشعر القارىء أو السامع بأن شيئاً يشبه الوباء كان يجتاح كيان من يتعلق بامرأة من نساء القصر، وأنّ ليلة واحدة كانت كافية للذهاب بعقل رجل أو ماله أو كلاهما معاً.

وفي تعليق لمؤرخ شعبي، لا يمكن تمييز الجدّ فيه من الهزل، جاء أن لظاهرة الجنون التي لا يخلو منها حي من أحياء المدينة أو حارة من حاراتها، ارتباطاً دون ريب بالفتنة الجسدية التي طالما تعرف إليها أو تخيلها الرجال في غرف دار المتعة وهي تنبض وتتحرك وتعبق كما البخور الذي تشعل عيدانه هناك لطرد الليل الذي يتكرر حلوله كل يوم وبعد نهار يمتاز بالهدوء والملل، فتصل سحب دخانه العطرة صدور الرجال المتأججة بالرغبات المكبوتة التي لا يمكن تحقيقها إلا في حالة وجد أو غيبوبة بين جدران غرفة من غرف القصر الذي يمنح المتعة دون حدود أو قيود. لذا، كان من المتوقع أبداً أن يفقد رجل ما عقله عندما تقوم امرأة من فاتنات القصر بتحقيق تلك الرغبات الدفينة على فراش حشوه حنان ودثاره التحرر من كل خجل، أو أن يهيم آخر على وجهه إثر علاقة وصال تنتهي قبيل الفجر بأمل العودة التي لن تتحقق من جديد في الأحوال كلها، فتكون الذكريات على آدم الخارج من الجنة المؤقتة ثقيلة، قد لا يتحملها من كان لا يمتلك الحكمة أو الصبر.

- ٦ -

ومنذ القديم كانت الشائعات تؤكد على أن لكل غرفة أو

مخدع تحتله امرأة من النسوة اللواتي تعاقبن على الدار، طابعاً لا بد من اتصاله بجنسية المرأة، وهو يمثل عادة موطنها الأصلي الذي جاءت منه، وكأنما الدار باتت موطناً مؤقتاً لشعوب وأمم قدمت إلى المدينة لتعطيها من ثقافاتها وعاداتها ثم لترحل تاركة المكان لغيرها، كأنه معرض دولي للفتنة التي لا تمنح البقاء من خلال التناسل، بل لتفتح النفس على حب الحياة والتعلق بملذاتها، وتدعو الأجساد لمعاينة قدراتها والتأكد من الفحولة.

وهكذا ساهمت دار المتعة في التعريف بمناطق من العالم لم تكن معروفة من قبل، وكشفت عن جوانب من العهر الرائع ذكر بأن مثله لم يكن إلاّ في العهود الغابرة يوم سادت الامبراطوريات القوية على رقعة الجغرافيا التي تحركت الآن لتستعيد حيويتها ولكن بأشكال جديدة تستبعد القسوة والعنف الجماعي. وقد قامت دار المتعة بأخذ روادها في جولات على عوالم وأجواء لم تجرؤ أفلام السينما نفسها على تصويرها. وفي تعليق لثرثار معاصر لم يكن يؤمن بكتابة ملاحظاته في يوميات أو بجدواها، قال إن دار المتعة هي مصدر إلَهام السينمائيين السريين الذين اتجهوا مؤخراً نحو إنتاج أفلام جنسية عرضتها أجهزة الفيديو المنتشرة، إلاّ أنهم لم يتوصلوا إلى حرارة المصدر الذي استقوا منه صورهم وأفكارهم. لذا لم تستطع أشرطة الفيديو السرية أن تعوّض عن الفتنة الحسية التي تقدمها دار المتعة كي تبقى في الذاكرة مهما امتد العمر وشاخ الجسد.

عرفت الهندية على سبيل المثال، وقد سميت آنذاك

بالحنون، قبل ثلاثين سنة أو أكثر، بأنها كانت مصدر انتشار الأغاني الهندية ذات الايقاع السريع، يرددها الناس دون فهم لمعناها. كان ظهورها في قصر اسمهان مفاجأة ببشرتها السمراء، بعد أن ظلت دار المتعة تستقبل لسنوات عديدة نسوة بيضاوات أتين من الشمال ومن أوروبا على وجه التحديد. وكان الزبون إثر ليلة متعة واحدة تنشد فيها الهندية بصوتها الرفيع العذب ما أحضرته معها من أغان لا يعرف عنها شيئاً أحد من قبل. كان الزبون إذ يخرج من الدار ثملاً بالنشوة يظل يردد الأغنية حتى يتقنها الذين يصغون إليه دون أن يدروا من أين جاء بتلك الكلمات المبهمة وهي تخاطب أحاسيسه كدغدغة مثيرة. لقد سكر الرجال بالهندية، فكان الواحد منهم يحيي أبداً ذكرى الليلة التي قضاها بين أحضان تلك الهندية الحنون، والتي لم تعاشر الرجال إلّا على بساط من الصوف الملون الناعم السميك كفراش سحري، وقد زينت أطرافه برسوم تثير الرغبة في أكثر الأجساد بروداً أو أشدها عنّة، وتشعبت حوافه بشراشيب يخيّل لمن يلامسها بأصبع قدمه أو كفه أنها تلتف حولها لتمنحه توتراًلا تطفىء ناره إلّا حرارة المرأة المستسلمة بضعف جميل. كانت الغرفة فقيرة بالأثاث، غنية بالدفء الذي يخلقه شعور العائلة عند مشرد، إذ تؤدي الهندية رقصة التناسل بينما تدخل على الرجل فيُشْده، ثم تبدأ الأغنية الداعية إلى التحام الجسدين بعفوية لا مثيل لإيقاعها. كان جسد الهندية يتأفعى بليونة نسيم يهب إثر هدوء الجحيم المتوثب في لحظة انقضاضه، ثم ما تلبث أن تدور حول المستسلم وقد أقعى على البساط عارياً شبه خائف مما هو قادم، لكنه سيحس بعد قليل أنه بات مركز الكون، فيستسلم

لغيبوبة صغيرة وهو يصغي إلى صوتها كالمسلوب تهمس في أذنه بالجملة الوحيدة التي تعلمتها من العربية:

«أنت وحدك زوجي المحبوب».

فإذا كان من الأثرياء ترك لها هدية قيمة لا تنسى وبات يفكر في حجز ليلة قادمة قد لا تتوفر له بعد ذلك بالسهولة التي يتخيلها.

وأشاعت التوأمان الفرنسيتان دهشة رواد دار المتعة. وبالرغم من الاختلاف بين شكلي الفتاتين فإن أفانين اغرائهما المتشابهة وكأن مرآة تحملها امرأة واحدة تعكس المتعة فتصبح مزدوجة. كانت البلاد قد خرجت لتوها من الانتداب الفرنسي، فاعتبر الذين ما زالوا يحنّون لمجدهم إبان تلك المرحلة أن أسمهان تقدم لهم عبر الفرنسيتين الفاتنتين السلوى وتهيج الذكريات في النفوس. ويقال إن الفتاتين اللتين أعادتا مجد التواصل بين النسوة قبل أن تقدما نفسيهما على التوالي لطالب المتعة، يقال إنهما أول من أدخل المجلات الجنسية المكشوفة إلى المدينة يتداولها الشباب العجز عن امتلاك المال اللازم لدخول الدار. ويذكر أن تجارة رائجة لتلك المجلات والمنشورات قد تسببت في ثراء عدد من المسؤولين في إدارة المدينة.

وادعى بعض السياسيين أنه بتردده إلى تلك المرأة اليونانية التي طال مقامها في الدار، كان يتعلم سرّ الفلسفة والجدل البيزنطي الذي بات ضرورياً للتعامل مع الخصوم. كانت اليونانية الناضجة كأم أنجبت مئات الأطفال من عشرات الرجال، ما زالت تحافظ على سحر جسدها وهي تضطجع على سرير من الخشب الذي يرسل الاحتكاك به رائحة الصنوبر

الجبلي، وتتحدث بلغتها التي لا يدرك السامع سوى صوت الكلمة في حروفها ومقاطعها على أنها دعوة للتروي في قطف المتعة فالحياة تستحق المعاينة والتأمل. كانت غرفة اليونانية تبدو للوهلة الأولى وكأنها جزء من سفح جبل مقدس تظهر من كهف فيه امرأة قروية ستسقط ملابس الفضيلة عن جسدها قطعة فقطعة استجابة لنداء الحياة عند الساعي إليها من مجاعة ذات تاريخ.

وأما الصبية الإيرانية التي لم يميزها عن غلام جميل سوى ثديين مكورين كنصفي خوختين لم تنضجا بعد، وأما تلك الصبية فقد تسببت في خلافات حادة كادت تصبح دموية بين رجال كثيرين في المدينة، وتبادل سياسيون التهمة في شذوذ جنسي أصاب كل من يطلب القرب من الإيرانية تلك. ومثل هذه التهمة كانت دون شك كافية لانفضاض الأعوان والمعجبين عن السياسي. ومع كل تلك المخاوف فقد ظلت الصبية في إقامتها التي قاربت السنة محور النشاط الكبير في دار المتعة. وبالرغم من السذاجة التي لم تفارقها، فإن استسلامها البريء اللعوب لصاحب الحظ كان سر فتنتها التي أحيت أيضاً جانباً مهملاً من الأدب العربي القديم المنسي والذي تقرّب من الغلمان بجرأة مكشوفة أو رمز مستور.

وأحدثت الاسبانية هزة ما زالت ذات أثر عميق حتى يومنا هذا، فلا يتكلم الناس عنها قدر ما يتحدثون عن أفكار استيقظت في الأذهان منذ قدومها على المدينة. وكانت الآسرة الحسن الشرسة كفرس أصيلة، والتي خلفت إقامتها القصيرة في دار المتعة منذ عقود قليلة من السنين هياجاً واضطراباً، فيتحول

الخريف الذي قضته في القصر ربيعاً صاخباً يعج بغبار الشبق المجنون، وتتفتح أغصان أشجار عارية تحرس غرفتها عن أوراق يلمع فيها الاخضرار كنجوم ولدت حديثاً في كبد السماء. وقد شهدت أيام الاسبانية تغلّب أعداد الرجال من أهل المدينة والبلاد على الغرباء في طلب تلك المرأة المشتعلة. كان الصراع على أشده من أجل حجز دور لليلة تمتد عادة من أول المساء وحتى طلوع الفجر. وقد وقر في الأذهان، وهذا ما أشاعه رجل محترم ضليع في التاريخ، أن المرأة إنما هي من أصل أندلسي، لم تلتحق بدار المتعة إلّا من أجل هدف واحد يختلف عن الأهداف التي تجيء من أجله النسوة الأخريات. لقد جاءت الإسبانية لتعيد اكتشاف فحولة أجدادها العرب الأوائل، وستكون مثل هذه الفكرة وراء تسابق فئات من الرجال تمثل اتجاهات مختلفة من أفكار كانت تغلي في صدور الناس وتسبب التناحر الذي علا صوته من أجل تفسير التاريخ. وقد ثبت أنّ أكثر من واحد من طالبي المتعة مع مجد الأندلس قد قضى نحبه وهو عار بين ذراعي المرأة، فالارهاق كان فوق طاقة من أهمل قدرة قلبه على التحمل. وقد ذُكر أن احتواء جسد الإسبانية عارياً كان يتطلب جهداً وزمناً يستهلك الليل إلّا أقله. كانت إذا قدمت من وراء ستار شفاف مزركش برسوم الثيران الذبيحة وهي تقذف بالدم الأحمر من رقابها القوية، تلتفح بشال من الحرير الأسود يغطي جانباً من لحم أبيض يشي ببراءة العذراء المقدمة على فراش الرجل للمرة الأولى، بينما طبقات ثوبها تمنح الرجل المنتظر احساساً بأنه سيزيل تلك الطبقات عن الجسد الطري كما يقتلع حراشف ثمرة حلوة المذاق، وعيناها الواسعتان بكحل عربي بدائي تفحان بالدعوة. وإذا ما

أصبحت في مركز الغرفة والسقف العالي يحولها إلى نافورة من نيران تتدفق في كل اتجاه، تتوقف بتردد لا يلبث الإقدام أن يلغيه، فتقترب من السرير النحاسي المرتفع عن الأرض الخشبية كمذبح وثني، ثم يحدث استرخاؤها عليه صوتاً يشبه تكسر عظام تحنّ إلى من يطحنها. آنذاك تبدو الإسبانية وكأنها أصبحت للرجل لقمة سائغة، فيهمّ عليها باندفاع المنتصر، لكنها سرعان ما تستوي جالسة على السرير الذي تغطيه الدانتيلا الوردية وقد التهبت بشرتها بفعل أضواء القناديل النحاسية المتدلية من السقف، وتبدأ في استخراج آخر شعلة من أعماق الرجل الذي سيشغل منذ تلك اللحظات برحلة الملاحقة والبحث عن بقعة ولو صغيرة من ضياء الجسد الذي سيبدو كقطعة من الزبدة تذوب بين اليدين فتختفي في أقل من ثواني الالتياع. كان غناء الأندلسية الخفيف أقرب إلى نحيب امرأة مشتاقة، تطلقه في رحلة التعذيب الطويلة، فيكون كالإبر لا تنفك عن إيقاظ الرغبة تلو الرغبة إثر الرغبة، ثم يتحول الغناء إلى مواويل متقطعة الأنفاس، وكأنما الماضي الدفين يستيقظ مولولاً، فيكون الالتحام الأخير بجسد الأندلسية الخالص من كل عبء لثوب أو لقماش يستر شيئاً من الكنز المكتشف أخيراً، يكون نهاية لنضال طويل منهك يؤدي حتماً إلى نوم عميق وطويل، ثم لا يلبث الرجل إذ يستيقظ قرب الفجر أو بعد طلوع الشمس أن يجد نفسه خارج الدار مستلقياً على المرج الأخضر أو ممدوداً على مقعد خشبي، فتصيبه رعشة الحلم بالعودة من جديد إلى المرأة، كي يعاود اكتشاف الجسد الذي أضاع ملامحه، أو ليطرح سؤالاً على نفسه أو عليها شخصياً: «هل استطعت حقاً أن أتفوق على فحوله الأجداد؟».

ومثل هذا السؤال لم يكن له جواب، كما أن الفرصة لم تتح لأحد في اللقاء الثاني بالأندلسية الذي بدا مستحيلاً. وتظل حرقة في الفؤاد، بل ربما لوثة في العقل. وفي أيام بقاء الأندلسية في دار المتعة، ولربما بعد ذهابها، استيقظ الحنين إلى الأمجاد السالفة والامبراطورية التي امتدت من أقصى الشرق إلى أبعد نقطة متاحة في الغرب، فهاجت قرائح الشعراء تتغنى بدولة الأندلس الضائعة، وأبرزت الجمعيات والأحزاب في مبادئها المعلنة أهمية أن يكون للإنسان فردوس مفقود يستعيده بأية وسيلة متاحة، وانقلبت كلمات بعض المدائح الدينية كي تصبح بكاءً على مجد قضى وحاضر انتشر فيه الضعف والفساد، مما اضطر كبار المسؤولين آنذاك إلى توجيه وسائل الاعلام نحو نشر روح التفاخر وعدم الاستسلام للأحزان والحث على الايمان بالنفس والثقة بالنظام القائم.

وكانت الزنجية السوداء الناعمة والطرية أكثر من ثمرة باذنجان قطفت حديثاً، والتي قيل إنها من السنغال بينما أكد تجار لهم خبرة في التعامل مع أفريقيا أن الزنجية قد جاءت من أعماق الأدغال المتوحشة، فقد تسلحت بطبل تتمايل عليه كحيوان زاحف أملس، فيهيج رقصها الذي لا قاعدة له الرغبة عند الرجال في استعباد المرأة. وكان يحلو لهم أن يدخلوا عشيرة لا يقل عددهم عن خمسة، يفترشون الأرض المكسوة بجلود حيوانات متوحشة لكنها ناعمة، ويبدأ طقس الاستعباد الجنسي. إنهم يتقاذفون فيما بينهم جسد الزنجية المكبل بسلاسل ذهبية، فيخرج الزبد من أفواههم في محاولة لفك تلك السلاسل كي تكون وليمة التهام الجسد اللامع دون عوائق، بينما الزنجية تنفر وتقاوم وتهمهم بأصوات فطرية تتزايد

وحشية مع سقوط السلاسل قطعة فقطعة. وسيكون للمرأة السوداء بعد ذلك دور في انتشار عادة استيراد الخادمات من بلاد أفريقية أو أخرى مختلفة انتشرت فيها المجاعات وساد الفقر، كانت الأسر الغنية في المدينة تتباهى بعدد الخادمات الملونات اللواتي يعملن بامرتهن، بينما الرجال يتذكرون في اختلائهم ببعض من الخادمات ليالي الزنجية التي لا تنسى، وكأنما المدينة تستعيد مجد الرق الذي انقضى عهده منذ قرون، فتتفاخر بين المدن جميعاً أنها الأكثر ثراء وعزة وقوة.

- ٧ ———

وكما ذكر في الصفائح المكتوبة بالقصبة أو بالريشة الثلث والتي كان حبرها الأسود أو الأزرق النيلي يجف مع الرمل ثم يتكسر مع مرور الزمن، فتبدو أوراق اليوميات وكراريس المذكرات وكأنها أحياناً لوائح طينية مشوية كتلك التي تكتشف مع الآثار التي تعهدت البحث عنها شركات ومتاحف وجامعات أجنبية كانت تخرج دوماً بثروات تدل على عراقة المنطقة. وبينما تكدست أوراق اليوميات في خزائن أصحابها، انتقلت آثار كثيرة إلى خارج الحدود ولم تعد. كما ذكر في تلك الصفائح عن أحداث المدينة بدءاً من نقص في الخبز مروراً بأفراح الأغنياء وانتهاء بتقلبات الحكام على السلطة، فإنه لم يأت ذكر واضح أو مفصل أو قول يشفي الغليل على وصف كامل وحقيقي يعتمده الجميع للمرأة صاحبة دار المتعة.

كان ذكر اسمهان يأتي أحياناً مصادفة أو أنه يمر في حاشية على هامش الورقة أو في سياق حادثة يدونها صاحب

يوميات. إلّا أن أسمهان ستظل عبر كل ما كتب في السنوات الماضية رمزاً للأنثى في معناها المطلق، حتى أن الحديث عن أية امرأة كان يظن أحياناً على أنه حديث عنها، كما أن ذكر اسمهان مجرداً قد يعني الحديث عن أية امرأة كان لها ذكر قوي في المدينة. وكثيراً ما كان الاسم يستبدل بأوصاف أخرى تختلف من كاتب يوميات إلى غيره، فعرفت اسمهان مثلاً بالسيدة أو الست وأحياناً بالملعونة أو بامبراطورة الرذيلة أو بملكة الفسق أو بزهرة العهر أو بالمغولية الفاتنة وغيره من الأسماء، ولكن الاجماع ما زال قائمـاً على أنها الجميلة الساحرة، ويشطح الخيال الذي تساعد عليه مفردات اللغة الواسعة فيذكر شيء عن رائحتها التي ما هي إلّا مزيج من رحيق القرنفل والفل والياسمين مع البخور الجاوي وشيء من القرفة عند طحنها، كما ويتخيل عدد من المؤرخين غيـر المتزمتين جسد المرأة الذي يضيء في عريه كما في تخفيه تحت العباءة المشغولة بخيوط الذهب والشهوة. ويخطىء كثير من الذين يتناقلون مقاطع من تلك اليوميات فينطق بعضهم بأن تلك الأوصاف المتعلقة بأسمهان تأتي في مجال المديح لها، بينما يوردها آخرون على أنها في مقام الذمّ، ومثل هذا الأمر تعلّق باللغة الخاصة التي تنطق بها، فمنهم من ينسبها إلى اللسان، ومنهم من يقول إنها لغة العينين، وهي في الأحوال كلها مفهومة من البشر وإن كان واحد منهم لا يستطيع أن يقلدها أو يعيد شيئاً منها، فكأنما المرأة تتخصص بلغة عينين لا تشبه قوتها وفتنتها الآسرة أية لغة أخرى.

كنت إذا نلت حظاً في قراءة ملاحظة عن اسمهان مباشرة أو غير مباشرة، ستجد الأقوال مختلفة:

«غناء ساحر لا تميز فيه اللحن من التلاوة».
«همس مثير لا تعرف فيه الكلمات من الإشارات الصوتية».

«تدعوك إلى الثقة بنفسك في الوقت الي تستسلم فيه لها دون إرادة».

«هي التي تعلمك وهي التي تمحو من ذاكرتك كل شيء«.
«المرض منها، وفيها الشفاء».

«إذا كانت مخلوقة من نور، فلا ريب في أنها ابليسة لا رحمانية».

«وإذا خطت بأقدامها على المرمر فمن خطواتها خرجت موسيقا متعددة الأصوات ترسلها آلات سماوية».

«وصوت احتكاك خطواتها بالسجاد العجمي أو الصيني أشبه بحساسية خبيثة تصيب الرجل وهو يحك جسده المعذب».

«سكوتها دعوة وصمتها أمر»..

وكان كل وصف لأسمهان نوعاً من التخييل يرشح صاحبه كي يكون حكواتياً بارعاً أو قاصاً فنياً، وفي حوارات بدت أنها مخترعة قامت بين اسمهان دون ذكر لاسمها وصاحب اليوميات، اكتملت مشاهد مسرحية بالرغم من أن فن المسرح لم يكن شائعاً أو مرغوباً فيه.

«يدخل الرجل المكان الذي بدا كفردوس مهيب أو قطعة من جهنم أخذت لنفسها هدنة، يتأمل القاعة التي انفتحت قبتها على سماء سديمية، ويهتف:

ـ يا أهل الدار.. جناً كنتم أم انساً.

فيأتيه صوت دافىء من عمق القاعة الذي لا بد أنه محراب لا صلاة فيه:

ـ عليك الأمان يا فاقد الأمان.

يرتعش الرجل وتزداد ضربات قلبه، ويهتف من جديد؛

ـ أريد أن أرى وجهك.

يقول الصوت كأنه يجيء من كل زاوية مشبعاً برطوبة الأنثى:

ـ إذا كنتَ تحبني تراني.

فيظل الرجل يبحث فلا يجد سوى المرايا تعكس شكله وهو يتخبط باحثاً».

ومثل تلك الحكايات الحوارية تكررت في أشكال مختلفة بعيداً عن ذكر الوقائع التي تجري في المدينة، وكأنها محطات يحاول فيها الكاتب الترويح عن نفسه أو التفلسف بخروجه عن الواقع الذي التزم به في تدوين مذكراته ومشاهداته.

وبالرغم من سيطرة الاحساس باسمهان عند جميع من كتب منذ قرن على أقل تقدير وحتى يوم ابتدأ الاهتمام يقل بما يجري، فإن وصفاً واحداً لصاحبة القصر لم يحدد لون عينيها على سبيل المثال أو طول قامتها بشكل دقيق، وإن كان الخيال يذهب ببعضهم إلى وصف شامة عند التقاء الفخذ بالبطن أو الحديث باسهاب عن السرة التي توسطت بستان البلور. كان مجرد ذكر أسمهان عرضاً أو بقصد كافياً للتدليل على الأنوثة الخالدة في كمالها، أو للتعبير عن قوة خارقة، كأنما هي حلم لا يناله أحد بالسهولة التي يتوقعها أو أن الذي عاشرها حقاً في

المخدع الذي لم يجرؤ أحد على التكهن بأوصافه، لم يخرج من القصر بعد دخوله.

- ٨ -

وتتناقل الأجيال بكل طبقاتها ذكر اسمهان على أنها هي الوحيدة لا شريك لها في ملكية البناء الذي بات نقيضاً للمعابد الكثيرة المنتشرة في كل الأحياء، وهي تمثل الأديان السماوية في المدينة. وبالرغم من غلبة المساجد فإن التعايش الديني كان سائداً ولا يشبهه شيء سوى الإجماع على أن دار المتعة سكن للشيطان نفسه، ولكنه الشيطان الذي ينحدر من أصل نبيل ملائكي. وهكذا أجمع أولئك المؤرخون الفوضويون، بجهل منهم أو بمعرفة، على أن بناء دأر المتعة، نقيض يستحق الاحترام بشكل ما، وهو سيصبح عند ذكره همساً بين الناس مقدساً له مهابة.

وقد كانت سيرة الدار إذا تداولها أحد، فإنما يكون ذلك بشيء من التكتم أو بصوت خفيض أو بإشارة مفهومة القصد. وهكذا مازج الاحترام شيء من الخوف من ألّا تكون هناك فرصة للمتحدث عن دار المتعة في تذوق ذلك النعيم ولو مرة واحدة في العمر، أو ان احترام الدار نابع من تخوف الانسياق وراء الشيطان الذي لن يقود إلّا إلى الدرك الأسفل من النار.

وأما النساء فلهنّ حكاية أخرى. فقد أدركت نسوة المدينة خطر بنات الدار وصاحبتها عليهن، وسيعبرن عن ذلك الخطر بالرفض القاطع لفكرة تسمية واحدة من خلفتهن بأسمهان، ولكن هذا الخوف كان يخبيء اعجاباً دفيناً أو مستوراً بتلك

الأنثى، ويبدو مثلاً أن تحول النساء في المدينة نحو الملابس الداخلية الناعمة أو الشفافة جاء تقليداً لما أشيع عن بنات الدار، وكانت تلك الملابس في الماضي قطنية أو صوفية سميكة لا تظهر الأنوثة بأي حال وتسربل المرأة بثياب لا تختلف عن ثياب الرجل في شيء. وظهرت طبقة جديدة من تجار الملابس النسائية تستورد من الخارج كل جديد في عالم المرأة وبخاصة تلك التي لا يراها إلاّ رجال لهم صلة شرعية أو غيرها بها.

وبالرغم من أن فعل العيب كان يرتبط عادة بمن يأتي على ذكر أسمهان من نساء المدينة، فإن كثيراً منهن ممن لهن علاقة سرية بعشاق من رجال قادرين على منح الحب في غياب الأزواج المطمئنين، لن يطالبن في اللحظات الحميمة أن ينادين باسم أسمهان وكانت المرأة مثلاً عندما تقابل عشيقها في الخلوة المقررة تهمس في أذنه قائلة:

«هل تريد أن أتسمهن لك؟».

أو أن الرجل نفسه يهتف بالمرأة آمراً كشيخ قبيلة مطاع:

«تسمهني لنا يا جميلة».

وقيل إن أولئك النسوة من أهل المدينة في الخلوات كن يفضلن أن ينادين بأسمهان على أن تستخدم أسماؤهن الشخصية. وقيل إن مثل هذا الأمر كان للتستر أو لربما للخجل من ارتكاب معصية الخيانة الزوجية، وسيظل اسم أسمهان واشتقاقاته من كلمات السر المتداولة في رسائل العشاق والحب المحرم.

وقيل إن حرف (السين) الذي شاع في أسماء الدلع، إنما

يعود إلى بروز ذلك الحرف الموسيقي في اسم أسمهان، فدرجت نسوة على اقناع أهلهن وأحبتهن من صاحبات وأزواج أو عشاق بمناداتهن بسوسو أو بسوسة أو بساسي، وإن كان الاسم الأصلي لهن ليس فيه ذلك الحرف. وكان السبب الظاهري هو اضفاء الليونة ذات الايقاع على اسم المرأة لتزداد أنوثة.

وقد قيل أيضاً إن ارسال الآهة الممطوطة عند سماع أغنية عاطفية أو حديث حب مؤثر، إنما هو احياء لحرف (الهاء) الذي تخرجه الحنجرة للتوسل أو الاشتهاء أو للتحسر. وقد كانت آهات النساء دليلاً على مدى تمثلهن لأنوثة أسمهان الأسطورية، واستحضاراً لسطوتها الجنسية على الرجال. لذا فقد كان فعل (الهسهسة) شائعاً في خلوات الحب، فهو يعني الكف عن الكلام والالتقاء بالفعل، وهو يعني أحياناً شيئاً كالمواء الإنساني تستدعي فيه الأنثى رجلها بكلمات غير مفهومة ولكنها تشتعل بالاغراء. وهكذا باتت السين والهاء من رموز أسمهان المتداولة في السر، وفي العلن أحياناً.

- ٩ ---

وستبقى الأبصار أبداً متعلقة بالقصر الرابض على التل الذي كتب عنه الشيخ الألفي مؤكداً أن ما تواتر من أخبار قديمة يؤكد على أن التل اصطناعي بعكس التلال الأخرى المحيطة بالمدينة أو الموجودة فيها. ولم يحدد الشيخ تاريخاً محدداً، لكنه ذكر أن التل ارتفع جيلاً بعد جيل وتكلّس من عظام آلاف البشر وجماجمهم، إذ كانت هواية الغزاة

الذين تعاقبوا على مهاجمة المدينة واحتلالها على مر العصور هي في تقطيع الأوصال وفصل الرؤوس عن أجسادها ويبدو أن مثل تلك الهواية ابتدأت بالمعارضين أو المقاومين من أهل المدينة لغزو الغرباء، ثم أصبحت عامة تشمل كافة الناس من السكان، رجالاً كانوا أم نساء وشيوخاً وأطفالاً. ويبدو أن أول الغزاة في اختياره لذلك المكان الذي يرجح أنه يقع خارج السور مباشرة، قد دشن تلة المذابح فباتت معلماً جغرافياً يهتدي إليه الغزاة من بعده يضيفون إلى التلة ارتفاعاً بعد ارتفاع إلى أن أصبحت قامة التلة عصية على من يضيف عليها، فتوقف القتل الجماعي وهدأت حدة المذابح، ومثل هذا السكون كان إيذاناً بغياب هجمات الغزاة والمعتدين الغرباء على المدينة التي نمت وتوسعت وقد حافظت على وجودها من بين مدن كثيرة لم تصمد لمثل تلك النوائب.

•

كانت المدينة عند مفترق طرق تاريخية استخدمت للتجارة بين الشعوب والأمم، ثم باتت محطة لجحافل المحاربين وقد خرجوا في الأرض يقتلون ويدمرون. وكانت المدينة كريمة لم ترفض لجوء الغرباء إليها، فساهم هؤلاء مع مرور الزمن في ولادة عادات وأفكار جديدة، فظهرت في المدينة حرف وصناعات نقلها معهم الغرباء واللاجئون، كما تميزت التكايا بشيع من مذاهب دينية كانت تعكس دون شك ما تحدثه الفرق السياسية والاجتماعية المختلفة التي باتت المدينة حاضنة لها تظهرها في أيام معينة وتخفيها في فترات متعددة، وستصور اليوميات تلك الأفكار والاتجاهات غير مخفية انحيازها لفرقة ما أو حاكم وضع يده على كل شيء. ولسرية تلك اليوميات كان

العداء تلميحاً أو ظاهراً لكل ما يجري في حياة المدينة. وبالرغم من أثر اليوميات على الناس، فإن النسيان في زحمة العمر كان وباء أحياناً وعزاء أحايين أخرى.

وعندما ارتفع بناء دار المتعة على تل المذابح التاريخي، ما عاد أحد يذكر توقيت البناء أو ارتفاع التل نفسه، فكأن الذاكرة تتجه أبداً نحو الحياة بكل ما فيها من سعي إلى القوت ونزوع نحو المتع، وكانت غريزة البحث عن السعادة تنسي الأهوال وتتناسى الموت. وهكذا كانت الأبصار تتطلع إلى القصر كأنه علامة على حدوث ما يجب أن يكون في زمن لا تتحقق فيه الرغبات، أو أنه إشارة ستحدث بين متحابين لا يرضى أحد باجتماع شملهما. كان القصر حلماً يتخيله الناس عن بعد كما يشاؤون، وأما الداخلون فلهم فيه اقتراب من واقع سحري.

وبقي التل بعيداً عن الضجيج الذي يلده قلب المدينة متزايداً يوماً بعد يوم، كما أنه ظل بمنأى عن التطور الذي يلحق بالضواحي المستحدثة. وبالرغم من التوسع الذي لحق بالمدينة في كل اتجاه، فإن القصر حافظ على تفرده، كما أنه ظلّ يُرى من أية بقعة يقف فيها ناظره. وكثيراً ما ينسب إلى القصر مواقع أهم المرافق والأبنية الكبرى كأن يقال إن قصر العدل ينتصب بقاعات محاكمه العديدة أمام الواجهة الشرقية لدار المتعة، وإن مبنى السجن الجديد أمام الواجهة الغربية، كما ان المجمع الثالث للمصح النفسي الحديث هو في منتصف المستقيم الذي يصل دار المتعة بمبنى قيادة أجهزة حفظ الأمن. وكثيراً ما يقال عن مستديرة هامة عند تقاطع طرق عريضة أقيم في مركزها تمثال أو نصب، إنها قبل دار المتعة

بمفرقين. وإذ تهب ريح عاتية تقتلع أشجاراً مثمرة وتهز الأكواخ الخشبية التي تؤوي الفقراء والمهاجرين، يقال إنها ريح جاءت مباشرة من دار المتعة. وإذا ما هبّ نسيم عليل في ليلة صيف حارق، تمتم رجال في سرهم أو على رؤوس الأشهاد أن النسمة الرائعة وافدة من التل الذي يرسل بالطيب عادة إلى المدينة. وكان الزلزال الذي ضرب المدينة منذ نصف قرن أو أكثر قد زعزع أساسات عمارات عالية كثيرة، لكنه لم يصب دار المتعة بخدش، فقالوا إن الشيطان، وهو سبب الزلزال، لا يؤذي نفسه، وهكذا وقر في أذهان بعض الناس أن الزلزال القادم سينسف الدنيا من جذورها إذا ما بقي التل حاملاً على رأسه وكر الدعارة ذاك.

ويتساءل مدون ذكي في صفحة من يومياته إن كانت دار المتعة محصنة ضد الأمراض، إذ لم يسمع بعد أن طبيباً قد زار الدار لعلاج أحد فيها. وهكذا تردد في الأمثال والأقوال أن أسمهان من سلالة الجان، وأن صاحبة الدار لا تعرف العلل أو الأمراض، وأن بنات الدارمحصنات يطوقن خصورهن بأحجبة تقيهن خطر الميكروبات، كما أن ممارسة الحب في دار أسمهان تكسب المناعة التي تطول فترتها عادة قياساً للمتعة الجسدية الصافية التي يحصل عليها زائر الدار. ويتعجب صاحب اليوميات إن كان الهدف من ارتياد تلك الدار هو كسب الصحة وإطالة العمر، وهل صحيح أن نافورة الماء التي تتوسط قاعة المدخل تمنح الشارب منها حيوية عجلٍ فتي فلا يعرف التعب بعد ذلك وينكر وجهه التجاعيد ولا يئن له مفصل ولا يسمع له سعال وينجلي البصر عنده والسمع وتنتصب قامته كعود الخيزران. ثم يقول المدوّن بعد ذلك إن اللهفة إلى ولوج مخدع

المرأة في الدار، لا تدع للداخل مجالاً في شرب جرعة ماء واحدة، كما أنّ الخارج يكون قد سكر بخمرة الجسد فما عاد ماء يغريه ولو كان قادراً على احياء ميت. وأما الذين يدخلون فلا يخرجون، فعلمهم عند ربي. هكذا يكتب صاحب اليوميات.

وقد قيل، ولربما كان ذلك في رسالة ردّ فيها أحدهم على سؤال جاءه من بعيد، إنه ذات مرة، وكان ذلك منذ زمن طويل لا يتذكره أحد على وجه التحديد والدقة، شوهدت عربة أسمهان بخيولها الأربعة المزينة بالريش الملـون والسيورْ المذهبة، تتوقف أمام صيدلية الرومي العجوز في ساحة البلور في السوق العتيق. وفي أغلب الظن أن الذي بدأ في رواية الواقعة لم يشاهد من قبل عربة سوداء مقفلة السقف والجدران بمثل تلك الأبهة، فجزم بقوله أنها لأسمهان ولا يمكن أن تكون إلاّ لها. وبالرغم من أن زجاج البابين السميك المدخن كان يشف بصعوبة عمن هو بداخل العربة، فقد قطع الراوي بأن جلال راكب العربة إما أن يكون لمسؤول خطير أو لصاحبة القصر ولا احتمال لأمر ثالث. ويضيف على ظنونه بخبر يقين أن صاحبة القصر في اختيارها لأربعة من الخيل البيض كانت تؤكد على أنها الشمس التي تطل بضيائها على الجهات الأربع.

وهكذا يؤكد الراوي على أن المراة المحجبة من أخمص رأسها وحتى كعبي الحذاء اللذيـن سمع لهما رنة على البلاط الأسود في الساحة، لا يمكن أن تكون إلاّ أسمهان. وبالرغم من الشك في حاجة المرأة أصلاً إلى دواء أو علاج، فإن مثل تلك الزيارة إلى الرومي الذي أسهم في تعليم الصيادلة من بعده لعبة العقاقير العجيبة، أكدت على أنّ أسمهان هي التي علمت

العجوز أسرار الأقرباذين ونقلت إليه تعاليم تركيب الحبوب التي تعيد الشباب إلى شاربها، فصنعها لمن عنده القدرة على دفع قيمتها التي كانت فوق طاقة الفقراء ومتوسطي الحال أيضاً. وكذلك بات عند أهل المدينة يقين بأن سيدة الدار تزور المدينة سراً عندما تشاء، وهي في كل زيارة تبدو امرأة مختلفة عما كانت عليه في المرة السابقة. وإذا كان ترددها على قلته إلى صيدلية الرومي الذي لم يتقن العربية بالرغم من مرور أكثر من نصف قرن على حياته هنا، قد تأكد لبعض الرواة، فإن زيارتها للسوق وكبار التجار فيه أو للمسؤولين في الإدارات الرسمية لم تكن ملموسة بل تحيط بها الشكوك مما دفع بالرجال الذين يمتلكهم الفضول عادة إلى اكتساب عادة البحث في وجوه المارة من النساء محدقين بغباء أو بتذوق بحثاً عن أسمهان فيهن. ومع مرور أجيال مختلفة تصبح عادة تفحص النساء شائعة في المدينة فيدهش لها الغرباء إذ لم يسبق لهم أن شاهدوا مثل هذا الفضول أو الاقتحام بالنظرات المستطلعة للنساء في أية مدينة أخرى من بلاد الدنيا. ولن تكون تلك الظاهرة مضادة للحياء بقدر ما هي التعبير الفج في البحث عن شيء معلوم ومجهول في آن.

ـ ١٠ ـ

وعلى مرّ السنين والأيام سيثبت لمهندسين كانوا قد تلقوا فنون العمارة في بلاد أوروبية مختلفة المذاهب، أن دار المتعة دون غيرها قد أعطت للمدينة نكهة خاصة في الطراز المعماري الذي ساد من بعدها، وجعلها تختلف في أسلوب البناء عن المدن الأخرى في الرقعة الجغرافية. وقد ظلّ مثل هذا الرأي

الفني غير مدون، إذ أن مهندساً غامر بتأليف كتاب مدعم بالصور والرسوم والشروح المستفيضة يثبت فيه أن بناء دار المتعة هو بداية عصر جديد في فن العمارة، لكنه لم يغامر بنشر الكتاب خوف اتهامه بالدفاع عن الدار نفسها وأنه من روادها فينكره أبوه سليل الأسرة الدينية العريقة وتخجل منه عائلة زوجته المحافظة. وهكذا ظلت مثل تلك الآراء غير مدونة وإن بقيت متداولة.

وفي صفحات غامضة التراكيب من أوراق أولئك المؤرخين الهواة، جاءت إشارات وتلميحات ذات مغزى إلى أن القصر قد بناه خيال صاحبته الذي لا يجاريه خيال في تاريخ المدينة، فهي على الأغلب وصفت التصور الشامل للمعمار الذي يشبه القلعة الرابضة على تل ميت فأحيته، ولما كانت تلك القلعة ليست للحرب فهي لا بد صممت لإعلاء كلمة الحب الجسدي في بلد لا يتحدث إلّا عن الطهر والعفة والقيم الروحية. والمرأة أم الدار، هي التي ألهمت الصناع كل التفاصيل الداخلية للقصر من زخارف وأشغال خشبية ومرمرية. وبحسها النوراني حددت بؤر الإضاءة، ولا بد من أن حساسية جسدها هي التي وجهت توزيع الصوت على القاعات والغرف والممرات والأقبية لكي يصبح الهمس ارتعاشاً والضجة صمتاً. ولا بد من أن خبرة واسعة قد تجمعت لدى المرأة خلال تجوالها وهي فتاة صغيرة في معظم أنحاء المعمورة، وأكسبتها قدرة على تخيل ما يجب أن تكون عليه دار للمتعة لا تشبهها دار في الدنيا كلها. وكان للمرأة ما أرادت، ولكنها دون أن تدري باتت معلمة وملهمة للبنائين والمهندسين يحاولون أبداً الاقتداء بإلهامها في تشييد

الأبنية القادرة على التعبير عن وظيفتها التي ارتفعت من أجلها. ولقد نشأت، كما يؤكد بعض الخبراء، مدرسة في العمارة تبعها معظم العاملين فيها إلا أنه لم يجرؤ واحد منهم على الاعتراف علانية بربطها بدار المتعة.

ارتفع مبنى غرفة التجارة على مساحة من أرض خصبة كانت من قبل بستاناً عامراً بالأشجار. وقد حفل البناء بالزخارف كأنها نقوش عملة ورقية يصعب على المزورين تقليدها، واكتست أعمدته بقطع من الرخام النادر دليلاً على برودة أصحاب المبنى في التعامل مع السوق ومجابهة التقلبات، وكان البرج الذي يتوج المبنى قريباً في تصميمه من دار المتعة ويرفرف عليه في أيام الأعياد والمناسبات الاحتفالية علمان الأول هو العلم الوطني والثاني شعار غرفة التجارة الذي توسطت فيه الساحة الخضراء رمز النماء دائرة برتقالية قيل إنها تصور العطاء. وكانت مرافق جديدة قد أحدثت في العقد الأخير كالمطاعم والفنادق ذات النجوم المتعددة، والتي يتزايد عددها بانتظام لمجابهة حركة السياحة ورجال الأعمال المتوافدين على المدينة كأسراب الحمام الذي نثر له الطعام في كل زاوية من الأرض، كانت تلك المرافق تحقق بكل اتقان تقاليد المدرسة الجديدة في العمارة الحجرية. كذلك أبنية الجامعة لم تخل من التزام بتلك المدرسة. إلّا أن المباني الشعبية التي تناثرت على أطراف من المدينة أو على أنقاض أحياء فقيرة لم يقاوم الزمن خشبها وطينها، تلك المباني لم تخضع لتقاليد تلك المدرسة، إذ ساهم الاسمنت المسلح بتراب رخو في تماسك طبقاتها بفعل دعاء أصحابها وتوسلهم، وانكمش بلاط غرفها الضيقة لتكون تلك المباني جحوراً فوق

أرضية تمهد حجومها لقبول فكرة القبور تحت الأرض في الوقت المناسب.

ولا بد من أن الزمن قد كشف مع تراكمه، عن أثر صاحبة القصر على حرف ومهن كثيرة أخذت طابع الفن الشعبي السائد الذي أتقنه عدد من الرجال الذين لم يعلمهم معهد علمي أو وحدة تدريبية، فكأن الاتقان عندهم جاء من الهام علوي. وقد انتشرت صناعة البسط الصوفية الملونة، وكانت الصغيرة منها غالباً ما تظهر خيوطها الملونة المتشابكة امرأة واحدة، هي جميلة ووديعة وتأخذ أوضاعاً مختلفة، فهي تارة تطل من بين أوراق الأشجار تستر عريها الذي ينمو الخيال في تصوره، أو أنها تمتطي جملاً وقد برزت العينان اللوزيتان من خلف خمار فتبدو وكأنها في رحلة يتخيلها العاطفي باتجاه المغامـرة المجهولة بلا قيود، ويتصورها المحافظ رحلة باتجاه حج مبارك. وهي تارة ممسكة بتفاحة حمراء تضعها بالقرب من فمها المتورد تهمّ بقضمها وكأنها الأم الأولى تعطي للخطيئة معناها القدسي. وفي شبه إجماع من الناس، تأكد أن المرأة التي انتشرت صورها عن طريق البسط الصوفية ما هي إلا أسمهان نفسها، وإن كانت أسماء مختلفة قد أطلقت ظاهرياً على تلك المرأة وفق المراحل الزمنية المتعاقبة.

وكان الخزافون الذين استفادوا من حرفة الفخار المصنوع من الطين المشوي منذ آلاف السنين، قد طوروا في تلك الحرفة لتصبح أكثر تقدماً فلا تعود مقتصرة على تقديم أواني الشرب والصحون وأوعية النباتات المنزلية، فصنعوا قطعاً فنية تباهت بها المدينة، وكانت الآنية ذات البطن الذى يشبه حوض المرأة

الولود، هي أشهر ما صنعه أولئك الخزافون. وقد أضاف بعضهم على البطن حلقة من الحروف البارزة التي يخيل لناظرها أنها مستوحاة من الزخرفة البدائية. وكانت حروف الألف والسين والميم والهاء والنون، هي الغالبة على ما عداها من حروف الأبجدية، تتوضع على سطح الإناء اللامع بألوان قد يكون لها ارتباط بالمعنى المطلوب من ترتيب تلك الحروف في الطوق الذي يحيط بالبطن الأنثوي للوعاء الخزفي. وهكذا تركت للمخيلة فرصتها في تشكيل ما تشاء من أسماء وأفعال ومعانٍ تدخل حروف أسمهان في تركيبها، فكانت المخيلة تغرف من بحر الحروف ما تشاء من المعاني. وكثيراً ما كانت مهارة خزاف تتميز عن غيره في طريقة توزيعه للحروف على الإناء وفي إحساسه بالحرف الواحد، شكله وحجمه وبروزه عن السطح أو غوره. ومن الخبراء من ردّ أصول تلك الحروف إلى المسمارية ومنهم من قاربها من الفينيقية، وادعى بعضهم أن الأثر المغولي واضح على بنية تلك الحروف فأحدث تشويشاً فيها قرّبها من الرموز والأشكال المبهمة أو من التمائم السحرية، لذا شاع بين الناس أن نماذج من تلك الآنية الخزفية لا بد تنفع إذا ما استخدمت لشرب الماء المقروء عليه أو الأعشاب المختارة. وهكذا كان هناك إناء لعلاج العقم أو لاستحلاب المحبة أو لإزالة آثار رعب أو ذعر كان كالوباء يصيب الأطفال ولا ينجو منه الكبار أحياناً وبخاصة يوم يداهم بيت بحثاً عن متهم أو ملاحق أو من لحقت به وشاية عند إدارات وأجهزة حفظ النظام وتحقيق الأمن الشامل.

وعلى ذكر المغول، فلقد ثبت أن البلاد التي غزاها أولئك

البرابرة منذ قرون، ما زالت تحمل آثار تلك الغزوات العاصفة والمتعاقبة في أشكال بعض الناس وبنية أجسادهم وتركيب عقولهم أحياناً. إلّا أن آثاراً ايجابية لا بد من ذكرها، فالخلط في الأنساب أنجب جمالاً نسائياً ملحوظاً وجاذبية جنسية قد لا تقاوم، لكن جمال صاحبة دار المتعة أمر آخر، فإنه لم يكن له مثيل، بالرغم من إصرار واضح على أن أسمهان ليست من أهل المدينة، بخلاف ما ذهب إليه عدد من كتاب اليوميات إلى أن المرأة وإن كانت لم تخلق هنا، إلا أنها تنحدر من أسرة قديمة الوجود في المدينة كانت قد هاجرت منها إثر مجاعة كبرى شردت الآلاف وقضت على أكثر منها، ثم عادت من جديد. إلا أن أحداً لم يستطع أن يتكهن أو يحقق في نسب لأسمهان أو أقاربها بشكل دقيق أو عشوائي. وهكذا لعب التأويل دوره في البحث عن أصل لأسمهان، إلّا أن النصـر سيظل حليف المتزمتين في نفيهم الدائم والقاطع لأية صلة للمغولية بالمدينة، ومثل هذا الجزم يشبه الرأي الرسمي الذي لم يتخل عن الأهمية السياحية لدار المتعة بالنسبة للمدينة ومستقبلها الاقتصادي.

وهكذا كان اهتمام إدارة السياحة التي أحدثت منذ عقد واحد، يعادل عناية السلطات والجهات الاقتصادية باجتذاب أكبر قدر ممكن من العملات الصعبة التي يحضرها معهم الغرباء والوافدون إلى المدينة لاعمال تجارية مختلفة وللفرجة ولقضاء ليلة خالدة في دار المتعة. وقد نظمت السياحة، بالتعاون مع إدارات مختلفة، جميع الطرق والمسالك بما فيها المعلقة أو التي احتوتها الأنفاق، والتي تقـود إلى قصر

أسمهان، نظمت اتجاهاتها وإشارات المرور على أحدث الوسائل العالمية. وقد باتت اللافتات الفوسفورية التي تحمل شعارات مجلس المدينة والرسوم والنقوش الأثرية، باتت من أجمل الإعلانات التي تدل على ما وصلت إليه المدينة من رقي، وبخاصة عندما تنعكس عليها أنوار السيارات العابرة، فتضيء اللافتات كأجنحة فراشات نادرة. كما أنجز تشجير المنعطفات والممرات، وأحدثت حدائق صغيرة زرعت فيها تماثيل لمشاهير المدينة من سياسيين وكتاب وشعراء وتجار وأطباء وموسيقيين وغيرهم، فكان الوصول إلى دار المتعة سياحة لا تنسى، وهكذا توفرت متعة النظر لمن لا تتوفر لهم القدرة على اقتناص المتعة في قصر أسمهان.

وكما علمنا، فإن قرار مصلحة الآثار في اعتبار ذلك القصر من الأبنية القديمة التي وجب الحفاظ عليها، تأكيد آخر على ذكاء السلطات الإدارية في إلقاء المزيد من الأضواء عليه. ومع ذلك فالقرار كان سرياً لم يعلن في الجريدة الرسمية خوف احتجاج المتدينين الذين ظلوا يرفعون شعار الفضيلة ومكافحة الرذيلة في كل زمان ومكان، ولم تهن همتهم يوماً في الدعوة إلى التمسك بمكارم الأخلاق الحميدة.

- ١١

كان الرقص قديم الوجود في المدينة، يختلط الرجال بالنسوة متماسكي الأيدي ويرقصون على ايقاع الطبل أو الأيدي المصفقة. كان الرقص متعة المشاركة فبات متعة المراقبة. ولم يكن من المؤكد أن الرقص الشرقي الذي تؤديه

راقصة منفردة، والذي اشتهرت به النوادي الليلية وكذلك المرابع السياحية في المدينة منذ عقود عديدة من السنين، والذي ستتأسس من أجله معاهد خاصة لتدريب الفتيات على فنونه وأسراره كوسيلة مغرية لكسب أفضل ودخل مرتفع بعد أن ضاقت الحال بالناس، لم يكن من المؤكد أن هذا النوع من الرقص هو من الفنون المستوردة كما حصل للموسيقا مثلاً إذ تفنن الكثيرون في استيرادها جاهزة أو جملاً مفرقة تسللت إلى بنية الموسيقا المحلية، فقد أجمع ثلاثة باحثين معتمدين في تاريخ الفنون، أحدهم من هواة اليوميات، على أن هذا النوع المثير من الرقص شبه العاري والذي عمّد باسم الرقص الشرقي، قد أخذ قواعده الأولى من ليالي الأنس والفحش التي كانت تحييها إدارة الدار تكريماً لزيارة الحاكم العثماني الدورية لقصر أسمهان والتي ستصبح إقامة دائمة يتكيء فيها الحاكم على الأرائك الناعمة ويملّي عينيه نصف المسبلتين بالجسد الذي يتأفعى وهو يمسح البلاط متمسحاً به أو يحتضن عموداً بالساقين وهو يلف حواليه، فإذا اقتربت الراقصة من مقام الحاكم تميل عليه فيظن أنها سقطت بين ذراعيه، هلّل وكبّر، فتبتعد بدلال فيتأوه ويتذمر، ولكن متعة الرقص كانت في النساء ما بين المنح والتمنع، فتصبح الراقصة مصدر حبور ونقمة وتتحول حيويتها مع تصاعد في الإيقاع إلى نقطة تدور حولها دائرة الاهتمام والشوق وفي أحايين كثيرة العشق نفسه.

ومن يستطيع أن يناقش أن أسمهان لم تكن هي المعلم أو الينبوع الذي تلقت عنه النساء أصول ذلك الرقص، ومن ينكر أنّ تطويع الجسد لأنغام البشارف والسماعيات والقدود لم يكن

بإشراف سيدة القصر وروحه المتوثب أبداً. وسينتشر الرقص الشرقي بين نسوة المدينة يتعلمنه ويمارسنه في وحدتهن أمام المرآة أو في الحفلات النسوية المقفلة حيث تخرج الراقصات أو المتفرجات عن الحشمة التي يظهرن بها عادة، وكأن في احياء طقس الرقص هذا نسيان أو إهمال لما كان عليه الرقص التاريخي الذي كان سائداً من قبل، وكان الرقص يعطي للحب العذري آفاقاً قدسية، أو أنه يعبر عن نشاطات البشر في العيش كرقصة إعداد الرغيف كي يصبح شهياً في التنور أو كالرقصة التي كانت فيها المرأة تمثل بالحركات والإشارات حياكة صدرية لحبيب أو عزيز. ولقد جاءت إشارة عابرة في صفحة من اليوميات إلى أن (الطقطوقة)، وهي الأغنية الخفيفة السريعة الانتشار بين الناس بكلماتها المقبولة أحياناً بذاءتها، قد ولدت أصلاً بين أبهاء دار المتعة وخرجت بعدها متسللة على شفاه رجال يتمايلون من النشوة، فانتشرت الطقطوقة في طول البلاد وعرضها كأنها نشيد وطني في أجزاء وأقسام تختلف الكلمات والألحان فيها بين واحد وآخر، ولكنها بمجملها تشكل وحدة تعبر عن لامبالاة واضحة بالمفاهيم والقيم الاجتماعية. وقد تطورت تلك الأغاني الخفيفة لتكون داعرة بشكل كامل في الملاهي الشعبية الرخيصة، وحوّر فتيان وطلاب معاني بعضها لتكون نقداً لاذعاً لمختار حارة متعسف أو رئيس مخفر ركبه الغرور والطمع ففرض الأتاوات على الناس، واستغل أعضاء أحزاب سرية أو ممنوعة كلمات تلك الأغاني يروجون بها لأفكارهم ومبادئهم القائمة على معارضتهم للسلطة التي تحكم، فكانت أحياناً عقوبة ترديد مثل هذه الأغاني الخطيرة الضرب أو الحبس، أو كلاهما.

وستتلازم الطقطوقات تلك مع الرقص الشرقي في بيوت كثيرة انتقلت إليها عادة الاحتفالات التي لا تعرف الحشمة. وفي البداية كانت الاحتفالات قصراً على النسوة يفرّجن فيها عن وحدتهن وانعزالهن، ثم باتت للترفيه عن مسؤولين وتجار كبار يعدّ لها سماسرة أذكياء يصرّفون عن طريقها مصالحهم وشؤون وكلائهم في دور أعدت خصيصاً لمثل هذه الأغراض، وتقدم فيها عاهرات يشاع أنهن من المحصنات كي تصبح المتعة عند المسؤول أو رجل الأعمال مضاعفة. وكانت الطقطوقة عادة مفتاحاً لحفل جنسي وكأنها البيان يتلى منغماً يدعو إلى الفراش. ولا يعلم أحد كيف ترسخت عادة استبدال النساء بالغلمان، وهي على الرغم من ضيق انتشارها والتأكد من اكتسابها عن حاشية الحاكم العثماني سابقاً، فقد ظلت مستنكرة. وفي الأحوال كلها فقد طعمت كلمات بعض الطقطوقات باسم أسمهان الذي ورد ذكره مباشرة أو بأوصاف مختلفة كالمتبغددة أو الدلوعة أو القمر بعيد المنال.

وكانت أول وثيقة علنية عن تلك الفنون السمعية والجسدية، قد قدر لها أن تنتشر على يد رجل غريب استوطن المدينة، فقيل إنه عربي وفد من الدار البيضاء، وقيل إنه قبرصي أتقن لغة البلد، وعمل مدرباً للرقص، وصار صاحب مدرسة لتعليم الرقص الشرقي وغيره، وقد سجل ملاحظاته، بل لنقل نظريته، في كتاب بالصور والوثائق ليؤكد على أن الجسد أسبق من العقل في التكيف مع البيئة والأوضاع السائدة أو الطارئة، وذكر الرجل أنه إذا كانت الفلسفة هي رياضة العقل العقيمة فإن الرقص هو رياضة الجسد السليمة، وحاول إثبات قدم الرقص في التاريخ الإنساني فربط ما بين غريزة الجنس التي

تحددت لحفظ النوع وما بين الرقص الذي يعطي للجنس جمالاً. لذا فإن العناية بالجسد تبقى الهدف الأمثل، وأي تفضيل للعقل على الجسد البشري إنما هو ضرب من الحمق يرتكبه من يجهل واقع الحال وما يجب أن يكون عليه المآل. هكذا كان رأي مدرب الرقص الغريب، والذي سيصبح الصديق القريب من رجال كثيرين لهم في المدينةمكانة وسطوة. وستصبح مدرسته التي اختار مقراً لها في حي قديم اشتهر بدوره الواسعة ذات الحوش والأيوانات الظليلة، مكاناً نافس في فترات محددة دار المتعة نفسها. كانت الصبايا المتهافتات على طلب العلم على يديه يجتذبن أصدقاء المدرب الذين يسمح لهم بمراقبة التدريبات الشاقة والتهام أجسادهن اللينة بعيون جائعة لا تعرف الشبع ولا الارتواء.

وبالرغم من ذلك التطور الذي حدث بسبب تلك المدرسة التي ساهمت في تطوير الرقص في التلفزيون المحدث والملاهي وعلب الليل السياحية، فإن الرقص في خلوات النساء كما عرفنا، كانت تدفع إليه غريزة الاعجاب التاريخي الخفي بأسمهان، وهي التي وضعت البذرة الحية له، ولكنه لم يعكس، ما يحدث خارج تلك الدور من انقسام الرجال إلى فرق وشيع وهم ينتصرون لراقصة دون غيرها. ولم يكن الرقص هو السبب، بل كما سنعلم بعد ذلك كيف تكونت تلك الفرق والشيع بالنسبة لأمور أخرى كثيرة، كان من أهمها انحياز الناس لحاكم قادم أو سابق، كذلك كان هناك أنصار لراقصة معروفة تحمسوا لها فعددوا محاسنها وتباهوا بسرعة اهتزاز ردفيها وروجوا شائعات مضادة لراقصة منافسة فحطوا من قدرها فأشاعوا

الأقاويل عن تهدل بطنها وثدييها أو سماجة التوائها على نفسها.

ومثل تلك الانقسامات الاجتماعية لاقت تشجيعاً من وسائل الاعلام المختلفة وأهمها الجرائد والمجلات، فوقفت هي كذلك بشكل مباشر أو خفي مع ظاهرة الخلاف الشائعة تلك، فكانت مثلاً تذكي بطرقها نار الخلافات الرياضية بين مشجعي الفرق العديدة، وهي التي تشتد عادة في أيام محسوبة من السنة وتتعاظم في المباريات الدورية للحصول على كأس الحاكم أو درع رجل أعمال كبير. وكثيراً ما تنتهي المواسم الرياضية بمآس أو فواجع، إذ ينشب العراك الضاري بين أنصار الفرق المتنافسة، ولا يتورع أهل فريق من مداهمة أحياء فريق آخر فتختلط اللكمات بضرب الهراوات والعصي بطعن الخناجر والسكاكين. ويبدو أن لمثل تلك المناسبات الدامية ستقوى الفرق الخاصة بالحفاظ على الأمن، وتختص واحدة منها بالشغب الرياضي وأخرى بالنشاط العمالي غير المرغوب فيه، وغيرها بلصوص الأسواق الذين يزداد نشاطهم عادة مع استفحال الغلاء وتناقص الدخول. ويتطرق كاتب يوميات في واحدة من الفصول الأكثر سرية، إلى خبرة تلك الفرق الخاصة بمكافحة الشغب، فيتحدث عن تنامي قوتها الهائلة بالرغم من أنها لم تكن مرئية أو مميزة بلباس رسمي يدل عليها، فهي تظهر في كل زمان وأي مكان وبأشكال تتغير وتتبدل حسب الأحوال، فتضع حداً لأية فوضى تقع بسبب الرياضة أو الاحتجاج، وتقوم باعتقال من يشتبه في أمره لأسباب قد تظل مجهولة لفترة طويلة. وكما سنرى بعد قليل كيف أن عبد الكريم الذي أقام في «نزل النجمة الدولي» قادماً من مدينة أخرى، كان من المشتبه

في أنه قد اختفى في واحد من أقبية تلك الفرق الخاصة، وأن البحث عنه سيطول.

ـ ١٢ ـ

وإذا كانت الرياضة أو السياسة مثلًا تخرج أنيابها واضحة في خلافاتها، فإن الصراع في الأدب الذي منه الشعر كان يبرز بشكل أقوى، فالعراك كان يأخذ حالة مخالفة. كان الصراع الظاهر بين الشعراء هو من أجل الشهرة والشعبية، وكان يأخذ طابع الهجاء بين القلّة منهم ممن تمّ الاعتراف بهم وسط آلاف الشعراء الذين ما زالوا يبحثون عن الفرصة المناسبة، بينما القتال الحقيقي كان في الحصول على رضى سلطة المدينة حيث يأخذ الشعر آنذاك طابع المديح والفخر بالممدوح واكتشاف أوصافه وصفاته البشرية، ولو تمّ ذلك عن طريق وسيط هو الأنثى.

وقد تكون قصائد كثيرة ظلت حبيسة الورق أو الصدور، إلّا أن الشعراء الذين نالوا الشهرة والرضى باتت أمسياتهم الجماهيرية تنافس أحياناً الحفلات الرياضية أو تطغى في حينها على شهرة راقصة أو مغن ظهر فجأة في المشهد الفني مكتشفاً أغنية فولكلورية أو محوّراً في كلمات طقطوقة يمتدح بها من له سلطان. ومثل هذا النجاح الشعري لم يكتب إلا لإثنين منهم أو ثلاثة ممن اعتمدتهم الأجهزة المختلفة والثقافية من بينها.

وآخر أخبار الشعراء كانت في تسابقهم بالتغني بالمستمسك، وهو ما لقّب به الرجل الذي جلس على الكرسي

المخملي متصدراً مجلس المدينة الكبرى التي تحولت باقي البلاد إلى أقاليم تسير على هديها. وكان للشعراء أولئك الدور في دعم الأنصار الذين ترسخ عندهم الإيمان بأن المستمسك بأهداب الفضيلة هو الرمز التاريخي للحفاظ على المدينة والبلاد، منارة لما سبق من مجد ولما سيأتي من تقدم. إلا أن المستمسك كما سنعلم حافظ على هدوئه الحيادي الذي اشتهر به، فلم يفضل شاعراً على آخر، فأدى مثل ذلك الموقف إلى إذكاء حرارة الشعر فاستنبطت كلمات جديدة أغنت القواميس وتخلقت صور ألهبت الخيال العام، وتمّ احياء مصطلحات ميتة فبدأ طلاب المدارس باستخدامها في وظائفهم دون معرفة بمعانيها أو بمدلولاتها، ومع هذا ظلّ المستمسك على حياده بينما عمد الخصوم إلى الصمت أو ربما إلى التدوين الخفي للمذكرات أو اليوميات التي جاء في واحدة منها أن اللقب الذي اتخذه صاحب الكرسي المخملي لنفسه إنما جاء من حرص المستمسك على كرسي الحكم وتمسكه به بأسنانه بما فيها الأنياب، وقال مؤرخ آخر إن أسمهان التي لعبت دوراً ما زال مجهول التفاصيل في دفع المستمسك إلى متابعة طموحه، كانت تبارك تسميته هكذا، وإن كانت في البداية تطمح إلى أن يحمل لقب (المستمهن) تخليداً لأسمهان، وإن كانت مثل هذه الرواية غير مؤكدة، وتشير إلى عيوب في اليوميات والكتابات السرية التي تبالغ أحياناً وتضخم في الأمور فلا تصبح آنذاك مقبولة ولا منطقية. ولا ريب أن الأيام التي شهدت صراع المستمسك مع الحاكم الذي سبقه قد أشارت إليها معظم تلك اليوميات، وهي التي أظهرت بشيء من الوضوح جانباً من أسرار الفرق والشيع السياسية والاجتماعية، كما وأنها أشارت

إلى دور اسمهان الواضح في تغليب فريق على آخر لأسباب لا يعلمها إلّا الله، وذلك على ذمة الرواة والمؤرخين الشعبيين وهواة تناقل الأخبار والسوالف ومنشدي الفرق المسرحية التي انتقلت من تمثيل الحكايات الشعبية القديمة إلى تصوير واقع المدينة، برموز وإشارات ذكية أكدت على أهمية التشخيص في النقد الاجتماعي اللاذع وبتقديم الولاء سواء بسواء.

في البداية كان المسرح غنائياً ينقل للمشاهدين صوراً من الماضي، هي صور غير مترابطة ولكنها تحيي النشوة في الذاكرة الجمعية، وقد أحبها الناس ولكنهم أحسوا بعدم جدواها مع تكرار عرضها، فقام رجل ذكي بإضافة مشاهد من خيال الظل القديم على تلك العروض، ثم ما لبث أن طورها ليضيف على شخصيتي (كراكوز) و (عيواظ) تنافساً على رضى شخصية امرأة تأخذ في كل مرة وضعاً مختلفاً عن سابقتها، فهي تارة (السمهونة) القاضية في خلافات البشر دون محكمة، وهي (المحتالة) التي تستولي لنفسها على أموال المحتكمين والمختصمين، وهي (قاضية الحاجات) تنقذ بنفوذها عند الأمراء رقاب المحكوم عليهم بإعدام أو تعفي ابن تاجر كبير من الخدمة في الجيش. والسمهونة في قصة أخرى عاهرة أعلنت توبتها عن بيع جسدها وأصبحت سمسارة تصطاد الفتيات والفقيرات والقرويات والغريبات لتقديمهن إلى أصحاب الجاه والمال، وهي شيخة طريقة تكتب الأحجبة لمن اصابه يأس في مرض أو حب. كانت السمهونة شخصية تتطور في مسرح المدينة الذي يغلق أحياناً بأمر من المسؤولين بحجة الفحش، أو يقدم عروضه في السر بين البيوت وفي خانات

مهجورة، أو أنه يلقى رعاية مؤقتة من مسؤول للتشهير بمسؤول سابق. وكان المسرح أحياناً يلقى رعاية مجلس المدينة للتأكيد على حرية الرأي أحياناً ولامتصاص النقمة التي تتراكم مع مرور الأيام والسنين، وكان أحياناً يزود بالتوجيهات اللازمة لتقديم عروضه إلى الوفود الزائرة والسياح القادمين، وفي المناسبات الهامة أيضاً.

ولمثل المسرح العلني أو السري، ولنشاطات فنية أخرى، باتت المدينة بؤرة تستقطب نشاط الطامحين القادمين من الأرياف أو من المدن الصغرى التابعة، إلا أن هذا السبب الجاذب لم يكن الدافع الأساسي للجوء عبد الكريم إلى المدينة منذ سنين، كذلك لم يكن السبب في دفع القادم الجديد نحوها، والذي عرف رجال المكافحة والمراقبة أن اسمه (جواد)، وهو بالرغم من شغفه بالفنون الشعبية في بلاد العالم التي تنقل فيها وعرف عنها الكثير، فإنه لم يبحث عنها، بل توجه إلى قلب المدينة العتيقة، وكأنه يعرف سلفاً أنه سيجد النزل الذي يريد، وأن الهدف من زيارة المدينة التي سمع عنها كثيراً دون أن تكون له فرصة في زيارتها، كان واضحاً ولا يتهدد يقينه سوى الخوف من أن يكون النزل القديم قد زال من الوجود مع حركة العمران الكبرى التي تعبر المنطقة كالأعصار فتهدد كل ما هو قديم وقائم.

الفصل الثاني

- ١ -

وصل القطار قبيل الغروب، وهو الذي دخل المدينة لأول مرة منذ حوالى قرون. ويقال إن الحاكم العثماني شخصياً قد دشن بناء المحطة الكبير ولوح مرحباً بأول صافرة تنطلق في فناء المحطة وهي تختلط بدخان كثيف. كان الحاكم آنذاك مدججاً بالأوسمة والملابس المقصّبة، وتحيط به حاشية من حرس تلمع على جنباتها السيوف وفي صدورها الأزرار المذهبة، وعيونها تراقب حركات العامة والضيوف، فلم يكن ليعرف آنذاك إن كان حرصاً على الحاكم أم على المرأة الوحيدة التي وقفت في موكب الترحيب بالقطار الأول، وهي تشع بسحر وبترفٍ من خلف نقاب حريري سميك، والتي أشيع أنها أسمهان، والله أعلم، تشارك بالترحيب بالوافد الجديد على المدينة، وتساهم بجلالها في تدشين المحطة على ايقاع أغنية الترحيب بالثعبان الحديدي التي أنشدها صبيان الحاكم الشقر بلغة لم يفهمها أحد، وإن ظلت عيون المعجبين بالذكور تلاحق بولهٍ، يفوق الاهتمام بالقطار، الخدود المقمرة بالاحمرار والأفخاذ الرجراجة من تحت السراويل الحريرية.

ومع مرور الأيام، سيظل القطار ومحطته التي اسودت حجارتها رمزاً للغربة التي تستحضر الأحباب فينتهي الشوق إليهم وتستدعي الغرباء فيزداد الخوف منهم. ومحطة القطار هي التي اخترعت حزن الفراق وقلق الوداع، فكأن مرضاً أو أنه الوباء لحق بمعظم أهل المدينة عندما كان القطار يشحن الرجال المُعَسْكَرين أو الفارين من الجندية، إلى الخطوط الأولى للمعارك الحربية في جبهات مختلفة. والمحطة نفسها هي البوابة التي كانت تطرقها نسوة دار المتعة بعد مسافات كبيرة يقطعنها من بلادهن، وكانت البوابة عادة تفتح ذراعيها بالترحيب لهن بالرغم من تحجبهن وفق تعاليم الدار. لذا لم يكن أحد من إدارة المحطة أو خدمها أو البائعين فيها والمسافرين، يعلم مَنْ مِنَ القادمات سيتجه إلى دار المتعة. وكما قال كاتب بعد ذلك في تعليق له أن ذلك من عيوب الحجاب الذي لا يميز المحصنات من العاهرات، ويبدو أن نظرية المتنورين في كشف الغطاء وتعريض المرأة للشمس كانت تستمدّ قوتها من ملاحظة ذلك الكاتب.

في ذلك اليوم، الذي له علاقة بالحكاية التي نرويها، حضر القطار في موعده وعلى غير عادة منه، بعد أن اشتهر بعدم الدقة بالنسبة لجميع المواصلات القادمة أو المنطلقة من المدينة، فمثلاً كانت الطائرة لا تقلع من المطار أحياناً بانتظار زوجة مسؤول كبير تأخرت عن الموعد. ومثل هذه الأحداث التافهة لم تلتفت إليها يوميات المؤرخين الشعبيين المتناقصة يوماً فيوماً. في ذلك اليوم كان الصفير خشناً وكأن القطار قد أصيب بالشيخوخة، فامتلأت المحطة بالدخان والضجيج والشحاذين الذين يضبطون عاهاتهم المصطنعة على الصفير القادم،

وانتشرت الفوضى من بداية الرصيف الطويل وحتى نهاية قاعة الاستقبال التي اكتظت بالريفيين الذين يتزايد عدد المهاجرين منهم إلى خارج البلاد. وكان ثمة حمال قزم قد همّ بقامته المربعة على ضالته التي وجدها في المسافر الغريب والذي لم يكن يحمل سوى محفظة جلدية خفيفة، فاختطفها منه وجعل يمشي أمام (جواد)، الذي لن يعترض على الخدمة التي لا يحتاجها، وهو يتعثر بحمولته سعيداً، بينما يغطي عجزه بترداد كلمة أهلاً طوال المسافة المؤدية إلى خارج المحطة.

كانت قامة جواد المهيبة قد تسببت في سقوط القزم على الأرض أكثر من مرة وهو يحاول أن يملّي عينيه الواسعتين كفجوتين من الدهشة بطلعة الغريب، وقد بدت القامة بين جموع الغادين والرائحين علامة لم يظهر مثلها في المحطة إلّا مرات نادرة، فصدق في ذلك القادم الغريب قول كاتب يوميات عن المحطة أنها تستقبل العجائب ولو جاءت مرة واحدة أو مرات قليلات في القرن الواحد. وسيستنفر مرور جواد عيون النساء اللواتي يودعن أو يستقبلن أحبتهن ومعارفهن، فما لمحته امرأة إلّا وشخصت ببصرها إليه ولاحقته بحياء أو بشجاعة في ظهره المستقيم وكأنه قدّ من عضلات وأوتار تتقذف في الجوف بجنون تحرص المتحرقة إلى الحب عادة على الاحتفاظ به سراً. وسيدفع الجنون المستتر في نظرات النسوة إلى فخر عارم في نفس الحمال القزم، والذي شعر بفضله في قيادة الغريب الجميل عبر مسالك المحطة، وكأنه هو الذي استورده من خارج البلاد لصالحه الشخصي، فلم يكن سعيداً من قبل كمثل سعادته في تلك اللحظات التاريخية من

حياته. وسيكون ذاك الفخر الذي تلبس الحمال دافعاً إلى رفض المال الذي قدمه جواد إليه وهو يفتح باب التاكسي وباليد الأخرى يستعيد محفظته، وإذ يصرّ الغريب على دفع المكافأة، يحس القزم بأن عليه إذن ديناً يعادل المبلغ الذي ملأ كفه، فلا يجد سوى نصيحة واحدة يقدمها له، فيقترب من أذن جواد ويهمس:

«يا سيدي.. عليك بدار المتعة».

٢ ـ

ها هو الآن في (المنتصرة الكبرى). وصل (جواد) المدينة التي لا يعرف شيئاً عنها، فالغربة الطويلة كانت ستاراً أخفى عنه أم البلاد ومدينة المدن. كان مقرراً له أن يصاب بالدهشة لكثرة ما حكي له عنها، ولكن الهدف من الزيارة طمس أي شيء يمكن أن يثير انتباهه. واشتعلت أنوار المدينة عندما ابتدأت رحلة جواد فيها.

وكان سائق التاكسي الذي يتجه نحو المدينة القديمة، يطيل التحديق في المرآة يراقب وجه الراكب الساهم والذي لم يسبق لمثله أن وطأ سيارته، ولكنه ظلّ مسيطراً على سرعته عبر الطرقات والجسور المعلقة، فبدا واثقاً من قيادتــه وعيناه تتنقلان برشاقة ما بين المرآة ووجه الغريب، وشفتاه تنمان عن رغبة في كلام حبيس يمانعه خجل أو خوف من صدّ. ولن نعرف شيئاً عن الانطباع الأول لجواد عن المنتصرة الكبرى، إلّا بعد زمن، فلكثرة ما تجول في مدن العالم بات حذراً في اطلاق الحكم على ما يراه، لأن ما كان يكتشفه بعد حين في مدن كبرى كأثينا وباريس كان لا يبرر شهقة التعجب الأولى.

فجأة، نطق الغريب بجملته الثانية لسائق التاكسي. وبينما كانت الأولى تحمل الطمأنينة:

«من فضلك، حارة العميان، فندق النجمة الدولي».

كانت الثانية يشوبها قلة الصبر:

«هل المكان ما زال بعيداً؟».

وهنا، سيهتبل السائق الكهل فرصته في الحديث إلى غريبه الجميل فيتساءل:

«في البداية كنت أظنك تقصد دار المتعة».

فلم يعلق جواد بكلمة، بل ظل يتابع تعاقب الأبنية والمنعطفات والأرصفة المحتشدة بالناس، وكانت أنوار المخازن التجارية الكبرى قد بدأت في التوهج فيغضّ من بصره كلما مرت السيارة المسرعة بها. كان جواد قد بدأ يحسّ بالمدينة، والسائق يكتفي بتأمل القادم نحوها عبر مرآته المتطاولة.

وكان الطريق إلى حارة العميان لا يسمح بمرور آلية، فحمل الغريب محفظته وتابع المنعطفات التي دلّه السائق إلى مخططها المعقد وهو ما يزال مفتوناً به. وامتدت الأرض المرصوفة بحجارة سود مستديرة كأقراص شبه منتظمة، فتابعها جواد وجعل يربط ما بين تماسكها والدور القديمة التي أطلت على الأزقة الضيقة بالمشربيات الخشبية المسمرّة اللون بالرغم من احتمال ضعيف لسقوط أشعة الشمس عليها، وكانت الأنوار تتسرب من فتحات الخشب ضعيفة وكأنما الكهرباء فيها قد أصبحت عتيقة أيضاً. تنهد جواد لسبب لا يدركه، وملأ رئتيه بهواء ثقيل استعذبه لحظتها، وكأن به حنيناً إلى قدم السكينة

وإلى تلك الطمأنينة المعتقة التي تعيش في زوايا تلك الأزقة وكأنها خيوط عنكبوت تحمي السكان من فضول تمدن البيتون والعادات العصرية المستوردة، وبالرغم من استغراق جواد في تفحص العراقة المهملة البائسة، فقد أشرق وجهه وهو يرفع رأسه ليجد ضالته في اللوحة الخشبية الصغيرة المائلة تحمل اسم الفندق الذي يبحث عنه، وبات «نزل النجمة الدولي» حقيقة قائمة تلغي كل الشكوك التي حملها في نفسه وهو يتجه إلى المنتصرة الكبرى قادماً من بلدته بالأمل.

كانت واجهة النزل تتوسط مجموعة من المباني الهرمة التي لا تنمّ عن حياة فيها، قد تشققت فكان الشرخ الطولي كلسان سحلية يتدلى من الافريز الذي يتوج الطابق الثالث نازلاً بخط مائل نحو رأس الباب الخارجي، الذي حوّله نصف الدائرة المزخرف إلى بوابة خان صغيرة. وقف جواد معايناً المكان، وقد اضطرب قلبه كأنه سيقابل لتوه من جاء يبحث عنه بعد غياب طويل، ولكنه سيتمالك نفسه وسيدفع بذراعه المصراع الخشبي، فيعطي الصرير أحساساً بأن مفاجأة ما تنتظر خلف الباب. يدخل جواد.

في فسحة شبه مظلمة وقف جواد. كانت رقعة مربعة تحيط بها مقاعد وثيرة انمحى بريق مخملها الأخضر، فبات المكان يوحي بأنه أشبه بضريح عتيق أو مقام لولي ما عاد أحد يتردد إليه، أو أنه صالة انتظار لطبيب روحي انفض عنه مرضاه منذ زمن. كان جواد منتصب القامة تنتقل عيناه من قنديل نحاسي لا يضيء، إلى لوحة بالخط الثلث كتب فيها «الله نور السموات والأرض»، نحو بركة من المرمر في ركن الفسحة وقد جفّ الماء

على سطحها مخلفاً طبقة كالحة. وتأمل ركن الاستعلامات الذي ينيره مصباح كهربائي أضعف الغبار المتجمع عليه شدة الضوء فيه، فخيم على المكان الذي تخشّن بلاطه هواء بارد، امتصّ شيئاً من حرارة الأمل في نفس جواد.

بعد لحظات، تنحنح الغريب في محاولة لاعلام أحد قد يكون غافلاً في ركن ما، فنجحت خطته، وخرج من خلف ستار من قماش مهترىء وجه عجوز يحمل عينين خاملتين، أطلتا عليه من خلف عدستين متسختين. تمتم جواد ممسياً بالخير فتنحنح العجوز وكأنه يشعر الزبون بأنه سمع التحية، ثم بعد لحظة وهو يحتل مكانه على كرسي خلف حاجز الاستعلامات، ردد: «من حسن الحظ أن الغرفة ذات الحمام لا يشغلها أحد»، ثم بآلية:«الهوية أو الباسبورت يا سيدي»، وأمسك بالريشة ليغطها في زجاجة حبر بدت كأنها فارغة.

وسيحدث شيء من الحيوية يحرك سكون المكان ويبدد قليلاً من وحشة الظلمة. كان وجه الرجل العجوز قد تحرك إلى أعلى، وكأنها محاولة منه لإعارة الاهتمام بنزيل يقصد النزل للمرة الأولى، فإذا الوجه يتلون، بل يتفتح عيوناً كثيرة تحدق غير مصدقة. ودبت الحياة في الجسد الهرم ليتقدم منه الجذع إلى الامام وقد استندت الكفان المتجعدتان إلى سطح الافريز السميك الذي ما زال يحتفظ بلون الجوز لخشب ركن الاستقبال. ويهتف العجوز صاحب النزل، بصوت يبدو كأنه استيقظ من سبات سنوات من الصمت:

«غير معقول.. فها قد عدت أخيراً».

وها جواد يبتسم، فكأنما عثر دون عذاب على بداية الطريق

إلى هدفه، لكن العجوز سرعان ما يتمالك نفسه، متهالكاً على المقعد المرتفع، مردداً بهمس مسموع:

«يا إلهي.. إنني أتوهم.. إنني أتوهم».

يقول جواد واثقاً:

«إذن فأنا في المكان المطلوب».

كان عنكبوت حقيقي يطلّ من زاوية السقف، فقفز مختبئاً في أعلى ركن من شباكه وكأن تحريك السكون المفاجيء أرعبه وهو الذي تعود الصمت طويلاً، وكأن نبرة صوت جواد هي التي أخرجت العجوز من مخبئه، فمشى بخطوات وجلة من خلف السور، يدفعه الشك إلى مسافة أقرب إلى اليقين، وبات في الفسحة على مقربة من الغريب يطيل التحديق فيه.

«يا سبحان الله!».

هكذا هتف (الجوهري) صاحب النزل وتراجع خطوة ليلفّ حول جواد الذي لبث ساكناً مستسلماً لتفحص العجوز له وهو يتمتم:

«نبرة الصوت، بل القامة نفسها».

ويكاد يلتصق به فينظر كعالم ركبه الشعور بالشك:

«لا يمكن لرجلين أن يبلغا جمالاً متشابهاً كهذا!».

وجواد ما زال كالمركز الثابت يدور الجوهري من حوله ويردد:

«كأني أسمع أنفاسه.. كأن الزمن عاد».

ثم يهتف العجوز حزيناً:

«اغفر لي أيها السيد، فأنت تشبهه».

يطرق برأسه ويتمتم وكأنه في مأتم:

«بل كأنك هو.. أو أنه هو أنت».

ولن تصبح الحكاية واضحة إلاّ بالعودة بعيداً إلى الماضي. أن تهرول متراجعاً إلى الوراء كي تدرك لحظات ولادة السعادة والألم. عشرون سنة بل أكثر بقليل مرت على ولادة المعرفة الأولى. كان اللقاء في الفسحة نفسها. الجوهري ينظر بدهشة إلى الوافد الجديد، والفندق كان عامراً بالنـزلاء والأنوار فتوجهت الأنظار نحو القادم. كأنه جواد، لكن تجاعيد الجبين كانت تحمل الحكمة آنذاك، وكان اسمه عبد الكريم.

وقد قدر للصداقة أن تشتعل منذ اللحظات الأولى، وستستمر في تماسك بنيانها إلى يوم الاختفاء، وهكذا تعود الجوهري الانتظار. وعندما هتف العجوز بملاحظته عن التشابه، قال جواد مطمئناً:

«من شابه أباه فما ظلم».

آنذاك عرف الجوهري أن الانتظار الطويل قد أفقده القدرة على التأكد من النظرة الأولى.

كتب الجوهري في أوراقه عقب استقرار عبد الكريم في غرفته:

«ولم تقع لي عين من قبل على رجل مثله، فالمدينة على عهدي بها لم تألف رجولة ذات جمال كمثل ما كان عنده، وكأن الله خصّه من دون الناس جميعاً بالجمال وكذلك بالحكمة والنظرة الفاحصة الذكية. فهو بالرغم من أنه يزور مدينتنا للمرة الأولى فإنه لاحظ أنها خائفة (فتصور). وليحمه الله لأن أحداً لم يستطع أن يطلق هذا الحكم علينا هكذا، وكأن الله فتح على قلبه».

إذن، فقد مرت كل تلك السنين على اختفاء الأب، ليظهر الإبن وكأن التاريخ يوقف حركته. في البداية لم يصدق الجوهري أن القدرة يمكن لها أن تتجلى في الجمال مرتين متشابهتين، وبالرغم من أن لكنة جواد كانت تختلف عن فصاحة عبد الكريم، إلّا أن اعجاب الجوهري به ابتدأ مبكراً أيضاً.

«ليحم الله جواد أيضاً».

هكذا توجه الجوهري بالدعاء وهو يقود زبونه الوحيد إلى الغرفة التي لم تمس.

شهر قمري واحد يا ولدي، عاش معنا هنا في هذا المكان، ثم اختفى. جاء بعد ولادة الهلال ومضى بعيداً قبل المحاق. كنت أنتظره دوماً فأتيت أنت. خمسون سنة وأنا في هذا المكان الذي شاخ مثلي، فلم يكن لي فيه صديق مثله. منذ اليوم الأول، بل منذ الساعات الأولى علمت أنه أقرب إلى القلب من كل البشر، لم أسأل نفسي عن السبب، فقد اقتنعت تماماً أنه كالعلامة تظهر لك من الغيب، وما عليك إلّا أن تصدقها وتؤمن بها.

تساءل الجوهري:

«هل ستحدثني عنه؟».

وهكذا ابتدأت حرارة العلاقة بين الاثنين، فجواد يطلب معونة الجوهري، والعجوز يظن أنه عثر على جواب لانتظاره الطويل.

على الدرج، توقف الجوهري ملتقطاً أنفاسه وهو يهتف متسائلاً:

«أواثق أنك لست عبد الكريم؟».

ثم لنفسه، وبصوت شبه مسموع، تختلط الكلمات بسعاله:
«لقد حوّم الخرف عليك يا جوهري».
وإلى جواد معتذراً:
«لا تصدق ما أقول يا ولدي».

كتب الجوهري في أوراقه منذ عشرين سنة:
«وتساءل عنه رجل من المكافحة فقلت لهم إنه خطاط وحفار خشب جاء بحثاً عن عمل يعيش منه بعد أن بارت تجارته في بلده. واستفسر عن أحواله شاب أشك في أنه يكتب التقارير لجهة من جهات الأمن فأفهمته أنني استأجرته ليزين لي النزل بعد أن لحق به القدم وتهدد وجوده بالخطر لظهور الفنادق ذات النجوم. وما أظن أحداً من النزلاء الذين قدموا إليّ قد نال اهتمام أولئك الرجال وفضولهم قدر ما ناله عبد الكريم».

وفي الغرفة البيضاء التي اصفرّ لون جدرانها وسقفها، وكبا نحاس سريرها، وقف جواد يتأمل المكان بإجلال، وكأنه يقدم الاحترام لما فيه من أثر أو يستنطقه أخبار أبيه الغائب. وقال الجوهري وهو ينفض الغبار عن الغطاء:
«لم يشغل الغرفة أحد بعد ذهابه. هي بانتظاره دوماً».

كأسه كانت ما تزال في مكانها بالقرب من الإبريق الزجاجي، وكان يفضل أبداً شرب الماء العادي كارهاً شربه بارداً لأنه لا يريد أن يطفىء ظمأه بشيء بارد بينما أشياء كثيرة تحترق بداخله. هكذا كان يقول للجوهري الذي كتب في أوراقه:
«ولم نكن لنعلم أن أحداً لم يشرب من غرائب مدينتنا وأحزانها، قادر على أن يتحدث كما يفعل الجميل الغريب. وحتى شيخنا الحديدي الذي، أثابه الله ورحمه، لم يكن بفصاحة

حبيبنا عبد الكريم وبرجاحة عقله وبفهمه لما جرى وسيجري من أمور. لقد علمنا الشيخ الحديدي قراءة القرآن الكريم وكتابة الخط وقواعد النحو والاملاء والحساب، ولكن عبد الكريم، حفظه الله من بطش القساة وقسوة المتلصصين، يعلمني كيف لا أرى الأمور بظواهرها. وكما يبدو فإنني خائف من اكتشاف أن ما أسجله في هذا الكراس منذ شبابي الأول كان قائماً على وهم أو تخيل، والله أعلم».

أحس جواد أنه في منزله حقاً، فها هو يتنفس الهواء الذي كان والده يعيش فيه. وكان جواد الذي عاش في عشرات من غرف الفنادق وغيرها، قد أحسّ للمرة الأولى أنه لا يحس بالغربة. وكانت النافذة الطويلة تطلّ على الحديقة الخلفية للنزل، تمتلىء بالأعشاب الشيطانية والعناكب التي تغطي شجرتي النارنج والدفلى، فكانت له عوناً في الأيام القادمة على تمثل السنوات المنصرمة. أحضر العجوز ابريق الشاي، وأشار إلى الكأسين الرقيقتين وهما ما تزالان تحتفظان ببريق الحلقة الذهبية عند الحافة، وقال:

«لم يشرب بها أحد بعده».

كانت الحياة قد دبت من جديد في الغرفة وفي جسد العجوز.

وصلت الرسالة منذ يومين.. وكانت قد احتاجت لأسباب ما نزال مجهولة، في سفرها من المنتصرة الكبرى إلى بلدة عبد الكريم إلى حوالى العشرين سنة. حمل جواد الرسالة في جيبه، وبالرغم من بطلان الطابع البريدي الذي يحمل صورة الحاكم

القديم، فقد وصلت منذ أيام قليلة، فاشتعل الرجاء في قلب الأم المقعدة لتهتف في وجه ابنها جواد:

«ابحث عنه وعد به إليّ».

كانت الرسالة هي الإشارة التي انتظرتها الزوجة في أطول أيام عمرها. لم يمر يوم عليها دون وقوف بالنافذة المطلة على ساحة المسافرين أو الانطلاق كالسهم نحو الباب إذا ما طرق. وعندما وصلت الرسالة كان الانتظار المضني قد أقعدها.

وصل جواد أخيراً إلى بيته من غربة طويلة هرب إليها بعد يأس ومعاناة، فقد طالت غيبة رب الدار، واستمر السؤال عنه والاستجواب. كان جواد فتى صغيراً تأمل البحر فوجد فيه الخلاص. ركب الباخرة وانطلق إلى هدف غير محدد. واستهوته الحياة في بلدان بحرية أو ضاربة في عمق المجهول من قرى ومدن وأي مكان تقود إليه القطارات أو الشاحنات. تعلم وتفتحت آفاق رؤيته ولامست غرائزه أجساد نساء كثيرات واحتك عقله بالتجارب والمعارف. تعلم الصمت الممتلىء بلغات عديدة أتقنها. أخذته أمه بأحضانها باكية وقالت له: أريد عبد الكريم. وكان قد عرف معنى الشوق إلى حبيب غائب فأقسم للمرأة التي حافظت على الحب أن يعيد إليها الرجل الذي لم تيأس لحظة من عودته.

يقال إن عبد الكريم خرج في ليلة ليس فيها ضوء قمر أو ربما نجم مضيء. هرب من البلدة متدثراً بظلام نسجه الحرص والاحساس بالخطر. كان يتدلى بجسده الرشيق من النافذة العالية في اللحظات التي كان الباب فيها يكسر ويتدفق منه رجال يبحثون عن المتهم عبد الكريم. وستكون للعائلة قصة

يتسلون بها بمغامرة عبد الكريم وكأنها من حكايات العيّاق والشطار. كان جواد آنذاك طفلاً أدهشته بطولة أبيه، وكتم في صدره فخراً بأن أباه الهادىء الذي تسللت خصلة صغيرة من الشيب إلى مفرق رأسه قد خدع رجال الأمن أو كما كانوا يسمون بالشرطة السرية، وهي التي ستظل تبحث عنه بكامل عدتها ورجالاتها سنوات كثيرة دون جدوى. ولم يسبق لأحد من سكان (المنتصرة الصغرى) وهو الاسم الذي انتهت إليه البلدة تيمناً بالمنتصرة الكبرى وتقرباً بالتشبه بها الذي لن يحدث أبداً، لم يسبق لأحد منهم أن نجا من ملاحقة أو طلب. ظلّ اسم عبد الكريم دليلاً على التحدي وكسر أنف غزاة البيوت المفاجئين، ونظمت أشعار تمجده. وعندما اختفت آثار عبد الكريم وطمست أخباره، اشتد القلق، وتحول إلى انتظار يومي اعتادته الأسرة الصغيرة التي ستطرأ عليها تحولات كثيرة، فتتزوج البنتان بعد أن يسافر الابن في الجهات الأربع ضارباً بعصاه في كل مكان من هذه الدنيا تقوده إليه قدماه أو المصادفة وتصبح الزوجة قعيدة بلا حراك إلا من نبض الأمل الذي لم يتوقف لحظة عن الارتعاش.

وهكذا كان البحث عن الغائب سبباً في دخول الباحث إلى المدينة التي كانت هدفاً للمتعة والتجارة والدهشة من سكان القرى والمدن الأخرى. وبالرغم من أن جواداً تعرف إلى مدن كبيرة وكثيرة إلّا أنه أحسّ في الغرفة الصغيرة مع العجوز، أنه مقبل على معرفة شيء لم يشاهده من قبل، وقد يكون ما دار في ذهنه من مخاوف قد توجّه سؤال سري: «هل ما زال عبد الكريم في هذه المدينة حقاً؟».

ومثل هذا التساؤل الذي جاء جواد من أجل جواب قاطع عليه، لن يكون له ذكر في الليلة الأولى التي شهدت تجدد الصداقة بين الجوهري وعبد الكريم في صورته الجديدة الشابة.

وستظل ذكريات تلك السهرة لا تنسى. كشف العجوز عن كنوزه التي يحافظ عليها من العيون ذات الفضول الذي يصبح قاتلاً أحياناً في هذه المدينة، كان في الخزانة التي شيدت من ألواح متراصة من خشب السنديان، كان ثمة مخبأ أخرج الجوهري منه لفتين من قماش حريري سميك. كانت الثانية خضراء مهترئة، أمسك بها جواد متأملاً يستمع إلى همس العجوز الذي بدا خائفاً من أن يكتشف النور الضعيف في الغرفة سره:

«هذا كتابي، اقرأه».

ثم مكملاً بحسرة:

«كنت أتمنى لو أنّ عبد الكريم قرأ الأوراق الأخيرة التي كتبتها في غيابه ودونت ما حدث في السنوات الأخيرة».

وبدت اليوميات الخضراء، نسبة للقماش، أثراً قديماً إلى جانب اللفة الأخرى التي قال عنها الجوهري باعجاب حزين:

«أوراق عبد الكريم التي لم يكملها».

قلبها جواد بتأن طويل على قلتها، وكان الخط يثير الدهشة وكأنه ينظر إلى رُقمٍ فصيحة بالغة الجمال.

- ٤ -

«دخلت المنتصرة الكبرى متخفياً بعكازتين وأربطة أخفت وجهي الذي يقولون إنه لا ينسى لمن شاهده مرة واحدة، وقد

لفت ساقي اليمنى باللباد بعد أن عالجتها بالصبر وأنا أقفز من النافذة هرباً من الجلاوزة. هذه المدينة كريمة حقاً لأن فيها شخصاً اسمه (الجوهري) حفظه الله لأنه حفظ سري. لقد غامرت في الدخول عليه خارجاً من تنكري. لقد اخترت نزله من دون الأمكنة ولا أعلم السر في ذلك».

عاش عبد الكريم خطاطاً شهيراً ومزخرفاً بارعاً، وكان في جانب آخر من حياته دساساً ومروجاً للأكاذيب كما اتهمه نقيب الأشراف في المنتصرة الصغرى وروج عنه في كل مكان وبين الناس في بيوتهم وأسواقهم ومكاتب المسؤولين في الحكومة والحرف والمهن المسيطرة. ويقال إن اضبارته ضمت ملاحظات تشير إلى احتمال تعاونه مع أعداء الوطن وذلك استنتاجاً لما قام به من أفعال في التشهير بالشرفاء واستخدام موهبته في تثبيت آرائه الخبيثة في أبناء بلدته.

أشهر من كتب (الثُلث) و (الديواني) منذ أيام الخلافة العثمانية وحتى أيامنا هذه. هذا ما كتبه ناقد مؤرخ ترك البلاد ليستقر في معهد ألماني تخصص في الجماليات العربية. وهو، كما سجل الناقد أيضاً، أبرع من أمسك بالأزميل يحفر به على الرخام الصلد، إلّا أن عبد الكريم رفض بالرغم من المغريات المادية الكبيرة أن يزخرف شاهدات القبور، لأنه كما كتب في ملاحظاته لا يؤمن بأي جهد يساهم في كتابة الخلود ولو كان مزيفاً لمن كانت مواهبه مقتصرة على القدرة في توريث أهله المال، لذا فإن القبر الوحيد الذي حفر على شاهدتيه الصغيرتين أجمل الكتابة دون أجر، كان لمعلم فقير نذر نفسه لتعليم الأولاد القراءة والكتابة دون مقابل وقد حرموا من نعمة

العلم لعجز ذويهم عن التخلي عن جهودهم في المساعدة وتقديم العون لتلك العائلات المحتاجة، وقد هدم القبر بعد هرب عبد الكريم وسرقت الشاهدتان أو طحنت حجارتهما، والله أعلم.

وما زالت المنتصرة الصغرى تذكر أن الرجل له الفضل الأول والأخير في تزيين القصور الحديثة التي امتدت عبر شعاع الحزام الغربي المحيط بالبلدة، وقد استمدت حجومها وأشكالها المعمارية من قصر المتعة الذي وصلت أخباره وانطباعات الناس عنه، فبات مع الأيام القدوة التي ينشدها الملّاك الجدد في البلدة التي كانت صغيرة، فنمت وتمددت كبقعة زيت سحرية غطت على بساتين الخضار وكروم العنب والغابات العذرية التي قيل إنها كانت في قديم الزمان موطناً للوحوش والطيور الجارحة، وأكد رجل أغرم بتاريخ بلدته أنّ غيلاناً سكنت تلك الغابات فلم يجرؤ أحد على اقتحامها، وقد أصبحت الآن اقطاعات صغيرة لأصحاب تلك القصور التي استحضرت روح دار المتعة وسط مساحات خضراء ونوافير ماء وأسوار عالية زودت حديثاً بأعين الكترونية تراقب وترصد ويقال إنها تمنع العين الحسود من الضرر.

وبالرغم من أثر دار المتعة ذاك على البنيان فإن معظم أهل المنتصرة الصغرى لم يكن ليدرك من وضوح الصورة عن الدار إلّا أنها بناء يقترن اسمه بالمجهول أحياناً وبالاحترام أحايين أخرى، وقد امتزج بالحكايات عن رجال ذوي هيبة ونفوذ يترددون إلى الدار في المناسبات المرسومة والأيام المعروفة من السنة، وأن أشياء خطيرة لا بد تدور بين جدران القصر

المهيب، فمنهم من اعتبرالعلم من تلك الأشياء، ومنهم من أكد على أنها شؤون البلاد ومصالح الرعية. وستقود سذاجة عدد من السكان إلى الخلط بين الأمور، فما كان يميز دار المتعة من الجامع الشهير بطلاب العلم المجاورين فيه، والذي أشيع عنه أن أحد ولاة الفاطميين أو الوزير الأعظم هو الذي بناه للشيخ (الخلوتي) الذي عرف بتصوفه وفرط تعبده، والجامع ذاك كان دوماً مثار الخلاف بين علماء الآثار على تحديد هويته نظراً لاختلاط الأنماط المعمارية في الأروقة والبرك المربعة والمثمنة والقباب وكذلك في المئذنتين والمحرابين اللذين قيل إنّ واحداً منهما كان للأمراء والتجار، والآخر للعامة وأبناء السبيل. ولا يمكن بأي حال انكار حقيقة تفشي معلومات أسرّ بها رجال في لحظة النشوة والتفاخر ارتادوا دار المتعة في زيارة عمل أو قصد لذاته، فتحدثوا عن الليلة التي لا تنسى في جنة الله على أرضه، إلّا أن مثل تلك الحقيقة ظلت بعيدة عما وقر في أذهان الناس البسطاء من احترام مشوب بالتقديس للمنتصرة الكبرى، فما كان لمثل تلك الشائعات عن دار المتعة أن تكون مقنعة وتؤخذ بجدية أو يسمح لها بالتداول مقابل الصورة الشعبية الصارمة المتداولة. وهكذا ظلت فئة قليلة من أهل المنتصرة الصغرى وهي على الغالب من سكان قصورها الحديثة الجميلة، تحافظ على سرها في الاحتفاظ بمتعة الذكريات التي نشأت في قصر أسمهان ولم تزل قائمة، وقد تظل إلى يوم الممات.

كتب عبد الكريم على هامش وصف دخوله المدينة هارباً:

«ولا يمكن أن أقول فيها كلمة إلا أنها بعيدة كثيراً عن موطني وموقع أحبتي وأهلي فالمنتصرة الكبرى كبيرة فكأن

حدودها آفاق من مجهول سحيق فلا تكون فيها أنت، وبالرغم من ظلم بلدتي علي فأنا أحن إليها بعيداً عن ضياعي في اتساع هذه البقعة الهائلة».

وكانت المدينة حقاً بعيدة وتقع على الطرف الآخر من البلاد، ومثل هذا البعد قد يكون هو السبب في رفض عبد الكريم لعروض كثيرة كانت قد جاءته للعمل في المنتصرة الكبرى بأجور مغرية، والتي كان يحلو له في خطوطه أن يكتبها على النحو التالي (المنتكبرة)، ناحتاً اختراعه هذا من المقطعين اللذين يشكلان اسم المدينة. وتشاء المصادفة أن تكون المنتكبرة هي الملجأ الذي سعى إليه متخفياً عن أنظار وأيدي الباحثين عنه بشراسة، وكأنه يلتمس زحمتها الهائلة كي يضيع فيها. لقد شغف عبد الكريم قبل ملاحقته بهواية التجوال في مدن البلاد بحثاً عن شيء أثار اهتمامه، بل لنقل فضوله، ولهذا حديث آخر سيأتي ذكره بعد قليل، ولطالما تخوف من زيارة المدينة لاستكمال ما بدأ به، وها هو قد اتجه نحوها وبات فيها، ولكن الحرص منعه من اشباع فضوله، فإذا بالجوهري قادر على ذلك يساعده في استكمال استقصائه الكبير عن قضية الميراث، التي يمكن أن يطلق عليها قضية العصر، إلّا أن مساعدة الجوهري لن تكون مجدية.

وقبل أن توجه التهمة الكبرى إلى عبد الكريم، كان قد ذهب بعيداً في استخدام الكلمات المنحوتة وكذلك الشعارات التي كان يبحث عنها بنهم جيل جديد من أسر وعائلات باتت تملك من القوة والمال ما كان سبباً وجيهاً في تصدر واقع بلدة المنتصرة الصغرى وتاريخها أيضاً. وستكتشف تلك الأسر أن

الكلمات والرسوم التي شكلتها الحروف العربية، وقد برزت على المرمر المستورد أو كانت غائرة في الخشب الفاخر، والتي صنع منها عبد الكريم شعارات لتلك القصور، سيُكتشف أنها حملت سخرية قطيعة من أصحاب القصور وأنسابهم المصطنعة، والتي ساهم عبد الكريم نفسه في كتابتها على رق غزال أو ورق لا يفنى، وذلك استجابة لطلبات تلك الأسر في أن تكون لكل منها شجرة عائلة تعود إلى أصول كريمة، فتمتد إلى أحد الصحابة أو إلى واحد من الخلفاء الراشدين أو الرسول الكريم نفسه. وكان عبد الكريم بمعرفته الواسعة للتاريخ قادراً على تلبية الطلبات وتفصيل الرغبات على القدّ الذي يريدون. ويبدو أن قرفه من مثل تلك الأنساب هو الذي فتح شهيته على توظيف عبقريته في اختراع الشعارات التي توجت مداخل الأبنية وصدور القاعات الواسعة فيها.

عندما اكتُشفت السخرية فيما فعل عبد الكريم، تفتحت الرغبات العارمة عن أمنيات في تكسير أصابع أمهر من شهدت له البلاد بالإبداع وتشويه جمال أكثر الرجال جمالاً في تاريخ البلدة. فعلى باب قصر طعم خشبه بالنحاس، نقشت بخط ديواني متشابك الحروف كلمة (الفظيم) وقد أخذت شكل الطرة الهمايونية، فبدت لفخامتها كأنها تميمة توارثتها العائلة عن أجداد كان لهم الفضل في قيادة البلدة والاحسان إليها. كانت (الظاء) تبدو كقلنسوة مباركة تتوج الحروف، بينما (الميم) التفت عليها كأنها ذنب تنين يرمز إلى القوة التي فرح لها صاحب القصر فأجزل لعبد الكريم العطاء. وسيكتشف بعد ذلك، وعندما تنبهت سلطات البلدة إلى خبث الرجل المزخرف، أن تلك الكلمة الشعار إنما نحتت من كلمتي (الفظ) و (البهيم)،

وهما صفتان لم يجد غيرهما عبد الكريم في صاحب القصر الذي قيل إن ثروته الكبيرة جاءت عن طريق زراعة الحشيش وتوزيعه في أنحاء العالم.

وقد مرّ على المنتصـرة الصغرى زمن تصـارعت فيه جماعتان، كانت كل منهما تناهض الأخرى وتسفه آراءها بل وتتهمها في اخلاصها وولائها، فانقسم الناس آنذاك إلى حزبين، مثّل الأول اتجاه السلفيين والمتدينين والمنـادين بالتمسك بالماضي بل العودة إليه، واتُهم الآخر بأنه متحرر تتردد على ألسنة أصحابه كلمات كالعدالة والاشتراكية. وكان من الناس في البلدة من تستّر بصمته، ومنهم من راقب منتظراً الغلبة لواحد من الحزبين. وقد ارتفع في صدر قاعة الاستقبال الكبرى لقصر صاحب محطات الوقود شعار من الذهب الخالص يحيط كلمة نافرة فيه قرنان لثور خرافي. وقد استطاع ضيف حلّ لغز الكلمة فكانت (الشفيق)، فهلل لها صاحبها إذ فسّرها على أنها تدل على الشفقة التي ادعى أنها من صفات عائلته المتوارثة، إلّا أن الضيف سرعان ما فسر الكلمة على ضوء ما تكشف من نيات سيئة لعبد الكريم على أنها نحت من كلمتي (الشيخ) و (الرفيق)، وهما رمزان لما كان عليه الصراع في البلدة بين الحزبين، فالمزخرف الشرير كان يريد إذن أن يدل على أن صاحب محطات الوقود كان رمزاً للعب على الحبلين الذي انتشر في البلدة، وهو الذي كان على ما يبدو، أي ذلك النوع من اللعب، سبباً في تحول الرجل من مراقب بسيط في مصلحة الأشغال إلى واحد من أثرياء المنتصرة الصغرى. وسيصبح مصطلح (الشفيق) الذي اخترعه عبد الكريم دلالة

يستخدمها الناس للتعبير عن آرائهم المستترة في أمور كثيرة تدل على النفاق والتذبذب وعدم الثبات على رأي أو موقف.

وستبدو الحقيقة مؤلمة بعد اكتشاف ما فعله عبد الكريم، بل ما ثبته في قصور أولئك الناس بشكل تصعب إزالته، فشعار (الساذب) الذي يدل على أنه احياء لكلمة عربية قديمة نبيلة كما كان يظن، إنما هو دليل على السارق الكاذب، وطرّة (الرغير) التي خيّل إلى صاحبها أنها رمز على الكرم، جاءت للتعبير عن (الرجل الصغير) الذي كان دون ريب يحمل المعنى المعاكس للرجل الكبير الذي يمثل كبر النفس وسموها، وكلمة (الرقير) التي فرح صاحب القصر وهو يحسبها انتساباً لفروسية جاهلية، إنما كانت اختزالاً لكلمتي الرجل والحقير معاً. وهكذا انكشف الغطاء عن ألعوبة المزخرف واستهتاره بمكانة أصحاب القصور إلاّ ان أحداً لم يأمر بعد اكتشاف سره واتضاح نياته الخبيثة بإزالة تلك الشعارات من صلب البناء حرصاً على عدم تشويه تلك القصور، بل واكتشف بذكاء غير متوقع طريقة تحفظ لهم سلامة الزخارف والمعنى المطلوب من قبلهم لتلك الشعارات، فوظفوا أتباعاً لهم لإشاعة معان معاكسة لما دار في ذهن عبد الكريم، وكان من أولئك الأتباع أساتذة ومثقفون جعلوا يبررون في مقالاتهم ودراساتهم الأصول الكريمة والعريقة لتلك الأسر التي تجلت في الرموز المحفورة تاريخياً في البنيان المتين. ونشأ علم انساب روج له أولئك الأتباع بحجج منطقية وأسانيد تاريخية تظهر الروح المفعمة بالعودة النقية إلى الأصول، وإن كانت تلك الأنساب تختلف بشكل جذري عن الأنساب التي كان عبد الكريم يبحث عنها.

وقد ظلت التهمة الكبرى التي كانت السبب المباشر في مداهمة دار عبد الكريم لإلقاء القبض عليه، ظلت مبهمة إلى أن توضحت صورتها عند الجوهري الذي سيكشف عنها أو أنه سيكمل الصورة التي أدت بجواد إلى أن يتعرف على حقيقة تواري أبيه عن الأنظار في تلك الليلة. القضية كانت لها علاقة بالأنساب، أو بالأحرى بنسب رجل واحد يمتد في آلاف البشر من أهل البلاد. وكانت اللفافة التي قيل إنها بلغت في الطول عشرين ذراعاً وقد امتلأ ثلثاها بأسماء عائلات ونساء يعشن في المدن الصغيرة والكبيرة وكذلك في الجبال والسهول والقرى أحياناً. وقد ظلت اللفافة التي شهدت فنون الخط العربي الذي أتقنه عبد الكريم، وكأنه يستعرض فيها مهارته الفنية وقدرته على تجميع المعلومات التي لها علاقة بامتداد نسب (الحاكم) في نساء لا حصر لهن. ومن المؤكد أن تلك اللفافة لم يعد لها وجود الآن، وهي التي لم يشاهدها الجوهري سوى مرة واحدة اختفت بعدها دون إشارة تدل على وجودها في أي من الأمكنة المحتملة.

ـ ٥ ـــ

في الصفحات التي دونها الجوهري عن فترة (الحاكم) الذي كان يرمز إليه أحياناً بالفحل وتارة بالثور المبارك وأحايين بلقبه الذي استقر عليه في تلك الصفحات، كانت هناك إشارات سترتبط دون ريب بمعضلة عبد الكريم في بحثه الفضولي ولفافته المكرسة لإثبات الأنساب:

«.. قيل إنّ سيدة القصر هي التي وقفت وراء الفحل الذي اعتلى الكرسي فجعله مهيباً كما لم يفعل أحد من قبل....

واستيقظ أهل المدينة، وكان اليوم السابع لحكمه، فشاهدوا سبع جثث مشنوقة علقت ثلاث منها من كراعيبها وقد سملت عيون أصحابها، فعرف أن الحكم كان في تلصص أولئك الرجال على حريم غيرهم، فساد شعور عند سواد البشر أن الفضيلة لا بد مأمونة وحقوقها حتماً مضمونة. وفي العيد الأول لنجاح الحاكم في انتخابات المدينة وقد مرّ شهر عليه في تصريفه شؤون الناس، وُزع على الفقراء خبز أبيض لا يخالطه الشعير كما العادة، فبات لدينا (عيد الخبز) إلى جانب مناسبات عديدة وأعياد محدثة كأسبوع الأمانة وعام الولاء للأسلاف الصالحين وعيد القضاء على التسول. وقدْ وعدنا الحاكم بأن يكون للناس في كل يوم عيد، فعيد بأية حال عدت يا عيد...».

كانت صورة الحاكم على الطابع البريدي الذي أوصل رسالة عبد الكريم بعد عشرين سنة، مثاراً لتفكير جواد في استعادة الأحداث. تذكر في تلك اللحظات أن الرجل مألوف لديه، فقد نشرت المجلات والجرائد الأوروبية صورته منذ سنوات على أنه يمثل قضية العصر، بعد أن كشفت البنوك والمؤسسات المالية المختلفة في عديد من الدول، عن الثروة الخيالية التي خلفها الرجل، ولم يكشف الغطاء عن سرها سوى صراع الورثة الذين كانوا يتزايدون يوماً بعد يوم. وفي غربة جواد الطويلة، لم يهتم لحظة بما يجري في البلاد، فقد كانت ساعة هرب أبيه تطمس كل شيء، وها هو الآن سيدرك سرّ اللفافة التي كان عبد الكريم يعمل على إعدادها.

ولم يكن سراً حب الحاكم للنساء الجميلات أو المثيرات. كان إذا سمع بامرأة ذات فتنة أو شهرة في الحسن. سعى

إليها ولو كانت في أبعد مكان من البلاد، أو أنه عمل على إحضارها بوسائطه التي لا تعدم الذكاء. وكما قال الجوهري في يومياته، فإنه، أي الرجل، كان مصاباً بحب معاشرة النسوة المتزوجات حديثاً لأنه لا يطيق أن يرى امرأة جميلة يمتلكها غيره، وقليلة هي المرات التي اختار الحاكم فيها لفراشه العذراوات من النساء. وقد قيل إن عطاراً في السوق القديمة قد أثرى، بل قيل إنه كان يملك القدرة على حلّ أكبر المشاكل وتعيين من يريد في أرقى المناصب، لسبب واحد هو فنّ ذلك العطار في تزويد الحاكم بأعشاب ومساحيق ودهون لها علاقة بتفجير طاقات الرجل الجنسية، عجز الأطباءأنفسهم عن اعطاء تفسير علمي دقيق لها. وقد مات العطار فجأة عقب خروج الحاكم من البلاد، فقيل إنه قضى نحبه منتحراً بعد أن زال غطاء الحماية عن رأسه، وأشيع أنه سقي السم كرهاً منه وذلك ضمن خطة واسعة تهدف إلى تصفية أعوان الحاكم وبطانته وخلّانه.

وهكذا خلف الحاكم أبناء لا حصر لهم جاؤوا من صلبه، فقيل إن تاريخ الملوك القديم نفسه لم يشهد خصوبة تشبه ما كان عليه الأمر عند ذاك الحاكم. ويبدو أن وراثته الواضحة في الأنف المدبب والأقدام المسطحة، والتي ظهرت في عدد هائل من الذكور والأناث في طول البلاد وعرضها، كانت من الأدلة التي أكدت على صدق الروايات المتعلقة في اختلاء الحاكم بذلك العدد الكبير من النساء. وعندما توفاه الله في منفاه أو أنه اغتيل في ظروف جريمة ما زالت غامضة، إذ لم يظهر الأمن الاسباني أية حقائق مقنعة حتى يومنا هذا، وظهرت في وسائل الاعلام المختلفة أخبار متواترة ومتراكمة عن الثروة الخيالية

التي كان الحاكم الراحل يمتلكها، آنذاك كانت الشرارة الأولى في ادعاء فتى يحمل أنفاً مدبباً وقدمين مفلطحتين أنّ له حصة من الميراث، فهبت المنتصرة الصغرى بلدته فرحة بالنصر الذي لم يمكن لها أن تحققه دون مصادفة، ولكن الفتى كان قد اختفى بعد أيام، ووجدت جثته في قعر بئر قديمة دون أي أثر لجريمة عليها.

وقد جاء في زاوية مصورة من الصفحة الاجتماسياسية لمجلة ايطالية فضائحية أن الشقاق قد دبّ بين زوجات الحاكم الشرعيات اللواتي انتشرن على الشاطىء الأوربي للبحر الأبيض المتوسط، وقد نشطت مكاتبهن الصحفية في نشر الوثائق التي تشير إلى أفضلية كل منهن في الحصول على الحصة الكبرى من الميراث النقدي والعيني. وفي غمرة تلك الحرب الاعلامية الساخنة، ظهرت فتاة صغيرة على ميدان الأحداث، وكانت من الضاحية الجنوبية للمنتصرة الكبرى، ظهرت مدعية أنها عثرت على وثيقة كانت بين أوراق أمها المنتحرة، وأن تلك الوثيقة تثبت أن الأم كانت خليلة الحاكم السابقة والمفضلة لفترة دامت شهوراً طويلة، لذا فإن الفتاة تطالب بحصتها من الميراث أسوة بالأبناء الشرعيين للحاكم، وأنها سترسل بوثيقتها إلى المحاكم المختصة في أوروبا مع تقارير طبية وصور وثائقية تثبت أنها ابنة الحاكم دماً وأنفاً وأقداماً مفلطحة.

ومثل تلك الأحداث الفردية التي تجلت في ادعاء الفتاة، مهدت الطريق أمام مطالبات واسعة بميراث الحاكم، توّجها فضول عبد الكريم الذي دفعه إلى استقصاء الأنساب التي

تنحدر من صلب الحاكم أو تمت له بصلة. وهكذا امتلأت اللفافة الطويلة بالأسماء يوماً بعد يوم. وقد تردد في العائلة أنّ أم عبد الكريم التي عرفت برئاستها لمشيخة دينية، حذّرت ابنها الوحيد من أن يدسّ أنفه في شؤون الناس، وكانت إلى لحظة موتها وهي تطوف بالكعبة المكرمة تظل تردد:

«اللهم احم عبد الكريم من طلب معرفة لا تغنيه وأشياء لا تعنيه».

ولكنّ عناده الذي عرف عنه منعه من أن يصغي باهتمام إلى وصية أمه وهو الذي لم يخالف لها أمراً، واندفع إلى التجوال في أطراف البلاد وأعماقها بحثاً عن الأسماء. وهكذا أضيفت إلى موهبته الفنية خبرة متشعبة في الجغرافيا والعادات الاجتماعية والأحوال السيئة التي يعيشها عدد من البشر وهم قانعون أو صامتون لا ترتفع عقيرة أي منهم بكلمة احتجاج.

وقال الجوهري:

«ولا بد أن مجيء عبد الكريم إلى المنتصرة الكبرى، كان لاستكمال لفافة النسب، ولكنه اختفى بعد ذلك، ولا أعلم إن كان لاختفائه علاقة بملاحقة الأنساب التي عجزنا نحن أهل هذه المدينة عن إدراكها وكانت بيننا تعيش، فأية بلادة أصابتنا..».

- ٦ -

كان جواد يستعيد ما لصق بذاكرته من أنباء تواترت عن كنز الحاكم الذي لم يحسم بعد لصالح وريث، وقد نسجت من قضية الكنز تلك عشرات الحكايات التي شغلت بها الصحافة الأوربية بلغات مختلفة، وبالرغم من أن جواداً قرأ شيئاً منها

آنذاك إلّا أنه لم يعر القضية أي اهتمام، وهو دون أن يدري قد أهمل جانباً من حياة أبيه فيها. ولم يدرك أهمية الأمر إلّا في هذه اللحظات وهو يحسّ بجدية الخطر من اختفاء عبد الكريم.

«هل ما زال في المدينة بعد مرور عشـرين سنة من الاختفاء؟».

ذلك كان هو السؤال، فوقف الجوهري وكأن اختفاء صديقه قد حدث لتوه.

كان ذكر أسمهان في اليوميات التي عكف على قراءتها بامعان، قد ألهب خيال جواد وأعاده إلى ماضيه الذي توزع في بلدان كثيرة فشاهد وعاشر هناك مئات النساء. وكانت اليوميات إذا أغفلت صفحة منها إشارة إلى أسمهان،تحدثت عن علاقات الناس بها، فكانت حاضرة كبطلة لا بد من وجودها لاستكمال حقيقة تلك المذكرات المكتوبة بلغة بدت وكأنها المعتمدة في المنتصرة الكبرى، فهي لا تخلو من تشبيهات ومصطلحات مرموزة لا بد أنها من صنع تاريخ المدينة نفسها. وسيعلم جواد أن (الست) كلمة تشير إلى أسمهان كما أن كلمة (المْحوْرقة) و (الإمّاية) تؤديان المعنى نفسه. وسيعلم أن (المسعود) مصطلح يشير إلى من يحكم المدينة، فإذا كانت كلمة (المسعود العتيق) كما سيجيء في الصفحات المتأخرة، فتلك هي إشارة إلى ذلك الحاكم الذي ذهب إلى المنفى مع زوجاته وأولاده، وإذا كانت (المسعود الجـديد)، فهـذا يعني أن اليوميات تتحدث عن المستمسك. ويبدو أن مثل هذا اللقب السري قد استفاد من المثل الشعبي القائل (الله يسعده ويبعده)، كما أن مصطلحات أخرى عرفت من لغة المدينة دون

قيود، فكان للسجن أو المعتقل بديل في صفحات الجوهري هو (بيت الخالة) وذلك نسبة للخالة زوجة الأب، فيقال (وذهب فلان إلى بيت خالته ولم يعد). وكانت كلمة (العصفورية) تدل على المصح العقلي أو المشفى الذي يدخل إليه المجانين أو المهزوزون، والكلمة كما شرحها الجوهري لجواد تعني المكان الذي يحيل العقل إلى شيء أشبه بالقفص تزقزق فيه العصافير الحبيسة بصخب ولغو لا معنى لهما.

من أين أبدأ؟ ذلك كان السؤال الذي يلح على جواد. وكأن العجوز صاحب النزل قد بات بعد استضافته له ليومين متتاليين يتحدث فيهما مع جواد عن غائب لهما مشترك، بات على استعداد للإدلاء بمعلوماته، فتحرك نحو الباب كأنه يريد أن يتأكد من عدم وجود متلصص، بالرغم من أن الخادم الوحيد للنزل كان أصم أرسل أصوات فرح حين رأى جواداً وقد حسبه للوهلة الأولى عبد الكريم، كما أن النزلاء على قلتهم كانوا من العجائز أو الفقراء الذين يأوون إلى مهاجعهم بعد أعمال يومية شاقة. ويبدو أن النزل قد تخصص في سنواته الأخيرة بإيواء مهاجرين إلى المدينة يطلبون العمل في مهن شاقة أو مرفوضة، فكانوا يقبلون أجوراً بخسة لقاء عملهم بينما الجوهري يأخذ بعين الاعتبار تلك الحقيقة. وقد ظهر أثر أولئك المهاجرين من مناطقهم النائية على يوميات العجوز التي امتلأت بحكاياتهم وأحلامهم وخرافاتهم. ويبدو أن جواداً وطّن نفسه على الاجتماع طويلاً بأولئك النزلاء للاستماع إليهم، ولكن الأمور لن تسير كما يتصور، وها هو الجوهري يعود بعد طمأنينة للهمس في أذن جواد:

«إذا غاب لك أحد في هذه المدينة فطال اختفاؤه، فماذا أنت فاعل؟».

رفع جواد حاجبيه كمن يطلب النجدة لأنه لم يجد جواباً، فتابع الجوهري:

«تبحث عنه، أليس كذلك؟».

قال جواد مردداً:

«نبحث عنه دون شك».

«أين؟ ذلك هو السؤال».

تابع الجوهري، ثم أكمل قائلاً:

«نبحث عنه في واحد من الأمكنة الثلاثة التي لا رابع لها. العصفورية، أو أقبية الأمن المختلفة، أو في دار المتعة».

هتف جواد مستغرباً:

«دار المتعة!».

كان الجوهري في تلك اللحظات متجهماً، وقد بدا كأنه يتحمل شخصياً مسؤولية اختفاء عبد الكريم الطويل، جعل يتمتم:

«لو أنني قدمت له النصح.. لو حذرته..».

ثم لنفسه:

«ولكنه كان يعلم كل شيء عن المدينة. كان يعلم أكثر مما كنت أعلم».

وتطلع إلى جواد متسائلاً:

«هل يخطر ببالك.. أو ببال أحد، أن يدخل العصفورية، وعقله يزن بلداً؟».

ويتمتم من جديد:

«مسالم وهادىء.. فلم تتعرض له أجهزة الأمن بسوء، ثم أن..».

ولبث ساكناً يفكر. وكان جواد يستمع وهو يريد أن يصل إلى نقطة بداية تكون له الدليل في اتمام مهمته الصعبة. تابع الجوهري بصوت خفيض:

«قضى شهره القمري هنا يحادثني وأحادثه. يعمل ويكتب. وسترى الصندوق الخشبي الذي لم يكمله، وأنا اعتبره أعز ما أملك، وإن كنت ما عدت حريصاً على أن أملك أي شيء».

بعد لحظات هتف الجوهري:

«وأما دار المتعة فلا أظنه كان يملك مــالاً يسمح له بالدخول إليها».

ثم تساءل العجوز ببلاهة، كمن لم يخطر على باله مثل ذلك السؤال من قبل:

«أين ذهب عبد الكريم اذن؟».

في الغربة الطويلة، تعلم جواد التفكير بعمق وهدوء قبل أن ينطق بكلمة أو يعلق بحرف على ما يسمع، وهو كما قال له مرة أستاذه اليوناني بات يتحكم في أحلامه وأوهامه ومخاوفه، وتلك القوة لا شك في أنها خروج عن السعادة الشرقية. في تلك الغربة بات المنطق هو الذي يحكم حياته، لذا فإن فكرة سيئة واحدة عن مصير والده لم يسمح لها أن تعبر أفق تصوراته، وكان يفكر بإحكام في الأماكن الثلاثة التي تحدث عنهـا الجوهري على أنها الاحتمالات التي يمكن لعبد الكريم أن يكون فيها.

«كل ما أعرفه عن والدي، جاء من خلال الآخرين».

هكذا قال لنفسه. أمه أحاطت ذكر الغائب بهالة مقدسة من البطولة. مساعد عبد الكريم في أعمال التزيين والزخرفة، وقد فقد قدرة ساعديه على الحركة بعد تعذيب طويل للاستفسار عن أخبار معلمه، قال إن إعجازه في خلق أشياء جميلة لن يتكرر في التاريخ مرة أخرى. وهمس معمّر من سكان الحارة أنه طالما خاف على عبد الكريم من فضول في معرفة الأحوال وتسقط الأخبار، وأن طفولته كانت عامرة بالمقالب يعدّها بـإحكام للأشــرار من أهل الحــارة أو البلدة. كان يكــره المرابين والمتلصصين على نساء غيرهم والذين يتلاعبون بالأسعار أو يحتكرون الغذاء أيام الحرمان أو فترات المجاعة، وكان يكره محدثي النعمة والمتكبرين. وكان الفتى عبد الكريم لا يتوقف عن ازعاج أولئك، فما كان أحد ليصدق أن فتى جميلاً مثل عبد الكريم يمكن له أن يكون سبباً في ضيق أحد وهو الذي ينطق دوماً بالرقة وكثيراً بالحكمة. ويقول المعمر: «لا يمكن لك إلّا أن تحب عبد الكريم».

هتف الجوهري بحرقة:

«لحقت بنا الكوارث بعد اختفائه».

فقد بات النزل قاحلاً. ماتت زوجة الجوهري بمرض خبيث لم يمهلها أكثر من شهر واحد، وهربت كنّته، التي لم تطق غياب زوجها، مع تاجر عابر، وآثر الابن الهجرة بعد ذلك خوف الأقاويل التي لاحقته والعيون التي استهجنته، وبقي العجوز وحيداً يأمل العودة. كل شيء هرب منه، وبقيت حجارة المبنى تتآكل يوماً فيوماً، والقطار يمشي دون توقف، والدخان أسود يزداد اسوداداً على الذين غابوا. عبد الكريم، صورة الماضي الذي لم يبرد جرحه، وفجأة كانت سنوات الجوهري المتراكمة

كتجاعيد متحجرة، تذوب في دموع عينيه وقد انكب برأسه على طرف المقعد الأثري يشهق بكبرياء صامتة.

- ٧

والباحث عن ضائع أو غائب، لا بد له من بداية انطلاق. وهكذا خرج جواد منذ الصباح في رحلة الصيد الأولى. كان المخطط الذي رسمه له الجوهري غير كاف للاستدلال على أهدافه، فاعتمد غرائزه في اكتشاف المدن التي نمت وباتت كحاسة الشم عند خبير متمرس، فكان يقطع الشوارع بعد أن خرج من الأزقة والحارات وكأنه ساهم في تخطيطها أو أنه اكتشف عيوب امتدادها وتقاطعها أو تفرعها. ابتدأت الالفة مع المدينة.

كانت الأبنية العالية تحجب قرص الشمس. بدا قصر العدل كأنه كتلة كتيمة تكبل خيوط النور المتدلية من سماء صافية، ولكن الهدف لم يكن قصر العدل. ابتدأ جواد منذ الصباح بالتفكير في الإدارة العامة للمصحات النفسية، وتتبع مخطط الجوهري، ولكن إشارة واحدة لم تدل عليها. كان يعلم أن المشافي الثلاثة للحجر على المجانين والمعتوهين قد تناثرت في أكثر من اتجاه، ولكن الإدارة باتت قريبة فتحرك باتجاهها ليجدها، بالرغم من أنّ الوصول إليها كان عبر ممر خلفي لعمارة حديثة تساقط بعض مسطحات المرمر عن واجهتها فبدت كرغيف محروق.

لم يكن جواد بقانع أنه سيجد اسم عبد الكريم في سجلات الإدارة التي قيل إنها تحتفظ بكافة أسماء المحتجزين في

المصحات النفسية، فقد بات على يقين أن والده الذي أفلت من بين أيدي الجلاوزة في المنتصرة الصغرى لا يمكن له أن يقع أسيراً بين جدران العصفورية في المنتصرة الكبرى إلّا أن التزامه بخطة الجوهري الذي تحرك شعور البنوّة تجاهه بعد أن نام بداخله طويلاً، هو الذي دفعه إلى المضيّ قدماً نحو الطابق الأول حيث استوقفه عند المدخل كهل لم يعطه الباب المهترىء أية مهابة، فأشفق جواد على استسلامه لذبابة كانت تحوم على وجهه فلا يمتلك قدرة الهش عليها، وقال له في محاولة للاستفسار: «يا عم.. هل». وقبل أن يكمل كان الكهل الحارس يومىء برأسه نحو الداخل، فينتهي بخطواته عند غرفة مغلقة، ما لبث أن أيقظ هدوءها وهو ينقر الباب بأدب كبير.

كانت المرأة الغارقة في حديث على الهاتف، هي أول مسؤول سيتحدث جواد إليه في المدينة، فتهيب الموقف فهو لم يتعود من قبل لقاء واحد من المسؤولين في أية إدارة رسمية. وبالرغم من أن موظف الجمارك عند الحدود والذي شكك في أمره وهو يعود إلى الوطن بعد غياب طويل لمجرد أنه يحمل حقيبة ليس فيها سوى ملابس قديمة وبعض الكتب بلغات مختلفة، بالرغم من أن بحث الموظف ذاك كان دقيقاً ومهذباً، إلّا أن نظراته ذات الريبة خلقت في نفس جواد خوفاً من الاحتكاك بالناس الحكوميين. وكانت ضحكات المرأة وهمساتها، تشكل فاصلاً مع المصنفات وصحون الطعام الفارغة على سطح المكتب الحديدي عن وجود جواد الصامت. وبعد قليل ستلاحظ الموظفة أن أحداً ما قد اقتحم خلوتها، وأن وقوف غريب في ساحة سلطتها دون إشارة أو صوت قد أثار الضيق في نفسها، فالتفتت نزقة تحتشد كلمات التأنيب في فمها إلّا أنها ما لبثت

أن حدقت بدهشة في الرجل الجميل، وهي الآن من سيقتحم وجود الغريب بنظرات تناثرت كنقاط دبقة على القامة المهيبة فالوجه الذي ما ميزت النور فيه من الصرامة الوادعة. أقفلت الهاتف وتقدمت من جواد خطوتين وفي عينيها قول «أنا تحت أمرك». كانت مكتنزة، فارتج صدرها عندما توقفت فجأة وكأنها تخشى اجتياز الحاجز الذي بات بينهما مشتعلاً بصمت خطير. بعد لحظات دعته إلى المقعد الجلدي، لكنه أومأ شاكراً برأسه وأخرج من جيبه ورقة مطوية. كان اسم عبد الكريم ومعلومات أخرى عنه قد سجلت على الورقة، فأخذتها بين اصبعين وظلت تنظر إلى جواد وكأنها عثرت على كنز. قال جواد:

«كل ما أريده منك يا سيدتي أن تبحثي لي إن كان هذا الاسم قد دوّن في سجلاتكم المركزية، أو..».

ولم تمهله، تمتمت وهي تحاول أن تتمالك نفسها بعد صدمة الاكتشاف:

«بكل تأكيد.. بكل تأكيد».

ثم تورد وجهها بالرغبة الفاضحة.

وسيتحدث جواد إلى الجوهري في غرفة الذكريات العتيقة عن اليوم العجيب الذي مرّ في ديوان سجلات ادارة المشافي، وكيف دفعت به الظروف إلى الوقوع في مأزق لا يتخيله عاقل. كانت المسؤولة عن أرشيف الجنون في المدينة واضحة منذ البداية. أمسكت منذ البداية، أمسكت بكف جواد تدعوه للتأكد بنفسه من الأسماء في غرفة المصنفات التي كانت ضيقة تنتصب الرفوف المعدنية لتغطي الجدران حتى السقف، وكانت كفها باردة ما زالت تقبض على كفه، تشدها متوسلة، تتعرق متشهية. تساءل جواد وقد تخلص مؤقتاً من المسؤولة إن كانت

تلك السجلات التي لا حصر لها تخصّ الداخلين إلى المصحات العقلية والنفسية، فأومأت المرأة بالموافقة واقتربت. تساءل جواد من جديد إن كانت هناك اشارات حول خروج من دخل تلك المصحات، فتمتمت المسؤولة: «الداخل مفقود والخارج مولود». واستفسر جواد وهو يقلب واحداً من السجلات القريبة عن سبب هذا العدد الهائل من الناس يدخلون، فالتصقت به المرأة تردد بعصبية: «كنت أنتظرك منذ زمن»، ثم بتوسل «خذني خذني».

حاول جواد أن يخرج من الفخ فاعترضته الكتلة الملتهبة.

كان الجوهري يضحك كما لم يفعل منذ سنوات طويلة، وهو يستمع إلى وصف جواد لما جرى له من أحداث، ولربما حدث واحد هو محاولة اغتصاب المرأة المسؤولة عن سجل الجنون في المدينة له. كان مسّ الرغبة يبعده فينفر، وهو يقاوم كي لا يخرج عن الموضوع الذي جاء لأجله. والمرأة باتت مسعورة تعضّ أصبعاً له ثم تتذلل بمواء خشن يداخله لهاث الترجي. هتف الجوهري:

«المجنونة كانت تتسمهن».

فلم يفهم جواد مغزى القول في تلك اللحظات، وظل يتابع الرواية:

«أنقذني في اللحظة المناسبة صوت آمر جاء من الغرفة الأخرى، فخرجت المسؤولة مهرولة، فجعلت أقلب سجلاً كان يعود تاريخه إلى ثلاثين سنة سابقة».

وهتف جواد وكأنه يعود إلى لحظة الدهشة نفسها التي فاجأته وهو يتعرف إلى الجنون في المدينة:

«هل يأتي الوقت الذي يتساوى فيه عدد المجانين بالعقلاء؟».

قلب الجوهري على صفحة في دفتر يومياته، وجعل يقرأ:

«وفي غرّة رجب الذي مضى، حضرت إلى الحارة جوقة من ستة ممرضين وعسكري، قيل إنها جوقة ملاحقة المجانين، وألقت قمصانها البيض المصنوعة من قماش الخام الذي لا يتمزق على رجل وامرأة من سكان الخان المجاور للنزل. وقد علمنا أن الزوجين عاقلان، ولكنهما من ذوي الآذان الكبيرة التي أصغت باهتمام إلى كلام دار حول الحاكم».

وكان وعدي (الكاذب) بزيارة المسؤولة ليلاً في محل اقامتها الذي كان على سطح بناء الإدارة نفسه سبباً في كشفها لي عن سجل الأحرف الأبجدية لمن دخل المصحات العقلية منذ عقدين وحتى يومنا هذا، فلم يكن لعبد الكريم اسم فيه، فعلمت أن مرحلة من البحث قد انتهت، وعدت ما بين خائب وسعيد لأن عبد الكريم لم يكن مجنوناً. وضحك الجوهري من جديد لكن جواداً لم يشاركه الضحك.

ـ ٨ ـ

ابتدأ يوم جديد بشعور غامض بالاضطراب. جلس جواد بالقرب من الجرن الحجري يغرف الماء الفاتر بطاسة نحاسية مزخرفة ويصبّه على جسده ويفكر بالخطوة القادمة. وكانت (المنشفة) البيضاء التي كان عبد الكريم آخر من استعملها، تلف وسط جواد فيستشعر الأمان، لكن أصواتاً خارجية تأتي

من بعيد تخلق شعوراً بالاضطراب عنده، وكأنها هتافات مبهمة تصدر عن جموع كبيرة من البشر.

كان جواد قد انكب على القراءة في اليوميات منذ الفجر. وقد مرت مصطلحات وكلمات لم يسمع بمثلها من قبل. وسيكتشف أن مغادرة أبيه المبكرة قد حرمته من الدخول في معاني اللغة التي قد تفسر أشياء كثيرة تدور في فضاء البلاد. لقد تعلم الكثير في البلاد الأخرى، كيف يعيش وكيف يفكر، فهل حان الوقت كي يتعلم بما يجب أن يفكر؟

قال الجوهري وقد أحضر الشاي مع الكعك:
«لابد أن أصوات الناس في الشوارع قد وصلتك، بالرغم من بعدها».

وهما يشربان الشاي كأسرة اجتمع شملها بعد غياب:
«اليوم يحتفل أهل المدينة. يجتمعون في الشوارع والساحات ويهللون».

وكان هدير الهتافات قد جاءه مع ظهور ضوء الشمس التي تتأخر في الوصول الى غرفته، فيصغي محاولاً أن يفهم شيئاً منها فلا يستطيع. أكمل الجوهري:
«إنه اليوم الأول من الاحتفالات السنوية بخروج الحاكم ودخول المستمسك».

فلم تكن ملاحظات الجوهري تخلف أثراً في جواد الذي وضع خطة لزيارة السجون بحثاً عن أبيه سوى في قلق ظهر عليه فتساءل إن كان مثل هذا اليوم مناسباً لارتياد إدارات السجون. هتف الجوهري:

«هو اليوم المناسب لأن التقاليد تمنع اعتقال إنسان لأي سبب كان، بل وتسمح بزيارة السجناء والمحتجزين دون إذن مسبق».

وأضاف بسرور يصعب تمييزه من السخرية:
«وسترى لطفاً من المسؤولين قد يصيبك بالدهشة».

وبعد لحظات من التفكير:
«ولأنك غريب عن المدينة، بل تبدو وكأنك قادم من بلاد أجنبية، فسيكون اللطف أكبر».

وهمس الجوهري في اذن جواد.
«ولا تنس تنازلاً من طرفك عن مبلغ مناسب للرجل المناسب».

وبالرغم من تشرد وعذاب غربة وأيام ليس لها مخطط، قضاها جواد في أسفاره، فإنه بات منظم التفكير والخطوات، يحسب لكل شيء حسابه، لذا جعل يستعرض مع الجوهري قائمة بالاماكن المقترحة لمراجعتها بحثاً عن أبيه، والتي جاءت دون ترتيب في الأهمية مرتبة وفق خبرة العجوز كما يلي:
دار التأديب والاصلاح المركزية.
إدارة التحقق من سلامة الوطن.
مؤسسة العيون الساهرة.
جمعية الهداية الى السبيل القويم.

ويعقب الجوهري قائلاً إن ثمة أمكنة أخرى مشابهة، لا يرى مبرراً في اضاعة الوقت بحثاً فيها عن أحد، لأنها غير مخولة بالاحتفاظ بالمتهم مدة طويلة، فتساءل جواد:

«وهل كان عبد الكريم متهماً؟»

فأجاب العجوز وهو يستمتع بلون الشاي متأملاً:
«وهل تظن أن تلك الأماكن جعلت لاستقبال المتهمين وحسب؟».

وسيبحث جواد جوانب ذلك الموضوع مطولاً مساء ذلك اليوم، بعد رحلة طويلة من الغرائب، ابتدأت مع الدهشة من تلك الحشود البشرية الهائلة التي ملأت الساحات وحولت الشوارع الى أنهار متدفقة بالهتاف والتمجيد للمستمسك:
«ألف عام للمستمسك».

وتساءل جواد إن كان العلم قد توصل إلى مدّ العمر الى رقم كهذا. وبينما وقف على رصيف ساحة سميت بمنتصف ذي القعدة، جعل يتابع بعينيه صفوف المتماسكين ذراعاً بذراع وهي تطوف بنصب مرتفع من الحجر الصلد نقشت عليه رسوم وكتابات لم يميزها بسبب البعد، إلّا أنها ذكرته بالمسلة التي انتصبت وسط ساحة كبرى في باريس تطوف حولها السيارات ليل نهار.

كان العيد حقيقياً وحاراً، والمنتصرة الكبرى تعيش يوماً مليئاً بالأصوات والأنفاس المتهدجة وقرع الطبول الذي لم يتوقف. وكما سيقرأ بعد ذلك في اليوميات أن اسم المدينة كان من اختراع الحاكم السابق الذي اقترح ذلك الاسم في بيان ألقاه في حشود الناس وهي تبارك برنامجه المعلن ضد العوز الذي اجتاح البلاد في ظروف الحرب، وضد ضغوط الأجانب على الأراضي الشاسعة الغنية بثرواتها المخزونة في باطن

الأرض. وقد بقي الاسم الجديد، وبقي البيان خلال فترة الحكم تلك حروفاً مقدسة تعاد طباعتها في المناسبات التي تتكرر في السنة الواحدة مرات كثيرة، الى أن أبطله المستمسك محتفظاً باسم المدينة مؤكداً في بيان جديد أن انتصار المدينة سيظل شعارها الى الأبد.

ولن يجد جواد صعوبة في العثور على مبنى «مؤسسة العيون الساهرة»، الذي موّه بحديقة كبيرة غناء تزينها الأشجار المثمرة والشجيرات المزهرة، فيبدو للعيان كأنه معهد زراعي متقدم أو مركز لأبحاث لها علاقة بالدراسات الإنسانية. وقد ساعده وصف الجوهري الماهر في معرفة الطريق نحو المبنى العريق في تصميمه، والذي ،كما سيكتشف جواد في الفترة المقبلة من إقامته التي ستطول في المنتصرة الكبرى، أن زخرفة واجهته لا تقل جمالاً واتقاناً عن دار المتعة التي تجعل المرء يقف أمامها للوهلة الأولى مفتوناً فيستعيد ثقته بفن العمارة المحلي، بعد أن فتنته من قبل عظمة الأبنية الرومانية وعذوبة المعابد اليونانية وبساطة الأكواخ في الريف الألماني والسويسري وروعة الحدائق التي تمهد لظهور القصور الفرنسية من حجب الخضرة النضرة.

قف. فتوقفت. هكذا جاءه صوت آمر كسر إيقاع العذوبة المحيطة ببناء مؤسسة العيون الساهرة، وهكذا استسلم كان الرباعي المسلح قد زحف برشاقة من خلف الأشجار وكأنه ثمار شيطانية انفلقت فجأة عن رجال صغار القامة تقدموا منه بأسلحتهم المشرعة. نظر جواد بطمأنينة الى الريبة التي كانت تحكم خطوات الرجال، كأن حزمة الأغصان الكثيفة انشقت عن

كوكبة فرسان مدججة بالأسلحة القصيرة التي ظهرت كنتوءات حادة تخرج من تحت آباط الرجال الذين سكنت الحركة في وجوههم، بينما كان الذي يمضغ شيئاً في فمه يتساءل عن هوية جواد، الذي بعث بالطمأنينة في القلوب بصوته الهادىء الخفيض الواثق:

«أريد أن أقابل رئيس العيون الساهرة».

فبدا طلبه للوهلة الأولى تطاولاً، ولكن الحيطة دفعتهم الى قيادته نحو الداخل للتأكد من مصداقية قوله.

في صدر قاعة للانتظار، كانت صورة بحجم غير اعتيادي قد غطت جزءاً من الحائط. وكانت تعلو رأس مدير المكتب الذي احتل ركناً تحت صورة الرجل المدجج بالأوسمة. وقد قاد حدس جواد إلى أنه المستمسك. وكان المستمسك مهيباً أضفى على القاعة جلالاً منع المترددين إليها من خرق سقف الهمس المتداول فيما بينهم. وبينما يملأ جواد الاستمارة التي قدمت إليه بآلية، كان يتفحص المكان وكأنه يدرك سلفاً أنه قد توجه الى المكان غير الصحيح للبحث عن أبيه. الإسم، المهنة، ومعلومات شخصية أخرى، والغرض من الزيارة، فأخذها مدير المكتب ومشى متباطئاً نحو باب ينزلق داخل الجدار ليظهر من خلفه ممر شبه معتم. وإلى أن عاد المدير، كان جواد محط أنظار حرس منتشرين في أربع زوايا متباعدة.

وقد غفر جواد لنفسه الكذبة التي ادّعاها على أنه مراسل لمجموعة صحف غربية كبرى. كانت نصائح الجوهري الذي يبدو وكأنه مساهم في صنع تاريخ المدينة وأجيالها المتتابعة، كانت تلك النصائح هي السبب في ولادة أفكار شيطانية كثيرة

في رأسه، وهي المدخل إلى المشي بحذر ودهاء على حبل الكذب الذي سيمتد طويلاً في رحلة البحث عن عبد الكريم.

بعد قليل استدعي جواد ليمشي خلف الحاجب الذي قاده في خطوات بطيئة الى قاعة شبه معتمة يصمت فيها كل شيء. كان يعلم أن الرجل الذي سيقابله هو رأس المؤسسة فاتخذ موقع المتعالي وانحنى بهامته كما يفعل سفراء الدول العظمى. كانت كرة صغيرة تلمع فيها عينان اختلط المكر فيهما بشهوانية واضحة، قد استندت الى كتلة متراخية وكان حوض الرجل الكبير قد أثار انتباه جواد، وتسبب في رعشة خفيفة له ملمس الكف التي امتدت بليونة تصافحه. هتف الرجل بارتخاء:
«الصحف الغربية تحسن اختيار رجالاتها حقاً».

وكان المسؤول عن العيون الساهرة كريماً فشارك ضيفه الأريكة الجلدية، مقدماً له سيجاراً فاخراً وهو الذي لا يدخن، فشاركه جواد عداءه لرائحة الدخان الثقيلة، وهاجم منذ اللحظة الأولى قائلاً:
«هل هناك معتقلون لم ينته التحقيق معهم بعد؟».

وكان الرجل ودوداً يحسن الضيافة فقال:
«تبدو في فصاحتك وكأنك من أهل البلاد حقاً».

وبعد لحظات تتحول الوداعة في اللغة والجسد إلى قوة وهو يقول:
«سأبرهن لك بعد قليل، وبالوثائق، أن بلدي يحترم القانون بل ويساهم في تطويره».

ثم بفرنسية دقيقة يطرح المسؤول على جواد سؤالاً غريباً:

«الحرية قضية تبدو لدى صحافتكم مهمة. انها مهمة لدينا أيضاً».

ويبدو أن السؤال كان امتحاناً له، فأجاب بفصاحة أكبر:
«تتهمكم جهات كثيرة بأنّ الاعتقال هنا يطول ولا تكون المحاكمة العادلة عادة نهاية له».

ثم بانكليزية سليمة:
«هل يمكن الاستفسار عن أسماء محددة؟».

فلم يجب المسؤول الذي تحول الى كتلة رخوة بكلمة وكأنه لم يفهم ما يقوله جواد، الذي تساءل بلغة ألمانية صارمة:
«برهان الحرية أن يكون العدل هو السائد».

فحار المسؤول في أمره، وكأنه وقع في فخ امتحانه في اللغة الأجنبية فارتد عليه احراجاً. آنذاك تخلص من حيرته بوضع كفه الثقيلة على فخذ جواد يتحسسها، فأثار الريبة بطول تودده.

وسينفجر جواد ضاحكاً وهو يروي للعجوز مغامرة الجنس الجديدة. وهو إذ قبل فكرة دعوة المرأة في أرشيف الجنون لممارسة الحب، تعجب من أمر مدير العيون الساهرة الذي حوّل مجرى امتحانه لجواد في اتقان اللغات إلى الحديث عن جماليات العلاقات الحميمة بين الأصدقاء الرجال، وأثنى المدير على الحرية الجميلة التي يتمتع بها أهل بلاده (أي الغرب) فيباركون الحب المتبادل بين هؤلاء الأصدقاء، وأنه يشعر أنه اكتسب صديقاً رائعاً منذ اللحظة التي أطل فيها عليه بطلعته

البهية وقامته الفتية، وأنه افتتن حقاً برجولة لم يسبق له أن رأى مثلها بين أهل مدينته. هتف جواد ساخراً:

«أية مدينة.. أي حظ يقابلني فيها!».

وقد خرج من مكتب العيون الساهرة على وعد بمتابعة الحديث عن الحرية في دار مديرها.

- ٩

لم يكن الرجل العائد حديثاً إلى الوطن يعرف اليأس في لحظة من حياته. كان يخوض التجارب بإرادته ولا يبالي بربح أو خسارة إن كان ذلك في دراسة علمية أو مغامرة عاطفية أو في عمل يومي إلّا انه في الفترة الأولى من احتكاكه بالمنتصرة الكبرى، فكر طويلاً في أن اليأس أو اللاجدوى هما من العلامات الإنسانية التي عليه أن يحترمها أو يقرّ بها. فكر جواد أن يوقف البحث عن أبيه، فعلق الجوهري بمرارة وهو يقول:

«وتعود من حيث أتيت؟».

«عبثاً أتصور عبد الكريم ما زال في هذه المدينة».

«تعني أنه خرج منها».

«احتمال رابع لم نفكر به».

فارتسمت علامات من ذهول وضياع على وجه الجوهري الذي ضرب جبينه بكفه وهو يهتف:

«يا لي من غبي.. لم يخطر ببالي مثل هذا الاحتمال».

ثم هدأ العجوز فجأة وقال مقطباً كأنما اهتدى الى حقيقة معاكسة:

«لا يمكن لعبد الكريم أن يخرج من المدينة دون كلمة لي. هذا لا يمكن له أن يحدث وأراهن على ما بقي لي من الحياة».

كان جهاز التلفزيون الذي أدخل على النزل مؤخراً لتسلية صاحبه في المقام الأول، يبث وقائع الاحتفالات الكبرى التي ما زالت تشتعل أنوارها وخطبها في أرجاء المدينة. ولما كان جواد الذي لم يعتد على ذلك النوع من الفرح الشعبي العارم، فقد انتقل من حالة اليأس التي لازمته وأقفل الحوار مع الجوهري، ليتابع باهتمام وبحواسه كلها ما يجري على الشاشة. كان مع العجوز، وحيدين في الصالة، يغطسان في المقاعد التي فقدت أرضيتها المرونة، حين اقتحم النزل رجلان، دلّ صوت احتكاك أحذيتهما بالبلاط القديم على أنهما من الذين يتمتعون بثقة بالنفس تدعمها نبرة صوت أحدهما المتعالية. تمتم الجوهري بلا مبالاة وكأنه يعرف مسبقاً هوية المقتحمين:
«الجماعة شرفّتنا».

ثم بترحيب تمثيلي دعاهما إلى الجلوس إلّا أن صاحب الصوت الاجش طلب سجل النزلاء، فبدا مع تابعه وهما يقلبان الصفحات أنهما لا يكترثان للأسماء، ثم قال بعد لحظات:
«أين هو المدعو جواد عبد الكريم؟».

فتوقفت أنفاس الجوهري، وانتقلت عينا جواد من الشاشة الصغيرة نحو السائل عنه، ثم تبادل نظرة خاطفة مع العجوز الذي تساءل متماسكاً:
«ماذا تريدان منه؟».

آنذاك هتف جواد بصوت واثق وهو ما زال غاطساً في مقعده:

«أنا هو من تبحثان عنه».

قال صاحب الصوت الأجش وهو ينظر بريبة إلى فريسته:
«أنت حقاً هو؟».

هكذا قال جواد وهو يعود إلى الشاشة يتابع الأحداث الحافلة.

وحيداً كان الجوهري عاجزاً عن فعل أي شيء. لكنه ما لبث بعد قليل أن قلب سجل يومياته ليتوقف عند الصفحة الأخيرة منها التي لم يضف عليها أي شيء جديد منذ سنوات. كان يتأمل الماضي. ولكن الماضي كالقروح التي استعادت نشاطها، فغطّ الريشة في المحبرة النحاسية، لكن الحبر اليابس لم يطاوع، فانتشرت ذراته البلورية على الورق السميك، فاعتبر الجوهري ما حدث لا يمكن أن يكون فألا حسنا وأن الزيارة المفاجئة لرجلي الأمن لها ما بعدها، وخرج جواد معهما يعيد الأحزان إلى بدايتها. وكانت ليلته غماً لا يطاق، وهو يردد بين حين وآخر:
«ضاع الأب.. فهل يضيع الابن أيضاً؟».

كان الرجلان مهذبين في خطواتهما التي تتابع جواداً نحو السيارة الأنيقة. لم يجر أي حديث، ولم يفصح أي منهما عن الهدف من استدعائه. وعند نهاية المطاف كان ثمة لافتة دلّت على المبنى الذي دخله جواد مع مرافقيه، علم آنذاك أنه قد استدعي إلى جمعية الهداية إلى السبيل القويم التي كانت أصلاً في برنامج بحثه عن أبيه، فكأن الأقدار هي التي تقوده لمتابعة البحث، وأن اليأس الذي راوده لا قيمة له في ما هو

مرسوم له. ودفعه قوس المدخل الواطىء الى انحناء قسري في قامته، فأطل بعدها على قاعة كبيرة انتصبت جدرانها لتحدد ساحة مربعة وكأنها حوش في قلعة قديمة. وبعد صمت طويل دام منذ الخروج من النزل وحتى الساحة الداخلية، قال مرافق:
«بعد قليل سيشرفك رئيسنا باللقاء».

وأضاف الصوت الآخر:
«لا تتكلم الاّ إذا سئلت».
فلزم جواد حدود الاستجابة بصمته المألوف.

انتصب المبنى في القسم الحديث من المدينة، ولكنه ظهر لجواد واضحاً بالرغم من الأنوار الخافتة التي سلطت عليه وكأنه بني منذ قرون. وقد كانت المهابة التي أحاطت بالمبنى داخله وخارجه، تذكره بمعبد (دلفي) في اليونان أو بأروقة متحف اللوفر المؤدية إلى أجنحة شامخة كانت لملوك غابرين. ووقر في نفس جواد أنه ما دام في مكان جليل كهذا، سيجد الجواب على اختفاء أبيه. ومن جديد يصبح جـواد وجها لوجه مع مسؤول كبير يختفي جسده في فجوة مقعد مرتفع يدور على نفسه. وفي لحظات وعند أول خطوة من جواد في الحرم الساكن، يستدير نحوه رجل، بدا له كأنه خرج من صلاة تأملية كان يتوجه بها نحو نافذة وهمية رسمت باتقان على مساحة كبيرة من الجدار الأصم، وقد ظهرت سماء نورانية عبر تلك النافذة توحي بأن الطمأنينة تخيم على سماء المدينة.

إذن فهذا هو الحاج مصطفى الصارم. الرجل الذي أشارت إليه اليوميات بأنه اكتسب لقبه مع وسام علقه على صدره الحاكم السابق.. الرجل الذي قاد جمعية الهداية إلى السبيل

القويم بطريقة أثارت الاعجاب في كل حين، هو في الحقيقة، كان يعرف في شبابه باسم المساعد أول مصطفى الطيب، فأضيف إليه لقب (الحاج) بعد عمرة، أو مهمة والله أعلم، إلى الديار المقدسة، وقد استبدل (الطيب) بـ (الصارم) من قبل الحاكم الذي وجد فيه القدرة النادرة على حسم الأمور بدقة وسرعة تشبه السيف القاطع في يد مقاتل لا يعرف التردد أو الرحمة. ويبدو أن مثل هذا اللقب الرئاسي قد دفع بالحاج الى رتبة عسكرية كبيرة بعيداً عن رتبته الصغيرة التي لا تتناسب والمركز الجديد الذي أسند إليه.

كان الحاج مصطفى الصارم أصغر حجماً مما وصف به، وهو الذي قيل عن شكله إنه يجمع بين ضخامة الفيل وامتلاء الكديش وشراسة القط البري، فبدا أيام المستمسك هذه وديعاً كقط أليف، ضئيل الحجم كدجاجة جائعة، ويخرج صوته من بطنه وكأنه يراقب كل كلمة تصدر عنه خوف الوقوع في خطأ النحو والصرف. وقال جواد لنفسه إن الوصف على السمع ظاهرة يقع فيها كثير من الناس هنا، وهو الذي جعل صورة الحاج مغايرة، أو أن الرجل أصيب مؤخراً بمرض الانحلال الذي تابع أخباره في المجلات العلمية التي استهوته في غربته وحققت شيئاً من طموحه في دراسة للكيمياء التي شغلته عنها اهتمامات كثيرة في الفلسفة وتاريخ الشعوب وعاداتها.

حين وقف الحاج مصطفى الصارم بطلعته الساكنة التي لا تعرف الانفعال، ومدّ ذراعه مصافحاً، أحس جواد بالشفقة على الرجل، ولام نفسه على تصديقها لتلك الصورة المبالغ فيها عنه، والتي وصفته أيضاً بأنه لا يتبع عادة الطرق المألوفة في

الاستجواب، القديمة أو المتقدمة، للذين يخضعون للتحقيق في جمعيته، لأنه كما قيل يقضي تماماً على من تثبت عليه التهمة بموت سريع، مخافة الله في تعذيب مخلوقاته، فهو كما قيل عنه يحترم خلق الله فلا يتسبب في إيذائهم أو الحاق الألم بأجسادهم أو أرواحهم، بل يتبع الأساليب اللائقة في إرسال المذنبين الى الرفيق الأعلى بيسر وهدوء لا مثيل لهما.

في غرفة أو قاعة، وهو التعبير الأدق، الحاج مصطفى الصارم، أحس جواد بالطمأنينة والهدوء. وكان الركن الأبيض في طرف قصي من مكتب المسؤول عن الهداية، يضم الرجلين وكأنهما صديقان قديمان. كانت تحف بالمقاعد شجيرات لا يميز أحد أنها من البلاستيك سوى خبير في النباتات كجواد الذي قضى شطراً قصيراً من غربته الطويلة في معهد زراعي هولندي. غاص الحاج في المقعد الذي صنع من جلد الغزال بينما ظل جواد يقظاً في جلسته المقابلة له. كان يتحين الفرصة للدخول مع مضيفه في موضوع اختفاء أبيه، ولكن الحاج كان دقيقاً في كلماته وانفعالاته. وبعد لحظات دخل شاب في زي رسمي غير مألوف، يقدم شراب التوت بأدب يذكر بمطعم باريسي فاخر كان جواد قد دخله مرة ضيفاً على كونتيسة متصابية حاولت اغرائه فلم تفلح. خرج الشاب فردد الحاج قوله:

«أعلم أنكم معشر مراسلي الوكالات الأجنبية تفضلون الكحول ولكني أعتذر عن تقديمه».

ثم أكمل الحاج وهو يرشف من الكأس الرقيقة:

«أنا كما يجب أن تعلم، لا أسمح بارتكاب المنكر أمامي، فنحن مدينة تخاف المعصية».

تمتم جواد باستحياء مقصود:
«أنا، كما يجب أن تعلم يا سيدي، لا أشرب أي نوع من الكحول».

فلم يعلق الحاج بكلمة على ملاحظة جواد، بل لمعت عيناه الصغيرتان وهو يقول:
«كان عليك أن تقصدني مباشرة».

فأطرق جواد وكأنه يعاقب نفسه، بينما الحاج يكمل قوله:
«أنا، كما يجب أن تعلم، أقرب الناس إلى سيدنا من جميع الأجهزة الأخرى».

وهنا قرر جواد أن يدخل في موضوعه دون مواربة ما دام أنه لم يستدع لتحقيق أو استجواب:
«في الحقيقة، كنت أبحث..»

ولم يستطع أن يكمل جملته، فقد اندفع الحاج مصطفى الصارم في قوله:
«كنت تبحث عن سبق صحفي مع سيدنا المستمسك».

وأطل الحاج بلطفه على جواد وهو يقول شارحاً:
«عيوني، المنبثة في كل مكان، عرضت لي ما جرى لك في إدارة العيون الساهرة».

ثم بحزم لا يهين:

«لا أحد هناك، أو في أي مكان آخر، يجرؤ على تقديمك إليه».

وهتف بثقة وهو يخطر بقامته الهزيلة يلف بها حول المقعد:
«وحدي أنا هو القادر».

واستدار عائداً الى مكتبه الخشبي ليمسك بين أصابعه مجموعة من الأوراق يقلبها كأنما يريد أن يعيد النظر فيها. وكانت واجهة المكتب تحمل رأساً نافراً لا بد أنه للمستمسك نفسه، فقد كان من المهابة ما جعل المكتب الرسمي أشبه بسفينة أسطورية. قال الحاج مصطفى الصارم وهو يقدم الأوراق لجواد الذي وقف منتصباً:

«هنا تجد مجموعة من الأسئلة الدقيقة زود كل منها بجواب واضح وصريح. خذها معك واقرأها بامعان، فستجد فيها كل ما قد يتبادر إلى ذهنك من استفسارات واحتمالات لأسئلة قد تكون الآن أو من قبل تفكر في طرحها على سيدنا».

ثم تساءل وكأنه صديق قديم:
«هل تجد الراحة في فندقك؟».

وأضاف دون انتظار لجواب:
«تستطيع أن تكون ضيفنا في فندق حديث..».

فعارضه آنذاك جواد، وبعد أن أكمل احتساء شرابه:
«فندقي هادىء وقد زكّاه مدير وكالتنا».

فهتف الحاج:
«أنت ضيفنا فيه إذن».

وتابع باتجاه الأوراق التي جعل جواد يقلبها باهتمام:

«أسئلة عن حرص سيدنا على المواطن، ثقافته ومستقبله. تجد أسئلة عن علاقتنا بالدول. آراؤه الكونية. عن التطورات المذهلة في المنتصرة الكبرى وتوابعها».

وهو يتنحنح، كأنما معرفته الكاملة بتلك الأوراق تسبق لسانه:

«تصوراته عن العلم والفن والسياسة. ماذا يمكن أن يحدث في نصف القرن القادم على ضوء إمكانات التطور البشري والطبيعي».

هتف الحاج مصطفى الصارم بسعادة حقيقية:

«أنت رجل محظوظ حقاً بحصولك على مثل هذا السبق الصحفي. وثقتي كبيرة بأن وكالتك لن تكافئك كما سنفعل نحن أيضاً».

وقال بلهجة تقريرية:

«ويمكن لك استخدام أجهزتنا الفنية لبثّ تحقيقك بالطرق التي تختارها».

وهو يطوق كتفي جواد بذراعين ضعيفتين:

«ألم أقل لك إنك رجل محظوظ!؟».

لم يجد جواد سوى تقديم الشكر للحاج، طالباً المهلة الكافية لدراسة الملف الذي ضمّ عشرات الأوراق المطبوعة باتقان، فرافقه حتى باب القاعة الذي أغلق من بعده آلياً، ليتابع جواد خروجه من المبنى، إذ ظنّ في البداية أنه من الصلابة بمكان لن يسمح له بمغادرته أبداً.

وكان الجوهري يصغي الى الحكاية بعد أن طالت غيبة جواد التي امتدت الى منتصف الليل، فبقي خائفاً عند مدخل النزل يراقب حركة الباب بانتظار عودته. وكان جواد قلقاً، لم يسبق له أن مرّ في مثل تلك الحيرة من قبل. كان الابن قد حوصر باحكام بموعدين مع مسؤولين كبيرين يملكان القدرة على فعل أي شيء.

وبالرغم من أن الموعد الأول كان مريباً في تلميحاته الجنسية مع مدير مؤسسة العيون الساهرة إلّا أن التخلص من الموعد الثاني قد يعني انكشاف كذبه في أنه ليس مندوباً لأية وكالة أنباء أجنبية وأنه قد جاء لغرض واحد هو البحث عن أب ضائع أو مختف في مدينة كبرى لا تقل هولاً عن أية عاصمة كبرى في هذا العالم. وكان الجوهري لا يملك سوى الاصغاء الى أخبار جواد المستحدثة، دون أن يعلق بكلمة واحدة. وكان جواد يفكر جدياً في الهرب نحو الحل الثالث الذي كان العجوز قد وضعه احتمالاً أخيراً في البحث عن عبد الكريم الغائب. دار المتعة باتت تنمو في عقل جواد. تساءل وقد ظهر عليه التعب: «هل جاء دور دار المتعة؟».

فضحك الجوهري وهو يربت خده كابن له يدعوه للراحة:
«قم واسترح، ولا تنس أن تكون حذرا فجمالك يخشى عليه هناك».

وهما يمضيان صعوداً على الدرج:
«القطع النادر أمر ضروري في دخول الدار».

وسيطول الليل حتى الفجر، وهما يتحدثان عن دار المتعة

العجيبة الغريبة التي لم يسمع بمثلها في أي من البلدان الكثيرة التي زارها جواد أو عاش فيها طويلاً.

ـ ١٠ ـ

ولم يكن مقدراً لهذه الحكاية أن تمرّ دون انعطاف دراماتيكي، قد يكون له ما يبرره أو أنه اختلال طبيعي في سير الواقع الذي تعيشه المنتصرة الكبرى، فقد ألقى جواد تحية النوم على العجوز الذي كان مستلقياً على فراشه يتحدث، فصمت فجأة، فعلم جواد أن الوقت قد حان للعودة الى غرفته. الّا أن الجوهري لم يرد التحية، فارتاب جواد، واقترب منه ليجد أن الوضع غير طبيعي. أصيب العجوز الذي ستظهر الأوراق بعد ذلك أنه اقترب من الثمانين فكانت حيويته مخادعة، أصيب باختناق في الصدر عند مطلع الفجر، فأسرع جواد إلى النافذة يفتحها، وكانت خبرته التي اكتسبها يوم عمل مساعداً في مشفى جبلي ايطالي قد دلته على خطورة الموقف الذي يمر به الجوهري. حاول اسعافه بتدليك القلب، لكن الحالة كانت تسوء، فهرع إلى الأسفل حيث الهاتف باحثاً في الدليل عن رقم الاسعاف السريع، لكن الرقم لم يجب، ففضل العودة إلى العجوز الذي ازرقت شفتاه ونضح جبينه بذرات من العرق البارد. كان الجوهري يحاول أن يهرب الكلمات من بين شفتيه:
«لا فائدة يا ولدي».

يجاهد جواد أن يفرك الكفين بحرارة كفيه:
«حانت الساعة».

يحاول من جديد أن يدلك القلب.

«حاول أنت أن تنفد بجلدك».

يمسح حبات العرق بمنديل. وجواد الآن يخفي اضطراباته بابتسامة ثقة وهو يسأل:

«أليس لك دواء تستعمله؟».

يقول الجوهري بضعف شديد:

«ليس لي أحد يدير المكان. الفرصة ضاعت يا ولدي».

يحس جواد أن الأمر يفلت من يده.

«انفد بجلدك قبل فوات الأوان».

ويهتف جواد بحرقة:

«وتتركني؟ هل أترك عبد الكريم.. صديقك وحبيبك عبد الكريم؟!».

وخرجت شهقة من صدر العجوز لترتد حسرة:

«تعلّم يا ولدي أن لا تيأس من البحث عنه».

«لا يمكن.. لا يمكن لي أن أيأس».

كان جواد يردد بضعف عنيد، بينما ظل فم الجوهري فاغراً كحفرة في صخرة. صرخ جواد منادياً العجوز ولكن الصمت كان قاسياً. كان الموت معروفاً من قبل جواد، ولكنه لم يكن قاطعاً كمثل هذه المرة يدخل الأحشاء نزيفاً لا يتوقف.

وكان الخادم الأصم عجوزاً أيضاً فتقبل الحدث ببرود وظل باقيا يراقب جثة الجوهري ساعات إلاّ أن الأسى الذي استشفه جواد من تلك النظرات دفعه الى النظر في علاقة الأحياء بالأموات ومن ثم بالغائبين. كاد جواد أن ينسى شكل أبيه،

ولكن النظر في المرآة يعيد إليه الصورة الغائمة فتصبح واضحة، فيحس بإصرار جديد وهو يريد أن يجد الغائب بأي ثمن. في البداية كان رضا أمه هو الدافع الأكبر في العودة الى الوطن والى المنتصرة الكبرى، والآن تتملكه الرغبة الجامحة في استعادة ما هو غائب عنه، تماماً كما أحسّ في اللحظات الأخيرة من تلاشي أنفاس الجوهري بأنه يتمنى أن يوقف موته بأية وسيلة فصرخ في أعماقه:

«إلهي امنحني القدرة على قهر الموت».

ثم اكتشف جنوحه في طلب لا يمكن له أن يتحقق فمضغ قهره ولبث ساكناً كجندي خسر المعركة وهو ينتظر شروط المنتصر عليه.

وسيمضي اليوم بعد أن ظهرت الشمس من جديد، وكأن الجوهري لم يكن من قبل اهتمت إدارة البلدية بكل مراسم الدفن الذي لم يثر اهتمام أحد من أهل الحي. هل استوت قضية الحياة والموت عند الناس؟ وكان المشيعان الوحيدان، جواد والأصم، يراقبان الحفرة وقد سوي فراغها بالتراب، فعادا متنافرين تجمعهما سيارة أجرة قديمة. واقتنع جواد في نهاية النهار بعدم جدوى البقاء في النزل الموحش، فحمل محفظته وكيساً يضم يوميات الجوهري ومذكرات عبد الكريم الناقصة ومضى لا يعرف له هدفاً. وفي جادة النصر العريضة التي اتجهت نحو الأفق بأنوارها المتلألئة، كان ثمة اشارة تقود نحو التلال تدل على دار المتعة، فتوقف عندها يفكر في الاحتمال الثالث لوجود أبيه.

الفصل الثالث

ـ ١

جاء الحزن دافعاً لجواد كي يستمر في البحث عن الغائب. في تلك اللحظات لم يكن يعرف الى أين يتوجه، وكان الأصيل مطعّماً بالحركة وقد غطت سطح الحديقة الكبير التي توسطت تقاطع شوارع عريضة وممتدة. داخله احساس بالضياع، لكنه تذكر الجوهري فعمل على التفكير من جديد في بداية ما.

راقب جواد المساحة الهائلة التي تمددت الحديقة عليها تسوّرها شجيرات الغار المقلّمة وقد اكتست الورقات لوناً برونزياً محروقاً، راقب كل شيء فوجد الشجيرات حارساً متشدداً يحدّ من طوفان البشر الذين كانوا يتقاطرون إلى الحديقة، ثم يطوفون بصمت وهدوء حول شجرة هرمة لم يعرف لها من قبل اسماً أو وصفاً. شعر جواد وكأن ثمة اجتماعاً خطيراً سيعقد بعد قليل.

كانت الشجرة تسمو بأغصانها المورقة كجني عملاق يقف دون حراك في مركز الأرض التي تعرج سطحها عبر ارتفاعات وانخفاضات توحي مع البشر الذين يقفون فوقها أنها بحر

متلاطم الأمواج. وسمع جواد الذي دفعه الفضول فاجتاز خط الحراسة، تهاليل تخالطها التعاويذ، وبدت الوشوشات وكأنها تخرج من فم الشخص الى اذنه هو دون غيره، كأن الحديقة تحولت إلى مختبر صوتي تتحول فيه الموجات من العيون الشاخصة إلى الشجرة التي لم يكن لتهتز لها ورقة.

مئات، بل قد يكون العدد بلغ الآلاف، من رجال ونساء، في سن الشباب أو مقبلين على هرم مبكر، سافري الوجوه أو متسترين خجلاً أو رهبة. الجميع يهتف بتوسل، يطوفون بالشجرة التي ظهر الوشم المنتشر على جذعها الهائل واضحاً، تشكله كتابات من أسماء مؤنثة ومذكرة أو مختلطة وحروف متناثرة وتواريخ حديثة أو تعود إلى عشرات من السنين انقضت، كأن الوشم نخر في خشب طوّع أثر الاظافر أو المسامير عليه فما عاد أحد يميز تشقق القشور الفلينية من توسلات الذين كتبوا بحرقة على جذع الشجرة.

لم يعد جواد معرضاً للدهشة بعد أن تتابعت عليه في المدينة أحداث وأحداث، لكنه في تلك اللحظات التي كان أزيز البشر يغلفها بغطاء من الجهل الكامل بما ينطقون به، دفعه الفضول للتعرف إلى الاحتفال الذي كان يتحول الى طقس كلما انتظمت حلقات الدوائر وهي تتحرك حول الشجرة التي خيّل الى جواد أنها (جوزة) عتيقة طعّمت بـ (زيتونة) أعتق. وبات الفضول عند جواد مع تتابع الزمن الغريب احساساً بأنه يشارك أولئك البشر طقسهم الذي لم يعرف عنه بعد شيئاً.

بعد قليل، وهذا ما يجب أن يحدث دوماً لجواد، سيعلم أنه عيد فصلي يجتمع فيه خصيان المدينة وعاقراتها. وسيعرف أن

الأرض المعشوشبة كانت مستنقعاً من مياه راكدة لا يعرف أحد مصدراً لها، وأن تلك البقعة المهجورة من المدينة قد عبرتها ذات يوم سيدة للخصب، قد تكون أسمهان نفسها، فجفت الأرض وتبخرت المياه بفعل حرارة الجسد الملتهب للسيدة، وتحول المستنقع الى أرض خصبة، فشبت شجرة كانت فيه غرسة لا تثمر فبات الثمر على الأغصان رقىً في أجياد النسوة وأعناق الرجال على حد سواء. وتركت الحكومات المتعاقبة تلك الأرض ملكاً للناس بعد أن تنازعت ملكيتها أسر كبرى لم يكتب لأحداها الانتصار. ومع الأيام حجّ الى الحديقة الكبرى كل من يتوق الى نسل يأتي منه، وتزايد عدد الخصيان الذين قيل إن أسباباً كثيرة قد أدت إلى تحديد الرجولة عندهم، وكما أن الرعب كان من أبرز تلك الأسباب فإن عقم النساء كان لمثلها أيضاً، وبات الابتهال ظاهرة تتكرر دوماً وتتكرس في الفصول الأربعة طقساً يصبح له أهمية الأعياد المألوفة، فلا يعيرها الناس أي اهتمام، فتمضي الاحتفالات التي تمتد عادة منذ توسط الشمس صفحة السماء وحتى وقت متأخر من الليل، إذ ينير وجوه المحتفلين فيه ضوء القمر الذي يمنح الشجاعة للمبتهلين أن يعلنوا صراحة عن رغباتهم اليائسة في استعادة القدرة على التناسل ولربما تبادل الحب نفسه.

وفي العتمة المكشوفة، كانت تحدث أشياء غريبة أغضى جواد من بصره أحياناً وهي تمر أمامه. يخلع رجل سرواله ليحاول أن يضم جذع الشجرة بين فخذيه، فلا يقدر أن يحقق التحامه لضخامته، فينتحب ليعاود الابتهال من جديد بكلمات تختلط فيها التمائم الدينية بجمل من الارامية بمصطلحات

أخرى لم يعرف لها جواد معنى أصلاً. وتكشف صبية عن بطنها لتملأ كفها بالتراب المختلط بالعشب، وتحاول إدخاله في سرتها أو لربما فرجها، فلا يلتصق التراب فتصرخ كذئبة جائعة وكأن محاولة الإخصاب كانت فاشلة. وتتلاصق امرأتان في حالة وجدٍ وجهاً لوجه وتتأرجحان كغائبتين عن الوعي، ويمرغ كهل وجهه ثم وسطه بالأرض تتعاقب ركعاته مع هتافه «هوو.. هوو.. هوو». وجواد في وسط الاحتفال يدور في الحديقة بين البشر وقد تملكته الآن الدهشة من جديد.

لم يكن للطقس المنعقد في الحديقة كهنة أو قادة يهيجون فيه عواطف البشر، فباتت الشجرة الصامتة وكأنها تستنطق سرائر النفوس الملتاعة وقد عجنتها اللهفة وخبزتها. وشخص جواد بعينيه الى الشجرة التي كان ثمة نور يشع من كثافة أغصانها فجأة ليختفي كومض آسر، ويهتف في سره: «ليتك تدليني على عبد الكريم».

ثم يتنبه الى نفسه ليجدها وقعت في السحر كما فعل الآخرون، فحمل أغراضه وانسحب بعيداً عن حرس الحديقة، ولكنه لم يستطع ان يغادر المكان دون أن يتابع الطقوس الى لحظاتها الأخيرة، إذ وقع عدد من الناس على الأرض وقد أغمي عليه، وغادر عدد آخر وقد طأطأت الرؤوس فيهم يأساً من أمل لم يتحقق.

٢ ـ

أشار السهم الأخضر الى الطريق المؤدية إلى المحطة التي جاء منها. وكان ثمة سهم آخر قد رسم مع سهام أخرى داخل

لوحة تدل على الآثار في المدينة وضواحيها، يشير إلى الاتجاه الذي تقع فيه دار المتعة. ولن يفكر جواد بعد ذلك أنه كان في تلك اللحظات يعاني من رغبة في التعرف على تلك الدار أو بالأحرى على سيدتها أو الست أو أسمهان. لقد خيل إليه، بالرغم من عدم قدرته على تصور أبيه قد أختفى في مكان كدار المتعة، أن المدينة لن تكتمل صورتها إلاّ بزيارة القصر.

كان جواد في رحلات الغربة الطويلة، قد تعرف إلى أماكن شبيهة بدار المتعة تلك، ولكن الروايات المختلفة والاشارات الصريحة أو المبطنة حولها، والتي سمع طرفاً منها في طفولته فلم يدرك لها معنى آنذاك، فجّرت في حواسه الميل إلى التجريب والتعرف الى المكان بنفسه. ومثل هذا الميل الذي تعلم مثله في أسفاره ودراساته المختلفة، كان السحر الذي لا يقاوم وهو ينمو بداخله لحظة فلحظة.

وها هو يقف وحيداً بين سهمين أو اتجاهين، يفكر في العودة إلى أمه التي تنتظر خبراً يقطع عندها الشك باليقين، وهو كذلك يفكر في وجوب المتابعة بحثاً. لن ينكر أنه نسي شكل الغائب، ولكنه يعرف عنه كل التفاصيل عندما ينظر إلى وجهه في المرآة أو في لوح زجاج. لقد مرت بجواد، وتلك من أمانة هذه الحكاية الطويلة، لحظات شعر فيها بوهم البحث عن أبيه، إلاّ أن اليوميات التي يحملها الآن تنفي ذلك الوهم.

قال جواد وهو يقطع الشارع: «في مثل هذه المدينة يتساوى الوهم أو الخيال بالحقيقة».

كان جواد منذ قليل وهو يتابع بعينيه المتعبتين مجذوباً يزبد

ويرغي بالوعيد للفاسقين، قد تعرض لعيون نسوة محجبات مررن بقربه فالتهمته دون حياء، فهرع مسرعاً بخطواته. وكان يفكر في أن يكتب اليوميات هو أيضاً إذا ما استمر في المدينة فترة أطول. كانت خطوات جواد في المنتصرة الكبرى محاطة بعناصر مفاجئة لا حدود لها، وتلك كانت ميزة للمدينة قرر ألّا ينساها. وكان للمدينة أكثر من مركز يتوسط عمائرها ونشاطاتها، كأنما هي تجمع لمدن صغرى أو انها مدينة كبرى ضاقت باتساعها فانقسمت على نفسها. وقف جواد على طرف ساحة تجيش نفسه بعذابات القرار الذي عليه أن يتخذه كما النافورة التي يخرج ماؤها بقوة ليسقط على سطح البركة المستديرة. وجاءه متسول يقف على طرفيه طفلان ككفتي ميزان يتطلعان إليه برجاء يمزق القلب. كان المتسول كهلاً تحمل كلماته عذوبة موسيقية، فبات التناقض بين جلال الأبنية المهيبة المحيطة بالساحة وبين بؤس التسول، بات هذا التناقض شريطاً يعود إلى الوراء، يذكره بعشرات الأماكن في الغربة التي تناقلته من حالات النشوة الى أوضاع البؤس الى لحظات حياد ضائعة، فكان جواد في لحظاته الراهنة لا يدرك ما يدور حوله وقد استلبته الغربة في تطابقها مع الواقع، وكان المتسول مع طفليه وهم يقفزون في حركات لولبية كلاعبي السيرك مبتعدين عنه، يجذبون بصر جواد الذي سيتفقد الكيس والمحفظة فلا يجدهما حيث وضعهما بقربه. وكان اللصوص قد اختفوا تماماً في زحمة الساحة التي بدأت تعج بالناس وهم يستقبلون الشمس الدافئة.

وسيطير صواب جواد، فاليوميات التي كان الكيس يضمّها اختفت، ولم يبق من أثر للجوهري أو لأبيه كأنما التاريخ نفسه

يضيع. صرخ منادياً.. راجياً، حاول أن يركض ولكنه جوبه برجلين يستوقفانه. كان الأول يخبىء عصا في جيب معطفه الواسع، وبادره الثاني بالسؤال عن بطاقته الشخصية. وقبل أن يهم جواد برواية ما حدث له مع المتسول الذي اختفى مع أغراضه إذ كانت أوراقه في الحقيبة، كان الأول الذي لم يطل تفحصه يقول لرفيقه:

«لا داعي، فهو المطلوب».

وأعقب بشيء من الثقة التي منحها لنفسه:

«يحمل الصفات التي نبحث عنها».

ثم باعجاب متحفظ:

«حقاً.. أنت جميل».

كانت التجارب قد علمته أن يستسلم ثم يمنح نفسه وقتاً ليفكر، فمضى مع الرجلين باتجاه سيارة لا تشي بأية علامة على انتمائها لجهة ما. وكأنما الدعوة المباغتة له هذه، قد أنقذته من حيرة القرار الذي كان عليه أن يتخذه، ولكنها لم تمنعه من التفكير في اليوميات التي اختفت فسببت له ضياعاً يفوق الألم.

ـ ٣ ـ

يا إلهي.. ما أكثر الرجال الرسميين من ذوي الملابس العسكرية والرتب المتباينة الذين يمكن لك أن تقابلهم في طريقك، أو في مكاتبهم المكيفة أو على مداخل الأمكنة والممرات المؤدية الى أماكن مجهولة أو غير معلن عن طبيعتها وبعد مسافتها عن البشر والضوء والضجة.

هكذا كان جواد على ما يبدو يحادث نفسه وهو يتأمل ثلة من الجنود كانت تحرس المدخل الطويل الذي لم تظهر له نهاية. ولم يكن أحد يحرك رمش عينه وهو يدلف في العتمة محاطاً بمرافقيه. وكانت العتمة تزداد كثافة مع تقدم الخطوات، ولكنها ظلت غير كافية لسحق الضوء اللازم للمعاينة أو المراقبة.

هذه المنتصرة الكبرى.. تنتظرك فيها المفاجآت كما لم يحدث لك في أية بقعة أخرى من بقع العالم القديم أو الجديد!

هكذا كان جواد يردد لنفسه مبتسماً، ولا بد أنه جعل يتصور تلك الخوذ الحديدية الملساء ورؤوس الجنود الثابتة تعتمدها لتبدو لرجل مدني كجواد وكأنها أعضاء ذكرية انتصبت أو تهيجت في محاولة فاشلة للانقضاض على الفريسة القادمة من الخارج.

خطوة مطمئنة تتبعها خطوة ثابتة، كأن ما كان يحدث له طوال الأيام السابقة أعّد لاستقبال ما يمكن أن يحصل له بهدوء وطمأنينة. ولم يفكر جواد لحظة في أن يتقدم بشكوى ضد المتسول السارق، ولكن ما كان يقلقه هو الطريقة التي يمكن له فيها أن يثبت شخصيته، لقد استهان في هذه المدينة بأمور لم يكن ليقع في خطيئة مثلها خلال غربته عن الوطن، واهماله لأوراقه الثبوتية كان يدل على أنه لم يحسن التصرف. كانت خطواته واثقة بينما أعماقه تجيش بالتخوف مما يمكن أن يحدث له بعد قليل، فالايغال في الممر الطويل الذي يشبه السرداب يشير إلى قدوم مجهول له حسابه، والمجهول يثير فيه روح المغامرة التي طالما عاشها. وهكذا غمره شعور بفيض من رضا بالواقع، فهو سيمتحن تجاربه التي علمته في الغربة فظن أنه

يقترب من الحكمة، سيمتحنها بتجارب المنتصرة الكبرى التي كشفت وقد تكشف عن الخلل الذي يقوم في داخله ان ما يجري له لا يصدق، ولكنه بات يؤمن بضرورته، ويحاول أن يقبله على أنه برنامج محكم الصنع لاختبار قدرته على الاستمرار في الأخذ والتعلم كما كان عبد الكريم نفسه يتباهى به أمام الأهل والأصدقاء.

وهو يهبط درجاً ضيقاً تكشف نخر بلاطه ببخل شديد شمعة كهربائية تراكم الهباب عليها، تذكر زيارته إلى قلعة أثرية في قرية ألمانية. كان مع صديقة فرنسية يعيدان اكتشاف الماضي بحثاً عن مستقبل جديد. آنذاك لم يستطع أن يصل الى نشوة الدهشة التي حصلت عليها صديقته من قراءة الخطوط التي حفرت بالأظافر على الحجر الكلسي في قبو للتعذيب، فقد كانت اللغة القديمة التي كتبت بها الشكوى وقرأتها الصديقة بطلاقة لخبرتها، مثار اضطرابه آنذاك، فاتهمته بالعاطفية وبأنه لم يتخلص بعد من مرضه الشرقي، وانتهت العلاقة بعد ذلك قبل أن تصبح حباً. وها هو من جديد يحس بغثيان المرض الشرقي وهو يتذكر على الدرج الضيق صديقه الوحيد في المدينة، الجوهري الذي غاب وضاع أثره مع سرقة متسول ضال. كانت اليوميات المفقودة، وصفحات عبد الكريم البعيدة الآن ورغبته في معرفةٍ أكبر بأبيه، سبباً في استقبال الزنزانة التي ظهرت فجأة وكأنها القدر الذي لافكاك منه.

ترى هل تصبح الحكاية عجيبة إذا ما استقر الوصف على أن الرجل دخل زنزانته التي بدت كأنها قطعة من فيلم سينمائي عن القرون الوسطى، وأنه لم يفاجأ بأي شيء ثابت أو متحرك

في ذلك الجحر الرطب. لقد دخل جواد من فتحة الباب الذي يسدّه لوح حديدي ثقيل، وكأنه يلبي دعوة سابقة. لم يكن قد سئل بعد عن هويته، كما أن اسمه لم يقيد في سجل، فالمكان ليس سجناً اذن، وليس فندقاً، فهو يبدو كأنه مكان أليف.

دخل جواد الزنزانة المظلمة إلّا من مصباح يلتصق بالسقف فلا ينير سوى نفسه، وكان مسحوراً لم يتبين بعد جدية الموقف من هزله. وستتعود عيناه العتمة بعد لحظات، فبات وهو يفتش في الزوايا وكأنه يرى كل شيء. كان للوهلة الأولى متوجساً، لكن صوتاً آدمياً انبعث من ركن فدلّ على كائن يتكور على نفسه، وأحس جواد أن الوقت قد حان ليسأل شخصاً ما: «ماذا يحدث لي حقاً؟» ولكنه فضل أن ينطق بسؤال آخر:
«هل هذا سجن حقيقي؟».

فتردد في المكان صدى ضحكة جافة قصيرة كأن الجدران صبت من نحاس. كانت الحنجرة الآدمية التي أطلقت الضحكة قد نسيت كيف يكون إنتاج الأصوات البشرية. ردد جواد لنفسه بعد هنيهة:
«لا بد أنه سجن حقيقي، بل هو سجن عريق دون جدال».

وارتفعت ثلاثة فرش ضيقة عن البلاط الخشن بأصابع معدودات، وكأنها تشير إلى سجين آخر لا بد أنه يختبيء الآن في زاوية ما، أو أنه تحول إلى وطواط تتعلق مخالبه بنتوء خفي، إلّا أن الكائن صاحب الضحكة الساخرة أو المقهورة أفرج عن وجهه، وتقدم بخفة تناسب هزاله، وهتف ببطء يشبه وقار الحكماء:
«لا تنتظر قدوم الثالث».

ثم بصوت خفيض وكأنه يقرر حدثاً خطيراً:
«رحل ثالثنا البارحة، ومع أنه لم يمض هنا سوى أيام أو لربما ساعات فقد رحل».

فتفاعل جواد بتلك البشرى وكأنها اشارة الى أن بقاءه في تلك الزنزانة لن يطول، فقال:
«أنا جواد.. اسمي جواد».

فأجابه الرجل بحسرة تنم عن وحشة قاسية:
«وأنا اللاشيء يا جواد».

وكما قال السجين الذي تجمعت شعيرات ذقنه في حلقات متفرقة على سطح وجهه الضامر لكثرة ما كان يلعب بها مفكراً ومتأملاً، فانه لا بد قد أمضى أكثر من عشر سنوات في الزنزانة نفسها:
«لم أعد أثق بذاكرتي، فأنا دخلت إلى هنا منذ استلام المستمسك إدارة الحكم».

وتساءل بعد لحظات:
«هل ما زال اسمه المستمسك؟».

وجعل يتمتم بهستيريا مفاجئة وهو يزرع المكان بخطواته المتعرجة:
«القحبة هي التي جاءت به، ولا بد أنها التي اخترعت لقبه».

دلّه على فراشه وكأنه صاحب نزل حقيقي، ثم جلس قبالته على الفراش الذي أخذ شكل جسده. ولم يشأ جواد ان يستوضح هذيان الرجل، فقد ساوره شعور بأن ما يُجري في

المدينة لا يعنيه في شيء لأنه ما عاد يفهم شـيئاً، ومن طرف آخر دفعه الفضول الى معرفة سر ما يقول السجين ليدرك ما يدور في المدينة من أشياء عصيّة على فهمه. قال جواد:
«لا بد أنك هنا لأسباب لها علاقة بما يجري..».

كان السجين مترهلاً بالرغم من هزاله، فبدا مع تجاهله لملاحظة جواد وكأنه فخور بأحكامه المطلقة. وفجأة بات يتحرك بين الجدران الأربعة كجندي مكلف بمهمة:
«هكذا أقيس الزمن بقطع المسافات في دار العتمة هذه».

وأكمل الرجل وهو يتابع خطواته المنتظمة:
«بشيء من المران تكتشف علاقات لا حصر لها بين الزمن والجدران والنسيان».

قال الرجل بصوت أكثر ثقة:
«لو أننا زحزحنا الجدار المقابل للباب هذا لبات الباب أبعد، ولكن المسافة بين الجدارين الآخرين ستظل ثابتة».

وهكذا استمر حديثه تخالطه ملاحظات عابرة عن تاريخه. وكانت أسمهان هي الأنثى الوحيدة التي يأتي على ذكرها بين فكرة وأخرى وشخص وملاحظة عنه. وعندما دعاه للنوم وكأن توقيته المحلي يؤذن بذلك، كان يقول لجواد:
«لا تحلم بالخروج يا صديقي من هنا، وهكذا نستطيع الاستغراق في النوم بشكل يـليق بأحلامك الجميلة».

- ٤ ———

وتقتضي الأمانة وصف حالة جواد بعد ليلة من الاستلقاء

على فراش صنع من نشارة الخشب التي تجتذب الجرذان اذا ما اختلطت بالعرق، فقد أصبح بائساً فقد القدرة على التفاؤل، وكأن تجربة التوسل الذي يعتمر قلوب الخصيان والعاقرات دون فائدة قد أصابته بالعدوى. وزاده الأمر حيرة حين اعترف السجين الذي يصّر على أن ينادى باللاشيء، بأنه كان مسؤولاً كبيراً، فما الذي وضعه في عزلة معه سوى أن ذنبه يوازي جرم السجين؟

همس اللاشيء باستحياء: «كنت مديراً للاعلام، وأنا الآن لا أعلم ما يدور حولي». وإذ يعلم السجين أن زميله غريب في المدينة لا يمكن أن يعطيه أي شيء، صرخ يائساً:
«هو ذا جزء من تعذيبي كي لا أعرف أي شيء».

وكان الحاكم السابق يقربه إليه في مجالسه، فيسمح له باجتلاء طلعته البهية مرة في الشهر، إذا سمح له الوقت، وكان يعطيه التعليمات والتوجيهات والملاحظات مباشرة في ذاك اللقاء الدوري، كما ويسمح له بتناول كأس من عصير الكريفون في حضرته ويداعبه قائلاً: «هذا شراب يذيب الشحوم تلك التي تعيق حركة التعاطف مع جسد المرأة».

وكان مدير الاعلام يستشعر الحسد الذي يأكل كل قلب الحاشية التي كانت تصبو إلى مجرد ابتسامة من الحاكم أو أمر مباشر يلقيه على واحد منهم.

«كنت أتطلع إلى اليوم الذي اقترب فيه أكثر منه، فتكون لي غرفة في المبنى الذي يقيم فيه الحاكم، ولكن الأحداث تسارعت».

هكذا كان السجين يقول، بينما جواد يقيس المسافة بين الجدران وكأنه أحسّ بحاجة إلى ضبط الزمن. وسينصح السجين بتناول الافطار الذي قدم لهما فالامساك عنه يعني التجويع لفترة، فاضطر جواد إلى شرب السائل الغامق بصعوبة بينما السجين يكمل حديثه عن الماضي:

«من كان يعلم أن لعبة الانتخابات قاتلة، خانه أقرب الناس إليه. وبالرغم من خبرة الحاكم في النساء. لم يكن ليفوقه فيها أحد، فقد استطاعت أسمهان ان تقلب الموازين كلها».

بعد لحظات كان يردد بأسى:
«من يركن إلى امرأة! المرأة التي وقفت الى جانبنا خانته».

وهتف بخشونة وكأنه يستعيد قواه التي استهلكتها العتمة والرطوبة والعزلة:
«إذا ما خرجت من هذا المكان فسأخرج روحها من جسدها النجس».
ساد الصمت المعزول عن أية ضجة أو صوت يأتي من الخارج. وكان السجين الذي تحولت أظافره الى سكاكين لكنها مثلومة، يحفر في الحائط كقط يائس يحاول أن يبحث عن خلاص من فخ. هل يمكن لعبد الكريم أن يكون منسياً في مكان كهذا؟ تساءل جواد لنفسه وهو يستمع الى هـذيان رفيق الزنزانة.

«سيعود وينتقم لنفسه ولي. أعلم انه سيعود، فمثله لا يعرف اليأس أو الفشل».

وكان جواد ينظر إليه بدهشة، ويستمع الى غياب الحقيقة

في هلوسته بتعجب، فالحاكم لن يعود، والورثة يتكاثرون بالآلاف يطالبون بحقوقهم من الميراث الذي لم تبتّ المحاكم الدولية بعد في شأنه.

بعد ألف خطوة وخطوة كان يعدها جواد على السجين، حدث شيء غريب، فقد توقف اللاشيء عن الحركة وجعل ينظر بريبة الى جواد الذي استنفر حواسه لمواجهة الموقف الذي قد ينجم عن ذلك التوتر الذي شعّت به العينان. هتف السجين:
«لا بد أنك منهم».

فلم يفهم جواد معنى القول، أو انه التقط مغزاه فتجاوزه. صرخ السجين:
«أعلم أنك هنا كي تتجسس عليّ».

وبشيء من الضعف الطارىء على حدته:
«إعلم أيها السيد أني لن أخون الحاكم».

ويهمس في اذن جواد ترتعش الكلمات في فمه:
«لن أكون من أتباع المستمسك، ولينتظرني الخازوق».

وسيظل جواد صامتاً كعادته، فلم يبد أي انفعال ولا أعطى ردّ فعل على كل ما حدث. وسيبقى السكون مخيماً إلى أن تهدأ نفس السجين تماماً، وشرع يتمتم وكأنه يردد أقاويل نسبت إليه ظلماً:
«لا يمكن لمثلك أن يكون جاسوساً. لم أر رجولة جميلة كهذه من قبل».

ويصحح قوله وكأنه وقع في خطأ يحاسب عليه:

«الحاكم وحده كان أجمل الرجال فعشقته النساء، وكذلك الرجال».

وجاء التوقيت، فكانت الخطوات كوقع دقات الساعة، لا يعرف جواد إن كانت تحسب ما فات من وقت قصير عليه في هذا السجن، أم انها تؤكد على أن الزمن القادم طويل ولا حساب له. كان الرجل مهزوماً، فتجلت سريرته صافية. لم أنل شهادة في أية مدرسة. تعلمت القراءة والكتابة في الكتّاب، وعلمني الحاكم ما ينقصني من معرفة، بل سأعترف بأنه كان مصدر الحكمة لي. كنت فقيراً، بل سأعترف بأني من أسرة معدمة، فوالدي حارس المقبرة كان يستأثر بالطعام الذي يوزع على أرواح الأموات لنفسه ولزوجاته الأربع،وكنا نحن أطفاله الأربعة عشر نبحث عن الطعام في القمامة. أية مدينة هذه! فيها من فحولة الرجال الجنسية ما ينسيهم اطعام أطفالهم أو تعليمهم. وكنت أركض في سوق الهال بعضلاتي التي نمت بسحر الفضلات حين اختارني كواحد من حرس القصر، فلم أنس فضله عليّ. يوماً فيوماً كنت أقترب منه، وأقسم أني أموت من أجله إذا لزم الأمر. ومن حارس في فرقة الحماية الى داعية لأفكاره السامية في الأسواق والساحات، ثم الى مسؤول عن الاعلام. وهكذا كنت أتعلم، وكنت أعلّم الآخرين أيضاً. لقد أصبحت بالجهد والتعب والاخلاص مشرفاً على رسائل جامعية تبحث في فلسفة الحكم.

تحسر السجين وهو يقول:
«لو أنهم منحوني الورق والقلم كنت كتبت تاريخ حياة حاكم عظيم».

كان لا بد لي يا صديقي من الامساك بكل الأمور والحقائق والوقائع.

هل تفهم بقضايا الاعلام؟

لست مجبراً على إدراك مهمة رجل مثلي يؤمن بضرورة قناعة الناس بحاكمهم. مهمة صعبة وشاقة ولكنها هي التاريخ نفسه، وبدونها لا يمكن للتاريخ أن يحتلّ حيزاً من أوراق الكتب والصحائف. كان عليك يا صديقي أن تشرح للناس ما يدور في ذهنه الفسيح النيّر المضيء المحب المتعالي العسير المنال السهل الادراك المتتابع كنهر غزير المحب للمنتصرة الكبرى ولكل المدن الصغرى والأقوام والطوائف والملل والمهن والأعمال والوديان والتلال والجبال الصانع للأقدار الملهم للأفكار، شاعل جذوة الخيال، ومدرب الفنانين على الابتكار، مروض المتمردين على الأخلاق والتقاليد، ومرهب الأعداء، المنتصر على الانتصار، مذلّ الانكسار، وحده القادر على ما لا يقدر عليه المقتدرون، والعائد إذا طال الغياب، والغائب لسبب قدره هو حده، فلا أنا قادر على حساب ما لا حسبان له كما لا يمكن لمواطن يؤمن به الاّ أن ينتظره في غيابه مهما طال...».

ولقد جرى ترتيل حديث السجين بينما كان مستلقياً على ظهره كأنما كان يقرأ نقاط الرطوبة المتجمعة على السقف. وستتحول تراتيله الى همهمات تتشابك بغمغمة، فاستيقظت ذاكرة جواد وهو يستعرض ما كتبه الجوهري على هامش صفحات من يومياته عن ترويج رجال الحاكم لنوع من المخدرات أطلقوا عليه اسم «المفرح»، وهو مسحوق خفيف ناصع اللون ما أن يشمّه الإنسان حتى ينطلق في سرور لا

حدود له بالحديث عن أي أمر باسهاب، وكأنما المفرح يحل عقدة اللسان أو أنه يساعد على تأليف الكلام. وكان الخجول يلجأ اليه إذا أراد أن يفصح عن الذي تغلي به أعماقه، بينما الجائع يصبر على جوعه لكثرة ما يخرج من فمه الكلام. وكثيراً ما كان جيل الشباب يتهافت على شرائه، فإذا ما عجز عن تأمين المال عمد الى السرقة، فانتشرت السرقات الصغيرة التي غفرها القانون أو انه تغاضى عنها لتفاهتها. إلّا أن قوة المكافحة بالرغم من ذلك نشطت في تلك الأيام، فهي تغفر لشمام المفرح إذا كان لسانه ينطلق في كلام غير بذيء، وكان الكلام يصبح بذيئاً يستحق العقاب إذا ما كان يحمل نيّات غير بريئة تجاه الحاكم وأهله ورجاله. وقد قيل، وفق ما جاء في حواشي الجوهري، إنّ طبقة من الأعوان أثرت من تجارة المفرح وترويجه، كما وأن صناعة الدواء الوطني قد تطورت، بينما هي تتستر وراء مهامها العلاجية، فتقوم بتحضير أصناف مختلفة من المفرح تحت أسماء وعبوات لا حصر لها ولا مثيل لأشكالها المغرية. وكانت تلك العقاقير، بالرغم من تحريم القوانين الأساسية لها، يتداولها عدد من الصيادلة وكثير من الوسطاء الذين بات لزيهم المبهج علامة تدل عليهم وهم يرتدون الملابس فاقعة الألوان ويقفون عند مفترق الطرق العريضة وعلى أطراف الساحات الكبرى وقرب مداخل الحارات القديمة، فكان الباحث عن المفرح يشعر بالغبن والظلم إذا ما تحسس جيوبه فوجدها خاوية فلا يكون أمامه سوى السرقة التي لن تكون مؤذية إذا ما توقفت عند سدّ حاجة الباحث لثمن المفرح الذي كان منطقياً دون مغالاة. وعندما ارتفعت الأسعار في موجة غلاء شملت قيمة المفرح وغيره، بات العنف مرافقاً

للسرقات المشروعة سابقاً، فاشتدت قبضة أجهزة الحماية والمكافحة، فلجأ عدد من الشمامين الى طلب الوظائف في تلك الأجهزة لحماية أنفسهم من عقاب أو ملاحقة.

وتساءل جواد بينه وبين نفسه بينما السجين يتابع ارسال الكلمات المختلطة بالإشارات الصوتية المبهمة، تساءل إن كان زميل الزنزانة واحداً من أولئك الذين أدمنوا المفرح، إلّا أن ما أثار ريبته هو استمرار تدفق الكلام عنده مع انقطاعه عنه لسنوات طويلة، فقال جواد إن الأمر يستحق منه التفكير والمحاكمة المنطقية، شريطة أن يخرج من هذا المكان قبل أن يصاب بعدوى المفرح الوهمية.

ـ ٥ ـ

حضر ضابط وديع، بدا شاباً ولكنه نحيل الوجه الشمعي وكأنه لم ير الشمس منذ زمن طويل. انتصب بأدب عند مدخل الزنزانة داعياً جواداً الى مرافقته، فتبادل النظرات مع السجين الذي هبّ من فراشه كالنمر كأنما أدرك بغريزة الوحدة الطويلة أنه سيفتقد رفيق عتمةٍ أو استماعٍ هو الأهم الآن بالنسبة لحياته المجهولة النهاية إلّا أن جواداً غمز للسجين بعينه وكأنه يؤكد له عودته القريبة، فهمد جسده المنتفض وودعه بابتسامة يائسة.

وسيمضي جواد خلف الضابط الذي كان يمشي صامتاً وكأنه يحمل مفاجأة ستتحقق فعلاً بعد قليل. وكان الممر المظلم على طول مسافته يظهر في نهايته انفراجاً في الاضاءة ما لبث أن وصلها الاثنان بخطوات ثابتة، فظن جواد أنها الباب المؤدي

الى الحرية من جديد. وفي الحقيقة فإن الغريب عن المدينة لم يكن يفكر في الحرية قدر ما كان يفكر في معنى ما يحدث له من غرائب، ولكن المفاجأة الجديدة حدثت، فقد فتح أمامه باب زنزانة أخرى أدخل فيها باشارة من الضابط الذي رجع من حيث أتى.

نظرة خاطفة كانت كافية ليدرك أنها حجرة متسعة لا تقل في أناقتها عن غرفة في فندق أوروبي يحمل نجومه الخمسة باعتزاز. في البداية ظنّ أنّ في الأمر التباساً، فالمكان لا يمكن أن يكون في سجن كهذا، وقد تكون للمدير نفسه، أو أنها للتعذيب النفسي إذ ما أن يستقر فيها السجين حتى يعاد الى المكان الأول. في الأحوال كلها قرر أن يستفيد من كل لحظة تمر فيه هنا، وكشفت له الخزانة الخشبية عن ملابس حريرية تناسب مقاسه وكذلك أخرى قطنية نظيفة، وكانت طاولة المكتب الذي رصت عليها مجموعة من الأوراق والأقلام كأنما أعدت لكتابة غزيرة، وبرزت بطاقة من المقوى القماشي كتبت عليها جملة ترحيب شخصية به موقعة من إدارة المدينة. وكان السرير بغطائه الوردي يخلق شعوراً بالراحة مع اللون الأبيض للجدران. وهو يتأمل بطاقة الترحيب ويفكر، أحس بأنه لا يفهم شيئاً مما يحدث له. وكان جهاز التحكم عن بعد قد وضع على مقعد مخملي يدعوه لاستخدام جهاز التلفزيون الذي لم يشاهد من قبل شاشة كبيرة تماثل شاشته. وتنوعت ثمار الفاكهة في السلة. وعندما أطل على الحمام أدرك أن أمراً ما قد أعدَّ لَهُ، ولكن الماء الساخن في البانيو الزهري أفضل من التفكير في حسابات ما عادت نتائجها تعني له شيئاً. وهكذا، عندما استلقى على السرير هبطت عليه كل السنوات الماضية من حياته دفعة

واحدة، ولكن اضطراب الصور وتداخل المراحل لم يمنعاه من شعور باشفاق على السجين اللاشيء، والذي كان مسؤولاً عن الاعلام، فبات أسير الهلوسة بلا عقار المفرح العجيب.

كانت أقنية جهاز التلفزيون الملون عديدة، ولكنه سيكتشف أن واحدة منها هي التي تعمل. لم يسترد جواد طمأنينته ولكنه استعاد نظافة جسده، وكان هذا كافياً للمتعة ومتابعة الشاشة المشعة بالألوان والحيوية. ها هو المبنى الرئاسي يظهر بوضوح والكاميرا تقترب منه ببطء. قطع الى/ قاعة مذهبة السقف تتصدرها لوحة دائرية تتوسطها بقعة ضوء كالشمس ولم تكن شمساً. وكان جواد مشدوداً الى الشاشة وقد استوى في جلسته، فظهرت عينان نفاذتان اخترق سحرهما بصر جواد. قطع الى/ جسد يملأ مقعداً من مخمل أخضر. قطع الى/ ساحة كبرى ينتصب وسطها فارس على حصان وجموع حاشدة من البشر تموج كالطوفان تردد بإيقاع وجنون: «مسْ.. تَمْسك. مسْ.. تَمْسك».

قطع الى/ وجه الرجل الجالس على المقعد الأخضر، والذي تأكد جواد من أنه المستمسك نفسه يتحدث بصوت جليل وكأنه قادم من كهف رخامي تردد سطوحه الكلمات باتزان وتعاقب وكأنها البوح الآمر.

وسيتضح لجواد أن البث التلفزيوني كان مجرد شريط مسجل، فقد بدأت العناوين تتعاقب:

«الأحكام المحكمة في تعاليم سيد المنتصرة الكبرى والمدن الأخرى».

«درس في الكشف عن أعداء الشعب».

«حديث من القلب للقلب».

وكان جواد الذي استسلم جسده لراحة كاد يفقد الأمل في الوصول اليها، يقاوم النعاس فيغفو ليصحو بعد لحظة، يقاوم عينيه المغمضتين فلا يقدر. بعد فترة طويلة صحا جواد من نومه ليجد عناوين جديدة لشريط جديد.

«الأحكام المحكمة في تعاليم ‹سيد المنتصرة الكبرى والمدن الأخرى›».

«درس في بناء إنسان الغد».

فعلم جواد أن البثّ المنتظم يقتصر على دروس المستمسك الذي كان وجهه وهو يتحدث يتمازج مع صور للحشود المهللة والطبيعة الجميلة والشوارع العريضة والساحات المزينـة بالتماثيل والبرك ذات النوافير المتراقصة. كانت أشرطة متقنة الصنع ولكنه ما زال مرهقاً مضطرب النفس لا يستطيع أن يتابع بإخلاص أحداثها.

وسيدرك جواد أنه أحيط بمثل هذه الرعاية الاستثنائية كي يستطيع أن يستوعب تلك الدروس التعليمية. وفي تعليق على واحد من الدروس جاء أن ديموقراطية المستمسك تتحقق في أن تعاليمه تأتي الى الناس دون أن تجبرهم على المجيء إليه، ففهم جواد أنه مكلف بالتعرف على تفكير المستمسك، وأن الأوراق البيضاء والأقلام المعدة على المكتب الخشبي الأنيق، قد وضعت كي يكتب كمراسل صحفي عالمي انطباعاته عن المستمسك، فتساءل لنفسه إن كان يجوز له أن يقبل دور المراسل كي يفوز بحريته.

ويصمت التلفزيون، فتكون العزلة مريحة فيتذكر أيام الغربة، ويستعرض أيام المتعة التي اكتسبها من تنوع الأيام والمعرفة التي كان يسعى اليها دوماً. لقد حاول خلال يومين أن يكتب تعليقات على الدروس العشرة التي شاهدها مرات ومرات، وتجرأ في لحظة ضعف أن يثني على تلك الدروس، ولكنه ما لبث أن مزق ما كتب. كانت يوميات الجوهري الضائعة صادقة ولا يمكن لها أن تغيب عن ذهنه. وانكب على الأوراق يكتب أفكاراً متناثرة ممزقة حائرة. بالفرنسية سجل رأيه في التعالي الذي يصيب بعضاً من الناس فيظنونه الهاماً يجيز لهم توجيه الآخرين. وبالانكليزية كتب عن القول الذي ينبع من فخامة اللغة دون أية مطابقة مـع المعنى فيصبح القـول هباء. وبالألمانية عبر عن احساسه المعادي تجاه أي متحدث عن العدالة والانضباط للقانون وهو لا يشبع في الناس شيئاً منهما. وباليونانية كتب عن المنطق الذي تفتقد إليه البرودة في التعبير عن الصدق. ثم أعاد قراءة ما كتب فمزق كل الأوراق وجلس على المقعد مفكراً، ثم تمدد في البانيو متأملاً، ثم قرر أن يحرق ما كتب، فلم يجد سوى المرحاض مكانا لاشعال حريق، ثم قضى وقتاً في حكّ آثار الحريق على البورسلان بأظافره التي تكسرت. وقد شعر أنه قد يستجوب لما فعله، فعاد الى الأوراق البيضاء ليكتشف أنها مرقومة، فعلم أنه وقع في الفخ لأنه سيسأل دون ريب عن الأوراق المفقودة. ولم تنفع معه كل آيات الراحة التي توفرت له، فقرر أن يطلب مدير السجن ليعترف له بأنهم أخطأوا فهم وظيفته، فهو لا يمت بصلة إلى العمل الصحفي، وهو انما جاء المدينة كي يبحث عن أبيه الضائع، فهل يمكن لهم أن يجدوا له مكان عبد الكريم؟ هل يمكن لهم أن

يصدقوه في النهاية؟ قرر أن يستسلم للنوم عسى الأحلام تجد له حلاً.

- ٦

استيقظ جواد على ألم في الظهر لا يطاق. حاول أن يتحرك فأحس بتصلب في عظامه وكأنه استلقى على بلاط أو خشب رطب لاسبوع كامل. كان ظلام، فخشي أن يكون شيء قد أضرّ بعينيه، ولكنه حاول ان يتحسس فراشه الوثير فلم يكن وثيراً كما استلقى عليه. وكان الصداع الذي يحطم رأسه يزول رويداً رويداً وهو يستشعر نوراً ضعيفاً يتسلل تدريجياً إلى عينيه. بعد لحظات أدرك أنه محشور في زنزانة لا تزيد مساحتها عن رقعة قبرين متجاورين. حاول أن يتذكر شيئاً مما حدث بعد إغفائه على سريره الوردي، ولكنه لم يستطع. إنه يدرك الآن أنه انتقل من نعيم الى جحيم أو لربما الى قبر وأنه الآن في العالم الآخر..

بعد ساعات من الاستسلام الكامل للعجز والألم، علم أنه ما زال على قيد الحياة، فقد صرّ الباب الحديدي، فاستوى في جلسته بصعوبة ليتابع الضوء الباهت الذي يجيء من الخارج، وملأ رجل لم يتبين ملامحه المدخل بجسده المكتنز. جاءه صوت الرجل يعلن أن الوقت حان لقضاء الحاجة، فأدرك لحظتها أنه مبلل السروال وكأنه قضى حاجته خلال غيبوبة الأيام التي لم يعرف لها عدداً.

كان عقله يستيقظ ببطء وحذر، وكان يعمل من أجل حقيقة ضائعة. هل كانت الغرفة الفاخرة حلماً أم أن ما هو فيه الآن هو

الحلم. وتبين له بعد حين أن قصعة بلاستيكية قد تركت على الأرض الخشنة وفيها طعام لم يستطع أن يتعرف عليه، لكنه التهمه بأصابعه التي نمت أظافرها لتصبح كالسكاكين الصغيرة، فعلم أن وقتاً طويلاً قد مرّ عليه في ذلك الجحر الذي لم يكن الهواء يدخله إلاّ عبر نافذة الباب الحديدي. قال: حسناً فستفيد الأظافر في تحديد الزمن القادم وهي ترسم خطوطاً على الحائط الذي كان يمتلىء بخطوط كثيرة أخرى.

وبالرغم من كل شيء يحدث له، فإن المكان الضيّق جاء ليفرج عن الضيق الذي يعيش في صدره. لقد عاش حياة متنوعة، وكان هارباً من الماضي الذي ضيق الخناق على أسرته، وكان بعيداً عن كل ما يجري في البلاد، فلم يفعل شيئاً. كان عبد الكريم أشجع منه، فقد حفر آراءه وسخريته في الحجر وشكلها في النحاس والخشب، فبات من الصعب أن تنسى ولو وُظف لها متفذلكون يعملون على تفسير المعاني وفق ما يشاؤون. قد تكون معارفه العديدة التي اكتسبها في الغربة أفادته، ولكنها وقفت ذاهلة مثلاً أمام حقائق أوردتها سذاجة اللغة في يوميات الجوهري. فقر وظلم وعهر، بينما كان هو غارقاً في دراسة الفلسفة والتاريخ وملاحقاً لحركات الفن في المتاحف. كانت أصوات الهلوسة تتعالى هنا بينما هو يصغي إلى الموسيقى السمفونية. كان يسعى إلى الانتماء الى حضارة الإنسان المتقدم بينما يتقدمون هنا في فنون القهر. لقد عانى الحرمان في الغربة، لكنه لم يعرف عذاباً نفسياً كالذي مرّ عليه في المنتصرة الكبرى. هل يدفع الآن ثمن استمتاعه بحريته الخاصة؟ وهكذا كانت الزنزانة المحرض النافع لاعادة النظر في كل شيء؟ هذا ما سيوطن النفس عليه منذ تلك اللحظات

بالرغم من أن رائحته النتنة التي سكنت أنفه باتت مهيجة وتدفع الى الجنون وهو يحفر خطّه العاشر على حجر الحائط الضيق.

يقفز في الزنزانة عمودياً ليحرك دورته الدموية، فيتذكر وجوه نسوة ما عاد الآن بقادر على تهجئة أسمائهن، وما عاد يميز بين أجسادهن العارية. كان محاطاً بالعطف والحب، لكن قلبه لم يخفق بحب حقيقي، فهل كتبت عليه اللعنة؟ كان إذ يستمتع بقراءة قصة حب المانية أو اعترافات فرنسية عاطفية، يتمنى أن يعيش مشاعر بطلها، وعندما يعود إلى الواقع يحاول فلا يقدر، كان مشغولاً بالمعرفة أكثر مما كان باحثاً عن حب امرأة. وفي هذه العزلة القاتلة، تمنى لو وهب حياته لامرأة يقعي عند قدميها ويلف فخذيها بذراعيه ويئن متوسلاً من أجل عشق أو عطف حقيقي.

كان الدرس الرابع الذي ألقاه المستمسك يتحدث عن أهمية المكان للمواطن وعقله، وبينما يتحسس جواد جدران العلبة الحجرية التي تضغط عليه، كان يستذكر الكلمات التي تبثها الشاشة وكأنها مسامير تدق في الرأس كي لا تنسى. الجمجمة وعاء العقل تحميه، والسكن الصحي هو الذي يحمي الجسد والروح من البرد والحر والأعداء والوحشة. ويكتشف جواد فجأه أنه لم يستقر في مكان واحد يخصه أكثر من دورة طبيعية للسنة الواحدة، فهو مثلاً لم يشهد الربيع مرتين في الغرفة الواحدة. كل شيء كان يمر عليه قبل أن يمتلك الوقت الكافي كي يعتاده. الآن يتوق الى عادة ما تتحكم به، كامرأة واحدة وقضية واحدة. أمه التي ما زال يحبها لا يعرف الكثير عنها. هل

هو بحاجة إلى زمن جديد يعيد فيه اكتشاف نفسه. كل الذي مرّ عليه في المنتصرة الكبرى يجلس في كفة، وتلك اليوميات التي خلفها له الجوهري في كفة، وياللخسارة ضاعت! تكوّم في ركن الزنزانة يجهد نفسه في تذكر تفاصيل الصفحات وشكل الكلمات، وكان صوت العجوز يرن في أذنيه، وكأن اليوميات طبعت على شريط يدور ببطء ووضوح، فأغمض جواد بسعادة، فالجوهري ما زال حياً، ويبدو أنه سيظل من الأحياء في عقل جواد ما دام ذلك العقل ملكه لا يقدر أحد غيره على امتلاكه.

ـ ٧

بعد أيام قليلة من اهماله في متابعة الحفر على الحائط، ليأس شديد أصابه، أو لربما لتقلص أصابعه من الرطوبة التي كانت الأرض والسقف ترشحان بها، اقتيد جواد الى مغطس ساخن يتصاعد من سطحه بخار كثيف. ظن أنها النهاية، ولكن الماء كان معطراً والدفء يعيد تشغيل مفاصله. شهد وهو صغير جسد جدّه الهزيل يغسل بالماء الساخن والصابون المطيب، فقال لنفسه إن الموت بانتظاره أيضاً. وكان الثوب الحريري الناعم الذي دثره به حارسان، أشبه بالكفن، فقال: يا له من موت احتفالي جميل! نظر الى نفسه في المرآة المعدنية التي غشّاها البخار، فبدا لنفسه وكأنه قادم من عالم آخر أو أنه ذاهب إليه. وعندما اقتاده الحارسان اللذان لا يليق بهما ذلك اللطف في قولهما أو خطواتهما، استعذب طريقة التشييع هذه، وقال إنه أسلوب جديد في التعذيب الذي لا يمكن لخيال كاتب أن يخترع مثله. مشى باعتزاز وهو يقول لنفسه: «ليكن ما يكون».

وكانت الغرفة الواسعة وكأنها جناح في قصر ملكي تحفل بالمهابة والفخامة، يتصدرها رجل مهلّل تحمل جسده المسترخي وسادات مريحة. كان وجهه للوهلة الأولى يبدو وكأنه يحمل صفات رأس المدينة المستمسك. وسمعه يقول: «أهلاً يا جواد»، فكانت رنة الصوت لا تختلف في شيء عن صوت المستمسك الذي سكن أذنه. تقدم خطوات على السجاد الوثير، فظهرت له الغرفة كقاعة لخليفة أو أمير فيما انسابت في الجو موسيقى (قانون) غير مرئي. كان (الصبا) الذي أسلمه للنوم أيام الطفولة قد ابتعد في الذاكرة ليختفي، وها هو المقام الموسيقي يستيقظ من جديد فترتعش خلاياه من الداخل حنيناً بل ضعفاً. كان جواد قد افتقد في غربته الطويلة مثل هذا الاحساس بالطمأنينة الشرقية، وبالرغم من أنه استساغ الموسيقا الكلاسيكية والحديثة الغربية التي كان يجري وراء الاستماع إليها في المسارح وأحياناً في الكنائس أو القصور القديمة التي تحولت إلى متاحف ومراكز ثقافية، إلّا أنه ما حدث في تلك الدقائق البطيئة والخارجة عن زمنه، هو استعادة حلاوة الماضي في المنتصرة الصغرى أيام الصبا والحجاز والكار كرد والمواويل التي كانت تتردد في المقاهي الصغيرة والدور المكشوفة لسماء واضحة، وفي المنزل المتوارث عن الأجداد، فتعكس الممرات المحيطة بالحوش صداها وكأنها ترديد لبوح أو شوق يقود الى التسليم بما يدور حولهم. وهكذا استسلم جواد للجو الذي لفّه هنا، فقاده الى مخدة لينة دعاه الى الاتكاء عليها الرجل المهيب.

«لن نسألك لماذا قدمت إلى المنتصرة الكبرى، فالمدينة ترحب بزوارها. ولن يستفسر أحد منك عن سبب وجودك هنا،

ولو كنا نعرف ادعاءك بالبحث عن أبيك، فأنا شخصياً أبحث عن أبي الذي اختفى منذ نصف قرن وأعتقد أنني لن أجده فالرجال يختفون في أحضان امرأة، وأحضان المرأة يا عزيزي كالمتاهة. انصت الى القانون، أليس ساحراً، والعازف الآن سيسمع اطراءك».

قال جواد بتلقائية:
«عازف متقن».

«أحسنت يا عزيزي فأنت تجيد استخدام الكلمات، فهو لا يتوقع أكثر من صفة الاتقان لعمله، ونحن هنا في المنتصرة الكبرى نحب الاتقان ونحترمه بل ونباركه ونذهب بعيداً في تقديم المكافأة له، وبكلمة أخرى نحسن اتقان المكافأة، وها أنت تصبح منا لأنك تتقن وصف الأشياء وتسمية الأمور».

تابع الرجل المهيب وهو يشير إلى الصبية التي صبت خمراً لا بد أنه النبيذ في كأسين من نحاس، أن تبتعد، فابتعدت بردفيها الغلاميين فقال الرجل معلقاً: «صنع متقن». تابع بأنه لن يطلب منه كيف دبّر اختفاء أوراق هامة كان قد حصل عليها من العجوز صاحب النزل العتيق، ولن يتحرى عن ماضيه فماضي الإنسان لا يخلو من أخطاء، ولن يطلب منه اعادة ما كتبه على الأوراق ذات الأرقام ليتأكد من اخلاصه للمدينة. مغفور له كل شيء إذا ما أعطى كلمة صدق بأن يدوّن آراءه بما يتناسب وشرف مهنة المراسل الصحفي، والتي ستتجه دون ريب نحو التأكيد على الدور التاريخي العظيم للنظام الذي يسود الحياة هنا.

هكذا كانت الكلمات تدخل أذنيه وتلامس جلده كذبذبات تقود الى الخدر، فالرجل المهيب الذي أضفت عليه ابتسامة الود انسانية، لا يكاد جواد يعجب بها في هذه المدينة حتى ينساها ويفتقدها، فما عاد يميز الابتسامة الصادقة من مخطط الانتقام. ودعاه الرجل المستلقي بدعة قائد منتصر، كي يمد يده ليتناول من الصينية النحاسية ثمرة من كومة اختلطت فيها أنواع الفاكهة الشتوية والصيفية، فأطاع دون أن يمس شيئاً منها بشفتيه. كان مفتوناً بعد تعب، وأصبح مستسلماً بعد ارهاق. قال لنفسه إنهم مخدوعون به كمراسل عالمي فليكن الأمر كذلك، فقد يؤدي الكذب الى العثور على أبيه. ولم يعلن عن قراره خوف الاشتباه بصدقه. هتف جواد وهو يأخذ وضع الاسترخاء:

«أعتقد أن عدة أيام من التجوال في المدينة حراً ستمنحني القدرة على كتابة تقرير مفصل ومسهب وفعال.. وإيجابي أيضاً».

قال الرجل المهيب مصفقاً بترحاب:
«أحسنت يا عزيزي اتخاذ القرار».

ثم هتف بسعادة:
«بل لنقل أنك اتقنت الاختيار».

وما لبث أن صفق بيديه لمرة واحدة، فتدفق على المكان نسوة يتمايلن بعريهن على أنغام الموسيقى التي ضاع في زحمتها صوت القانون، فتساءل جواد لنفسه: «هل أنا في دار المتعة حقاً؟!».

القسم الثاني

«.... وما أستطيع قوله هو أن قلبي لم يفسد في البلاط والتزمت خطة عظيمة من شأنها أن أجرؤ على أن أكون فاضلاً. وعندما تكشفت لي رذائل القصر ابتعدت عنها ثم اقتربت منها لأكشف عنها القناع، وحملت الحقيقة حتى وصلت بها الى قوائم العرش، وهناك تكلمت لغة لم تكن مألوفة حتى ذلك الحين: لقد زلزلت أركان الملق وبثثت الرعب في العابدين والمعبود على السواء».

مونتسكيو

«رسائل فارسية»

- ١

كان المطر ذا طعم حامض، تحسسه جواد بين شفتيه وبلسانه. وبنصف اغماضة من عينيه الكليلتين استقبل نقط الماء، وفي قرارة نفسه كانت خطواته تبحث عن طريق نحو دار المتعة التي قرر زيارتها بحثاً عن عبد الكريم.

وكان الجناح الذي خصص له في فندق الامباير الهائل، كي يتفرغ فيه لكتابة الريبورتاج المطول الذي وعد بانجازه، يغري بالبقاء فيه ليل نهار، فأساليب الراحة والمتعة لم يكن لها حدود، وأي رغبة يشتهيها فُرض على الفندق تحقيقها إلّا أن المساء الأول له في جناحه لم يكتمل، فقرر الخروج بالرغم من السيول التي اجتاحت المدينة. كان جواد قد قرر أن يطرق الباب الأخير في العثور على أبيه، ومع أن السماء قد أغلقت بغيوم حملت في دكنتها قلقاً خيم على نفسه، إلّا انه استمر في خطواته، وقادته سيارة أجرة نحو دار المتعة بينما السائق العجوز كان يبدي تبرما ظهر على قسمات وجهه كأنما لا يريد أن يمضي في تلك الطريق.

إذن فدار المتعة حقيقة، وحقيقة معمارية جميلة. ترجل جواد ليقف في الفسحة البيضاوية الممتدة أمام مدخل القصر بينما ريح رطبة تهب على وجهه فتتسبب في قشعريرة لم يستطع أن يجزم إن كانت من برودة الجو أم انها تهب عليه مع خوف الفشل. تقدم خطوتين من المدخل المرصوف بحجارة نما العشب في فجوات بينها، فظهر له رجل، بل عملاق رشيق انحنى له مرحباً وهو يردد بكرم:
«أهلاً بك في دارك يا سيدي».

فمضى جواد نحو الدار.

اضطراب ورعشة، ولكن نفس جواد ستهدأ بعد قليل وهو يتأمل جوانبه الثلاثة في المرايا التي انتصبت في المدخل. توقف لحظات يعاين شكله، فبدا مختلفاً عما يمكن له أن يتخيل نفسه المضطربة كأنما المرايا صقلت ولمعت كي تظهر الرغبة في جسد الداخلين. وهكذا اكتشف لتوه أنه ما من رغبة في امرأة لديه، وهكذا تبين له أن أموراً ستحدث له داخل الدار وقد لا تكون على هواه، فيمضي قوياً في مغامرة البحث عن أبيه الى أقصى ما يمكن أن تسفر عن نتائج، فدخل عبر فتحة شقت له في المرآة الوسطى وكأنها انهدام لزج في جسد امرأة مستسلمة.

وجد نفسه في ممر يبطن جدرانه وسقفه، وأرضيته الممتدة بعيداً بدفء الصوف ونعومة الحرير، فكان للمداس عليها طعم الاستلقاء في حضن عطوف شبق. وكانت الأنوار الخفية تمنح اللون القرنفلي حرارة، فتراخت أعصابه المشدودة، وباتت رائحة ماء الزهر المنعشة تداعب حاسّة الشم عنده، ثم باتت

المداعبة خدراً يسري مع جلده ودمائه. وتحفزت مشاعره لمعرفة ما ينتظره في نهاية الممر التي لا ترى إلّا انه بالرغم من الفضول فإن خطواته لا تسرع كأنما يستعذب العبور في ممرّ الإعداد لمتعةٍ آتية.

تذكر الممرات المعتمة التي مشى فيها من قبل في الأقبية الأمنية المختلفة، ولكنه تجاهل تلك الذكريات الكئيبة وقد انفرج أمامه ذراعا بابٍ من خشب نبيل قدّر أنه من الماهوجني عندما لامســه بكفه، ثمّ غمره نور عذب تدفق من خلف الباب، فأغمض بنشوة ستصبح دهشة إذ يخرج من النور كائن سيعرف لتوه أنه إمرأة في ثياب رجل أنيق. توقف جواد لحظة وهو يستمع إلى الصوت يردد:

«أهلاً بك يا سيدي في دارك».

وكانت المرأة تنبض بالأنوثة وهي تبتسم، فتساءل في سره: «هل يعقل أن تكون أسمهان؟».

ولكنها ما لبثت أن قالت بتأدب شديد لا يمكن أن يكون لصاحبة الدار تلك:

«اتبعني يا سيدي».

فتبعها كمسلوب للارادة يدهشه المكان فلا يستطيع أن يميز شيئاً فيه. وعند ركن من زجاج شفاف في طرف الصالة الواسعة التي لم يتبين فيها سوى النور الذي ينبع من كل زاوية وكأنها قطعة من شمس غير محرقة، جلست المرأة خلف مكتب كريستالي تقول له:

«أنت متعب على ما يبدو يا سيدي، وأنا هنا بإمرتك لتوفير السعادة والكثير من الحب لك».

وجعل جواد يتطلع اليها وقد أخذت في تلك اللحظات شكل رجل الأعمال الدقيق في إدارته، يحاول أن يعرف موقعها من دار المتعة، بعد أن استبعد تماماً أن تكون صاحبتها التي حارت الأقوال في وصفها أو أن الكتاب اتفقوا في يومياتهم على تحديد هويتها. تابعت المسؤولة قولها:

«ما المرأة التي تستهويك يا سيدي؟».

وكان جواد قد فوجىء، فتطلع اليها حائراً، فتابعت هي:

«تستطيع أن تذكر لي مواصفات المرأة التي ترغب، وسأعمل يا سيدي على تلبية طلبك».

كان ينصت لها تكرر قدرة الدار على تلبية نداء الجسد، وأن المستحيل لا وجود له، وكان يعود إلى كهف غرائزه. هل يتسهويه الضعف الأنثوي أم أنه يفضل امرأة شرسة تعضّ وتخرمش؟ هل تريد امرأة بيضاء كقشدة الحليب أم سوداء ملتهبة كجمر البركان؟ أتراه يمضي ليلته مع محدّثة لبقة تحفظ عن ظهر قلب كل الحكايات عن فتنة المرأة وغوايتها، أم يمتع باصريه بجسد يتثنى على أنغام موسيقا مجنونة؟ ما عليك الاّ أن تختار الغرفة التي تشاء، وستجد طلبك خلف واحد من تلك الأبواب المغلقة يفتح ما يشاء منها بمفتاح يصبح في يدك مدخلاً الى متعة لا تنسى.

وظلّ جواد يصغي إلى المسؤولة التي تحول ترحيبها الحار الى عروض شبه آلية، فكان يطلب المزيد بإيماءة من رأسه. كان في الحقيقة يبحث عن طريقة مناسبة يسأل فيها عن صاحبة الدار، ولكنه خشي أن يلقى الصّد من المرأة التي بات على يقين من أنها مجرد مسؤولة تؤدي عملها كأي موظف في

استقبال فندق كبير، كما تأكد من أن التعب قد تسرب إليها، فقال:

«أريد امرأة لم أشاهد مثلها من قبل».

فابتسمت المسؤولة باتقان تحاول أن تعبر عن دهاء مستتر، وقامت بسحب صورة من مصنف أمامها، قدمتها لجواد فإذا هي لفتاة عارية تعانق جذع شجرة بساقيها بينما أفعى تلتف حول الجسد، وجعلت المسؤولة تتمتم:

«هي أعجوبة لم تشهد الدار مثلها من قبل».

وأبدى جواد إحجامه عن واحدة كهذه، فأخرجت المسؤولة صورة أخرى فيها فتاتان في ريعان الصبا تتلاصقان كورقتين غضتين بوجدٍ مثير، فهز جواد برأسه غير راغب، فقالت المسؤولة غير يائسة:

«مثلك صعب ارضاؤه يا سيدي، ومثلك يجب ارضاؤه بأي ثمن».

بعد صور أخرى، خرج عليه فتىً نصفه، عار، ناعم الصدر، ضيق الكتفين كصبية مراهقة، قدم لجواد صينية مذهبة عليها كأس واحدة من شراب، أخذها ليرشف منها، فإذا الشراب مستساغ وإن كان لم يعرف له اسماً، ثم أصغى من جديد الى عرض من المسؤولة، في امرأة تكلف الكثير، ولكنه لم يستطع أن يتخذ قراره فقد أحس بعد لحظات أنه محمول على الأكتاف، وانه يرتفع خطوة فخطوة نحو الأعلى، وتتصاعد نشوته كغيمة ترتفع الى السماء كأنها دعوة علوية تجتذبه برفق ويسر، حتى بات بعد قليل لا يميز الحلم من الواقع، فلا يعلم إن كان يصعد

درجاً شاهق الارتفاع أم أنه يسبح مع الملائكة في رحاب فضاء فسيح فسيح.

- ٢ ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

كأنما عام مرّ.
ربما عمر، أو حقبة من عمر مضت وانقضت.

كأن ما ذهب من زمن لا علاقة له بما هو فيه الآن. ربما هو وهم ذلك كله. حلم أو وهم.. بداية أم نهاية؟

أن يخترق جدار المرآة فيستسلم له كجسد امرأة، ثم يمضي في الممر مسحوراً، ويصبح في الصالة الشفافة، ثم يرتفع في الهواء محلقاً ليحط على أرض لينة وكأنها فراش من نتف غيوم سمحة. أي حلم.. أي وهم! وينظر الى السماء فيجدها مزينة بأطفال مجنحين يحملون بأيديهم أزهاراً لا حصر لأشكالها وألوانها. وها هو الآن يرى الملائكة في طفولتها. أهي حفلة تشييع ساحرة؟!

أي موت فاتن ذلك الذي سعى إليه، وأي كفن ناعم يلف جسده الآن! أهي نهاية المطاف في المنتصرة الكبرى التي قدم إليها من أجل البحث عن أبيه المفقود؟ أهي النهاية إذن وضعته في القبر؟ أي قبر واسع متسع فضفاض يرقد فيه، فلا ضيق في المكان ولا وحشة كالتي سمعها من العجائز في طفولته وهنّ يصفن حفرة القبر. لا تراب.. لا صمت، لا ألواح حجرية صماء تسدّ الحفرة..

الهواء معطر ببخور يوقظ في الجسد الفاني رغبة جامحة في

العودة إلى الحياة للاستمتاع بملذاتها. وها هو الصمت يسمح لأنفاسه أن تتردد، وقلبه أن يخفق، كأن البعث هو العودة إلى الحالة المثلى التي يحلم بها الإنسان. هل أصبح الموت أجمل الأحلام وأعذبها؟

سمع صوتاً. لم يكن صوتاً. كان هسيساً يتصاعد كمواء قطة تتدلل. قرر أن يختبر نفسه، فاستطاع أن يرفع رأسه قليلاً عن الوسادة بحثاً عن مصدر الصوت، لكن الضعف الذي ينتشر كالشلل في أبعاد جسده، شدّ الرأس الى الاسترخاء، فما عاد يرى سوى السقف وكأنه سماء صغيرة زينتها الرسوم الثابتة. وهكذا دلته عضلات الرقبة على أنه ما زال في مملكة الحياة، فأغمض ثم فتح عينيه فكان المشهد ما زال هو. لم يكن يشكو ألماً، ولكنه الاستسلام للخدر جعله يسترخي، فتأمل السقف المزخرف من جديد، وابتدأ يحس بالجمال فانتشت إرادته. بات يحس بالاتساع من حوله مريحاً. ثمة فراغ هائل، لكنه فراغ محتشد بالدفء والانسياب، حافل بالألوان. كان الفراغ حقيقة تلمسها بعينيه وجلده.

يرتفع رأسه قليلاً، وتبدأ المعاينة، كأنما التاريخ في أبهى حلله يتمدد بإلفة في القاعة الكبرى. ودارت عيناه من حوله، فكان في ركن قصي يقف تمثال لا بد أنه من خزف صيني. رأى التمثال كاملاً تخرج من رأس المرأة فيه رماح ذهبية لا توحي بأي عدوان. المرأة كانت عارية لم تمح القوة في ملامح وجهها فتنة طاغية في الجسد الذي تدثر بحمرة توحي بأن الحرارة لا بد ستنفجر منه بعد حين. ووقف التمثال في الركن بينما امتد تحت قدميه بساط حريري كأنه طريق شق من أجل الوصول

اليه. فتح جواد عينيه أكثر وهو يرى إليها تمشي على البساط كأميرة نضرة جاءت لتوها من ضباب تاريخ استيقظ متثائباً. لم يكن التمثال هو الذي تحرك بل امرأة حقيقية تخطر في رداء اختلط سواده بوشي ذهبي. كانت المرأة تمشي وكأنها تتقدم إليه فلا تصل. هتف دون أن يتمالك نفسه:

«يا إلهي.. يا إلهي!».

فأيقن من هتافه أنه أكثر حياة مما كان في زمنه الذي انقضى. استمتع بلذة الحياة وهو يصرخ:

«يا إلهي.. يا إلهي!».

كانت هي تخطو بثقة نحوه، ولكن المسافة تبعد. هي تتحرك وقلبه يخفق، فيزداد شوقاً إلى الاقتراب منها. كان عاجزاً عن الحركة، ولكن التوق إلى الانطلاق كسهم مشتاق نحوها يدفعه الى الحركة. يحاول، ولكنه ما زال مقيداً، يحرمه الضعف من تفحص ذلك الجمال عن قرب قريب. ذلك الجمال الذي لم يحلم من قبل أنه سيرى شبيهاً له. وبدت له واضحة كالسماء الصافية، فكافح من أجل أن يستوي في جلسته، ونجح في الاتكاء على الوسائد المنتشرة حوله. حدق من عجب، فوجد المرأة قربه، بل كانت على مقربة من أنفاسه، فارتعش جسده، بل قلبه هو الذي خفق فاستجاب له الجسد. الجمال لا يوصف، وأية مقارنة أو قياس على جمال شاهده في امرأة أو في عمل فني سيكون من الظلم لتلك التي كانت تقترب منه وهي ثابتة في مكانها. وكان ثمة طيب يهب من ناحيتها، ومثل تلك الرائحة جاء لها ذكر في أساطير العالم الآخر، لكنه لم يحس بمثلها في حياته.

ها هي المرأة حقيقة وحقيقية، يسمع أنفاسها بكل مسام جلده. المرأة تشع ابتساماً كفرح أبدي، فيشعر أن أوجاعه انتهت؛ وبات قادراً على النهوض بل على الحركة بنشاط، وكان يمكن له أن يرقص فرحاً، كأن ما يحدث له كان وعداً صعب المنال فتحقق فجأة. أحسّ لأول مرة بجماله، وكان لا يلقي من قبل بالاً لمثل هذا المديح فيعتبره حطاً من مقام عقله الذي طالما كرسه للبحث عن معرفة. وانثنت المرأة بخفة، فتبين له أنها ليست كأي امرأة أخرى من نسوة الدار اللاتي رأى صورهن أو قُدّم له وصف عنهن. وهكذا استيقظت عنده رغبة جامحة في احتضانها بين ذراعيه. لم يعد يفكر إلّا في امتلاك هذه الأنوثة الخالدة. هتف:

«أسمهان!».

فلم تجب بكلمة أو بحركة. قامت، ثم مشت فكرر تساؤله التعجبي:

«أسمهان؟!».

وظلت تمشي متثنية في خطواتها، فلحق بها، فاستوقفته ليصبحا وجهاً لوجه. كانت كقامة من ومض يبرق، وأما عيناها فلم يستطع أن يقاوم سحرهما فأغضى بصره تفادياً لغزوات متلاحقة ترسلها الفتنة التي لا بد أن اسمها هو أسمهان. للمرة الثالثة نطق باسمها، فتمتمت وكأنها تتلو آية الرجاء أو التوسل:

«تريدني؟».

فشلّه الصمت. تابعت تلاوتها:

«تريد امتلاكي.. اليس كذلك؟».

فعجز عن اختراع كلمة تعادل الشبق الذي نبضت به كل نقطة دم فيه. هتفت:

«أقرأ في جسدك جنون رغبتك».

واقتربت خطوة منه، فاحترقت بشرة وجهه شهوة، ولكن صورة عبد الكريم هبطت فجأة لتقف كاللوح البارد بينهما، ثم إن الجوهري نفسه وقف الى جانب أبيه، وكأنه سمع صوتهما يردد متمازجاً متآلفاً:

«يا جواد.. لا تنس من أجل من أتيت».

فابتعد خطوة.. ثم بحث عن شيء يحدق فيه بحثاً عن فرصة لاعادة التوازن الى نفسه. وكان هناك قبالته لوحة كبرى لم ير نظيرها في مكان في العالم.

كان الجدار الهائل للقاعة يستوي أمامه كسحر خرج لتوه من المجهول. وكان الجدار يحتاج إلى استدارة من الرأس تقترب من نصف دائرة عظمى لمشاهدة ما تراكم عليه من رسوم. وهكذا كان الجدار لوحة مستمرة من أشكال وألوان، وكأن مهرجاناً أو معرضاً لفن السراميك ممتزجاً بفَن بدائي كالذي رسم في الكهوف، قد غطى سطح الجدار، وتحولت القاعة إلى معرض تخصص بلوحة فريدة لم يشاهد مثلها من قبل في أي من المتاحف الكبرى. قالت أسمهان، وقد سمعها من خلفه، وكأن اهتمام جواد باللوحة أمر لم تلحظه في أحد من قبل:

«صنعها أكثر من فنان. أكثر من جيل تعاقب على العمل فيها».

ظلّ يتأمل الجدار. يمسح التفاصيل بعينيه، وبمخزونه من الذكريات. كان يحاول أن يستوعب كامل اللوحة بنظرة واسعة، فلا يقدر. عشرات الأفكار والمواضيع. إلّا أنها تداخلت بعضها ببعض فتجانست. وكانت الانارة علوية، فأعطت للألوان والأشكال قدسية بالرغم من أن الأجساد المتوزعة على المساحة كانت عارية، وتتمثل فيها أحياناً أوضاع للحب. سمع المرأة تقول له وكانت تمشي من خلفه كظل له:

«عشت معها قطعة قطعة وخطوة خطوة».

فلم يحاول أن ينظر إليها بعد أن أبعدته تفاصيل اللوحة عن شوقه الى المرأة التي أكملت:

«كنت أشعر وكأنهم يرسمون التفاصيل على جسدي ثم ينقلونها الى الجدار».

وظلّ مستغرقاً في النظر.

كانت الحرارة تشع أيضاً من ذلك التكوين الفني الغرائبي، فكأنما الجدار هو حياة تحفل بكل شيء، ولكنها حياة مقيدة لا تتحرك نحوه، فيتحرك هو نحوها يعاين التفاصيل بخبرة، فكانت إذا اقترب منها بقعاً من ألوان شتى، وتصبح مواضيع تحرك عقله إذا ما ابتعد عنها. ولم تجد الحرارة نفعاً في جذبه، كما أنّ البعد كان يفقده متعة التفحص التي طالما تملكته في حياته، فكان يقترب ويبتعد، يلتصق بالمرأة التي تلازمه فتتأوه، ويهرب منها فتصرخ هامسة احتجاجاً مثيراً. كان البحث عن معنى شامل للوحة الجدار الجميلة متعة أبعدته عن محاولات المرأة في استثارة غرائزه المستعدة للانطلاق في سباق مع الجنون. وبينما هو يغرق في لوحة الجدار كانت المرأة تزداد غضباً لبرود

جواد، فيسمع لصرير أسنانها أثر وكأن أعمدة معبد وثني تتسابق على السقوط أرضاً.

- ٣ ———

اللوحة باتت مكتملة بمراحلها الأربع. اللوحة هي الكمال.
«الولادة.. انتهاء بالموت.
بينهما كانت مرحلة المتعة ومن ثم حرب البقاء.

هكذا إذن تكتمل رؤية جواد بعد استطلاع لتفاصيل اللوحة الجدارية استغرق زمناً لم يعرف له حجماً. هل نسي جواد كل شيء هو فيه أو أنه جاء من أجله؟ هل استغرق في تفحص المراحل التي عبرت عنها اللوحة كأنه بعث من السبات الذي أدخل فيه عقب دخول دار المتعة؟ هل يعيد تشكيل اللوحة على هواه أم يتابع اكتمالها لحظة فلحظة؟

الولادة كانت البداية.

من غمام متسارع الخطوات، أو أنه من طين فوّار، كانت الألوان تتمدد وتتمطى كأنها مرحلة ما قبل أن يخلق اللون. طيف بل أطياف متداخلة سديمية مجهولة الهوية. وابتدأ هذيان الألوان البكر فكانت تخرج من طرف اللوحة المتطرف وكأنها تولد لتوها من جوف حديقة وحشية أو من بطن بركان أزلي التفجر. وجعلت الألوان تسيل بلزوجة موسيقا تولّدها آلة كونية بدائية.

الولادة تبتديء الولادة. يتمخض الأحمر عن الأصفر، ويقذف الأخضر من أطرافه الضائعة الأزرق وهو يتردد في

اكتساب زرقته. تداخل، ثم يكون التمازج فالاضطراب. النقطة تكون بقعة، والبقعة تصير إلى خطوط كأنها ذيل هيلوى مائية، والخطوط تتجمع في صخرة وهي التي قد تصبح عشباً برياً أو فجوة في فراغ يحدث في الناظر إليه شعور الجيب الهوائي المفاجيء.

يرقة تسعى، بل هي تذهب في مشيتها لتصير دودة، والدودة تتحدى دونيتها فتتلوى كصرخة، فتتعالى الصرخة وتشمخ لتصبح كائناً بشرياً تجمعت حراشفه عند أقدامه الراسخة، فتعرى وجاع، فأعطاه تل من الأصداف ثديه يرضع منه بنهم.

حشد من حشرات لا حصر لها، تزحف وتطير وتتسلق، منها ما هو مألوف وكثير لم يعرف له شكل، وطيور متباينة الأحجام يقودها الهدهد في رحلة عبر الفضاء، وزواحف تطغى الأفعى عليهن بجمال برقشها. ثم يتماهى كل شيء في خطوط متلاحقة ومتشابكة تدخل في امرأة من تراب يعلن عن خصوبته في جسد رطب لين، فتبدو المرأة المستلقية وقد انحلت ساقاها الى خطوط أخرى منسابة وكأنها دخول في المرحلة الثانية من لوحة الجدار.

المتعة تأتي. المتعة جاءت.

المتعة تلدها الخيوط القادمة من جسد المرأة الترابية. خيوط كوشائج اللحم تربط ما بين المرحلتين. وتبدأ الحركة. كان ثمة حشد من المخلوقات المصنوعة من طين، فبدت وكأنها تخلقت دون عظام، ولكنها قادرة على التزاحم بالمناكب والسواعد والسيقان، وهي تتنافس على استباق لحظة الوصول الى نقطة نهاية لم تكن نهاية أي شيء محدد.

نساء ساحرات، بل امرأة واحدة كانت تتكرر بعريها الآسر واستسلامها المثير لكل ما يطبق عليها أو يتقرب منها. نموذج يعيد نفسه، لامرأة تعطي دون تكلف أو تمنع. مرة مع رجل وحشي الرغبات يستر جسده بملابس حرب بدائية، يحتضنها كمفترس، يدخل فيها، رمحه يدخلها أيضـاً، وخنجره يجد بين النهدين مكاناً له فينغرز، فلا يكون هناك جرح ولا يظهر دم. ومرة مع نسر فتي يلفها بجناحيه ويغرز منقاره في العنق الناعم فتستسلم وادعة للعنف، وتصبح الآهة على الوجه ابتسامة رضا. مرة مع نبتة صبار تضخمت ثمارها الشوكية بين فخذي المرأة التي أغمضت كمن يحلم بسعادة لم تكتمل لها بعد، ومرة تتجمع الأسماك بأنواعها البحرية والنهرية، الكبيرة منهـا والصغيرة، تتجمع عند أطرافها ونتوءاتها وانخفاضاتها، تتقافز حول الجسد في فضاء يعلو سطح الماء الذي طفت عليه المرأة خفيفة كوهم ساحر.

ثم تظهر امرأة من لحم يكاد ينطق، بطنها كآنية يشف جدارها عن كنوز من محار لؤلؤي ومرجان ومصباح من بلور شفاف وفضة لامعة تضيء بنورها على عقود من الماس وياقوت. المرأة تجلد بسوط في يدها حجراً ينغلق كما الأفق يتسرب منه ضياء فجر سرمدي. المرأة كالطيف تصير. فيعبر بهاؤها جسد رجل جميل، ينتصب كمسلة. الرجل يتعدد ويتكرر ليصبح مسلّة من حجر.

وهكذا جاءت حرب البقاء في المرحلة الثالثة.

المسلّة العظمى هي حرب البقاء. المسلة يأتيها الضوء من فوق ومن تحت، ومن كل طرف فيتكرر ظلها مسلات أخرى رسم

عليها تاريخ حرب طويل. حرب ليس لها جنسية ولا يمكن للمشاهد أن يقرأ فيها قومية ماأو ديناً محدداً.

صراع وحشي بين إنسان وحيوان توجت رأسه قرون مدببة. يتكرر الصراع بين الشمس والعتمة. الشمس حزمة نور مستديرة والعتمة شجرة ميتة. صراع بين الكلمات المتشابكة التي تداخلت بعضها ببعض كرؤوس أسلحة مجهولة بلغت أحقادها أعلى مراحل التحدي، فما عادت الحروف مفهومة ولا أشكال الكلمات نفسها، وكأن اللغة المكتوبة لم تكن يوماً لغة أحد من الشعوب المنقرضة أو من بني البشر المعاصرين.

وبدا النقش على سطوح المسلات كصفحات من كتاب الحرب المستعرة طلباً لانتصار، ولكن الكل خاسر والكل رابح، والسطوح تتابع كأنما تسمح للعين أن تقلب صفحات الحرب بلمح البصر. كانت الحرب توحي بأنها لن تنتهي، ولو أن المسلات كانت تتضاءل كلما تكررت واحدة إثر أخرى.

وكانت الخنافس الذهبية تتجمع بأعداد هائلة في الأسفل تحاول أن تتسلق المسلات إلّا أن العجز عن بلوغ الهدف لم يكن سبباً في ان يخبو لمعان أجنحتها المتقرنة، وظلّ بريقها يبدو وكأنه يصير إلى غمام يحمل المسلة نحو الأعلى، وكأنها تطمح الى اختراق السماء أو أنها تنطح البعد غير المرئي لتبلغ سدرة المنتهى.

ويجيء الموت.

كأنما كتب على الموت أن يكون خاتمة المطاف.

ولم يكن الموت خاتمة المطاف.

ابتدأ المشهد بحقل البنفسج المتناثر عبر حقول منسقة يختلط أفقها بسماء مضطربة الألوان وكانت بنفسجات تمتد سيقانهن فيُحِطْنَ، حزينات وديعات، بأقدام أجساد بشرية تراصت بعضها إلى بعض، وتطاولت قاماتها ورقّت ثم شفّت متسامقة فاختفت الرؤوس في غمرة سحاب ضارب في البعد الأعلى.

وظهرت بعدَ فجوةٍ من ألوان متنافرة صارخة، أجساد أنثوية وأخرى لفتيان تتفتح رجولتهم المبكرة وكذلك رجال كسا جلدهم شعر غزير. كان ثمة موكب بشري يبتهل باستسلامه لمسيرة نحو مجهول، لكن المجهول مفعم بحرارة ألوان منسجمة هادئة، فيخيل إلى المشاهد أنّ طرف اللوحة الأخير يمثل الجنة، وأن الموت هو الجنة وليس من شيء هناك سواها، وأن الجنة امرأة غير واضحة المعالم، ولكن عريها يثير الشعور بالقدسية. فتكوين تلك المرأة لا يمكن أن ينسىٰ بالرغم من تداخل حدود تكوينها بشواطىء بحار وضفاف أنهار وقمم تلال، فكأن الخلود هو الخاتمة وليس التلاشي أو العدم.

هتفت أسمهان من خلفه، وكأنها لبثت صامتة تنتظر دورها في الحديث بعد أن طال تأمل جواد لتفاصيل اللوحة:

«هل انتهيت؟».

«انتهيت من حيث يجب أن أبدأ».

فالتصقت بظهره، وتساءلت:

«قل لي.. أين وجدت نفسك؟».

«حيث أضعتها».

ضمته إلى صدرها وكان وجهه ما زال يبحث في الجدار. قالت:

«ألم تجد نفسك فيها؟».

وسيدرك جواد بعد لحظات أن أسمهان تعني بسؤالها المرأة التي تكررت في اللوحة عبر جميع المراحل، فآثر أن يفكر قبل أن يجيب، طالما أنه يشتعل ببطء وهي تحيطه بذراعيها متمسحة به كقطة شبقة. كان ينجذب إليها فيعيد تأمل تفاصيل الجدار بحثاً عن خلاص من فخ عذوبتها الأسرة. وكان عرق المرأة عطراً فكاد يصاب بخدر، فاختلطت رغبته المستيقظة بتفاصيل اللوحة فما عاد قادراً على استيعاب اللوحة كعمل فني هائل.

كرائحة أزهار استوائية انتشر عبق الجسد، وتعثر جواد كحشرة طائرة في حضن الزهرة الشرهة الاّ انه ما لبث أن تحامل على نفسه وضرب بجناحيه وحلّق بعيداً. طوّف في سماء اللوحة من جديد. الولادة... الموت، يا لها من رحلة جميلة وقاتلة تلك التي تبتدىء بالولادة وتنتهي بالموت فيما تعبر كل أنواع المتع الكبرى، الجنس والامتلاك والسلطة، وعبر رحلة البقاء الطويلة المعقدة! كانت أسمهان تستلقي على الفراش الذي لا بد أن حشوه من ريش النعام النادر، فبدت بجسدها الوردي كالزهرة المشتعلة شوقاً، فاقترب منها كالمسحور خطوة تقاومها خطوة. الجسد يفح، وصوت أبيه يناديه، وعينا الجوهري تلمعان في العتمة الطارئة، فكان جواد في تلك اللحظات كالنسيج المتماسك يسمع لتمزقه إيقاع الأنين المختنق.

وستأخذ الحكاية خطاً طارئاً تمشي عليه، فقد لمعت في ذهن جواد فكرة. هل لعب سحر اللوحة دوره ففجر في عقله أمر التفكير في وسيلة تحقق ما جاء دار المتعة من أجله؟ بات مشغولاً بهمّ البحث، وها هو يقاوم سحر أسمهان المستسلمة لوصال يراوح في مكانه.

استوى فجأة واقفاً وقد كاد يذوب في تنوّر جاذبيتها. ابتعد عن الفراش كجندي اختلط انسحابه المنظم بذعر مداهم. وكان البلاط المرمري لامعاً فرأى وجهه المتجهم فيه، فاستمر عقله باحثاً عن الوسيلة في استنطاق صاحبة الدار سرّ اختفاء والده. تساءل في سره:

«هل جاء عبد الكريم إلى هذا المكان بحثاً عن متعة طارئة؟».

بعد قليل:

«هل يعقل أن عبد الكريم قد كلف بزخرفة جوانب من الدار؟».

في الأحوال كلها قرر أن يحقق الومضة التي عبرت خياله. وها هو الآن يبحث عن حكاية ما يجب أن يرويها للمرأة كي تفهم أنه جاء بحثاً عن أبيه المفقود، وليس من أجل متعة. ولم يستطع جواد حتى تلك اللحظات أن يفهم سر اصطفائه من قبل صاحبة الدار، فهو بين الانجذاب إليها وبين البحث عن حكاية، فقد القدرة على فهم جانب خطير من سر وجوده في عش أسمهان السحري.

وجعل جواد يلملم أفكاره وكلماته، فلم يجد سوى التقطيع

لمشروع حكايته وسيلة لتجاوز العجز عن لملمة الكلام والصور. جعل في البداية يقول:

«رجل.. رجل جاء إلى مدينة».

«الرجل كان جميلاً..».

«المدينة الكبيرة.. كانت كبيرة. بحيرة هائلة. كانت المدينة بحراً».

«الرجل الجميل قدم إلى المدينة الكبرى..».

«كان غريباً، فدخل المدينة خلسة».

«اختفى رجل غريب في مدينة كبيرة».

«الرجل كان يحمل أفكاراً كثيرة في رأسه».

«في الحقيقة كان الرجل هارباً. لنقل إن الرجل هرب من ماضيه إلى مدينة كبرى تستطيع أن تنسى».

ويتوقف قليلاً. كان جواد يفكر في اضطراب الأفكار، وينظر أثر الحكاية في وجه أسمهان التي جعلت تمرغ جلد التفاحة بخدها الدافىء وتتفحص قلقه كمن يتلذذ به. أحسّ بها تتحدى قدرته على امتلاك نفسه، فقرر أن يستكمل الحكاية:

«ذات يوم كان الرجل الغريب يمشي في المدينة. كان يبحث عن الأمان فاستقامت خطواته وارتفع رأسه ثقة، ولكنه دون أن يدري يسقط في الفخ. الفخ كان عميقاً فلم يظهر للرجل أثر فيه. يقول الرواة ويؤكد الثقات أن الفخ لم يكن سوى مصح للجنون، ولكن جمال الرجل شكلاً ومعنى لا يدل على جنون. ويذكر الراوي بثقة أن الفخ كان قبواً وأعدّ لاحتجاز الناس فيه لتهمة أو ربما لشبهة، لكن الفخ لم يكن قبوا في سجن أو ركناً في معتقل.

يقولون إن جمال الغريب الذي لا ينكره أحد، هو الذي قاده إلى حيث الجمال له قيمة.

«ويشير الراوي إلى أن وجهة الغريب الأخيرة كانت دار المتعة، دخلها ثم ضاع له كل أثر».

وإذ يتوقف جواد عن الكلام، يفتح عينيه يراقب كل خلجة في وجه المرأة التي كانت قد كفت عن المتابعة كي تتفحصه بدورها، فما عادت الدعوة إلى الحب هي التي تترقرق بها العينان، بل التقصي والفضول، وباتت المرأة لوهلة وكأنها تزداد عمراً، إلّا أنها سرعان ما تمالكت نفسها وقالت وهي تعود إلى الشباب الريان في الجلد والصوت:
«ما رأيك بمشروبي الخاص؟».

فحضر للتو رجل فتي الجسد يكلل رأسه شعر أبيض، وضع بين أيديهما كأسين ومضى كالوهم مبتعداً. شربت أسمهان بتلذذ من يحتسي من كأس المتعة. وتمنع جواد ثم ما لبث أن تذوق الشراب برشفة خفيفة، فاستعذبه. قالت المرأة:
«شراب الورد بالقرفة والزنجبيل، ولن تشرب مثله في أي مكان آخر من هذا العالم».

وأضافت وهي تلعق شفتيها تلذذاً:
«أعلم أن لك خبرة في الشراب وفي الحياة، فقرارك إذن في مذاقه له قيمة عندنا».

«وظلّ عقله يعمل. كيف عرفت المرأة عنه تلك الخبرة؟ وسمعها تهتف بعد حين، وقد بات هو أكثر وداعة:

«حسن يا أميري الجميل، إذا كنت افترض أني أعلم لم أنت هنا، أفلا تحسّ أنت لم أريدك وأشتهيك؟».

وبالرغم من خبرته المتنوعة في علاقة الرجل بالنساء، ظهر الخجل على وجهه احمراراً، فعاد إلى الشراب يرشف منه وكأنه يبث الكأس قلقه المتزايد. وهتفت هي باغراء:

«أريدك لأنك تريدني».

وكان البخور ينتشر ببطء كأن فتحات خفية في بلاط الأرض وجدران القاعة تنفث رائحة طقس تخمّر عبق تاريخه الحافل بلذاذات وصال لا ينقطع، فتسلل البخور عبر خياشيمه وجلده لتتراخىٰ مقاومته ويثقل لسانه. همست المرأة وهي تقرأ كفه بأنفاسها ولسانها:

«مكتوب عليك أن تشتهيني».

ثم تابعت وكأنها تقرر حقيقة لا تعترف بغيرها:

«لذا جئت تبحث عني».

وغمرت حضنه بوجهها الملتهب وهي تتمتم:

«بحثت عني طويلاً.. وانتظرتك طويلاً».

وهتفت، وكانت قد أسلمت رأسها لحجره كطفلة تطلب الحنان:

«ها قد عدت إلي أخيراً».

كان تصريح المرأة ايذاناً بصحوٍ من سمّ تغلغل فيه. ماذا تريد أن تقول؟ هل تعترف في لحظة استسلام أنها عرفت عبد الكريم من قبل كي ينزلق من لسانها مثل هذا الاعتراف؟ إذن

فهي تعرفه من خلال أبيه، وهذا يعني أنها عرفت عبد الكريم ولم تنسه قط. هل وصل جواد الى بداية الخط الذي سيؤدي به الى الغائب؟

سيتمالك نفسه من جديد، وسيزداد قوة، وسيأخذ آخر رشفة من الكأس وكأنها ماء لا أثر له عليه. يعيد ترتيب أفكاره، مدركاً أنه سيكسب الوقت بحكاية يمكن له أن يرويها لأسمهان، فقد كان يعلم يقيناً انّ الاستجابة لفتنة المرأة غرق لن ينجو منه بعد ذلك أبداً.

وستغضب أسمهان بعد حين. ظهر استياؤها في قيامها عنه وفي الشفة السفلى تعضّ عليها، كأنها تستنكر رجلاً لم يستجب لأنوثتها وهي التي سحقت من قبل أقوى الرجال. نظرت الى جواد تومض عيناها بتحدٍ، ثم قامت فمشت بتصميم نحو صندوق كبير وقفت عنده لتتطلع نحو جواد الذي كان ما زال في جلسته، فأومأت إليه برأسها، ليتقدم نحوها يعاين الصندوق الذي اختلط العاج فيه بالخشب العتيق. رفعت أسمهان الغطاء بصعوبة فخرجت رائحة من الصندوق، خيّل إلى جواد أنها المسك النادر الذي سمع به ولم يشمه من قبل.

كان المشهد غريباً، فالصندوق كالجُبّ والقعر لا يرى. قالت أسمهان آمرة:
«انظر، وخذ منه، واقرأ».

وكان فراغ الصندوق، الذي بدا ككهف الأسرار، قد امتلأ الا قليلاً بلفائف كثيرة من أوراق وجلود دقيقة، وكأنها وثائق

تاريخ متباين الأزمان. أشارت أسمهان من جديد إلى الصندوق داعية إلى تناول أي لفافة:

«اقرأ يا جواد».

فتردد قليلاً ثم ما لبث أن مدّ يده في عمق الصندوق وتناول واحدة، وكانت من جلد رقيق وناعم، ففضها بحرص، فانبسطت أمام باصريه، فإذا هي كوثيقة ملكية مهرت بخاتم أو أنه توقيع أشبه بالطرة الهمايونية، وكان الحبر الأسود الذي كتبت به قد جفت ذراته فتشققت الكلمات وتكسرت أطراف الحروف، وبدت وكأنها كتبت منذ عشرات السنين. كانت وثيقة تتقدم من سيدة الكل بالطاعة وتعلن الولاء لها على مرّ الدهور والأزمان. واستطاع جواد بعد جهد أن يفك كل الجمل والمقاطع ليصل إلى المعنى، فالكلمات لا نقاط عليها، ولم يكن هناك تشكيل أو فواصل فاندمجت فيها الأفكار كأن من كتبها جاء من عصر انقضى منذ عهد طويل. وسيعرف جواد أن كاتبها هو والي المدينة، وقد بصم بإرادته العلية التي لا يعلو عليها سوى إرادة سيدة الكل ربة النعم والمتع، روح الأشياء وتاج الرؤوس المستحقة من الجميع الخضوع لسلطان لا يقهر.

تنظر أسمهان في عينيه تستنطقهما الأثر، ثم تدعوه إلى لفافة أخرى، فتكون أحدث عهداً، وإذا هي تحمل المعاني نفسها التي جاءت بها الأولى، ولكنها قد مهرت بتوقيع مدير المعهد العلمي للمدينة، وقد أضاف أن السيدة العليمة هي منبع العلم ولا علم إلّا بها وما هدف العلم إلّا الكشف عن علمها فلا علم من قبلها أو بعدها.

وتقدم أسمهان لفافة جديدة، فإذا هي رسالة من الرئيس

الدائم لغرفة التجارة في أيامه، وقد اختلطت فيها آيات اعجابه بلواعج شوقه، وفيها يضع ثروته تحت أقدام أسمهان التي يلقبها بسيدة الربح الدائم، ويخاطبها على أنها نبع الذهب وجبل الزمرد وكنز الملذات الذي لا ينضب.

وكشفت لفافة من ورق قماشي عن رسوم تزيّن الحواف وقد تداخل فيها قسم غليظ بالطاعة لأسمهان مع زهور تزيينية. أقسم بالجسد الذي لا يفنى والنار التي لا تنطفىء. أقسم بالبطن الذي لا يلد، أن يخضع كل من على أرضنا لاشارة من ربة المتع. وقد ذيّلت الكتابة التي حملت تمجيداً لأسمهان يداخله الوعيد لمن لا يؤمن بسطوتها على الناس والتلال والأشجار، قد ذيلت بتوقيع معقد لم يفهم جواد سرّه.

ويدفعه فضول المنقب نحو لفافات كثيرة أخرى، يمهر احداها نحات يضع أزاميله وأنامله وبصيرته تحت أقدام ربة الجنس المقدس. وبلون أحمر أسودّت ذراته يكتب شاعر في وثيقته قصيدة سماها (دم مباح لأميرة المساء والصباح)، يضع فيها قوانين الخضوع لسلطان الشهوة ويعلن عن قدسية شهوة السلطان فيتوج محبوبة الأقدار ينبوعاً لكل ما هو جميل ومشتهىٰ. ومئات أخرى من الوثائق يتكرر فيها المديح والشعر والاستعطاف والتكريس، فتمنى جواد أن يكرس لدراستها وقتاً طويلاً، ولكن الهدف يلحّ عليه. وأسمهان تحتك به كالخشب اليابس يحمل النار في قوامه، فابتعد عن الصندوق ليقود المرأة من ذراعها الى مقعد غطاه الحرير بالاستسلام، وقال بسحر لا يقاوم: «سأقص عليك حكاية».

يحكى أن عالماً شهدت له مدينته، بعد طول إهمال، بالجد والاخلاص، وهو الذي وهب حياته كلها للعلم، يحكى أنه أراد في أبحاثه التي وصلت الليل بالنهار، أن يصل إلى سرّ الخلود ويهتك مأساة الخوف من الموت. وكان قد ابتدأ حياته طبيباً يعالج أمراض البشر، فأفزعه أن يتزايد خوف الناس من النهاية المحتومة كلما نضج عقلهم وازدادت خبرتهم، فينظرون إلى الموت أبداً وكأنه السيف المسلط على الرؤوس لا يعرف الرحمة. في البداية سخر منه الأطباء وأساتذة العلوم، ثم شاركهم في السخرية آخرون من أهل المدينة إلّا أن شوق الجميع كان يتأجج في الأعماق بانتظار ما وصلت إليه أبحاثه.

وتوصل العالم إلى وسيلة جديدة في البحث لا تعتمد كلها على التجارب المخبرية التي فشل معظمها في معرفة الطريقة التي يمكن للموت فيها أن يقف عند حدود مرسومة أو معلومة بل في الخروج الى الناس بحثاً عن معمرين قاوموا مرض الزمن وتجاوزوا بأعمارهم ما هو مألوف بين البشر فقد يكون هؤلاء قد حملوا، دون أن يدروا، جانباً من سر الخلود..».

وهتفت أسمهان بفضول أسعده:

«وهل توصل العالم إلى سر الخلود؟».

قال جواد ببرود مثير:

«سنرى ما ستقوله بقية الحكاية».

وجعل يكمل الحديث:

«قيل إن العالم عثر بعد بحث طويل واستقصاء شامل

وتنقيب شاق على ثلاثة رجال كان قد ضرب بأعمارهم المديدة المثل، وراجت عنهم الشائعات في أن الموت لا يقترب منهم بأي حال من الأحوال، فوضعهم تحت المراقبة في محاولة لاكتشاف السر الكامن وراء استمرارهم أصحاء في الحياة، بالرغم من متاعب المعيشة وصعوبات التغلب على المشاكل والعقبات. وكان للعالم أعوان يسجلون الملاحظات ويدونون المشاهدات، فكان اجماعهم قد دلّ على أن المعمرين الثلاثة يحسون بالسعادة بل ويعيشونها كما لم يصل إليه أحد من أهل المدينة، التي خيمت عليها وقائع الزمن بحلوها ومرّها وبخوفها وتفاؤلها وبطموحها واستسلامها للقهر وللقدر».

ويستجمع جواد أنفاسه وأفكاره، فتهجم عليه أسمهان باهتمامها الكبير وفضولها الأكبر، وتتساءل:
«ثم ماذا حدث؟».

كانت المرأة التي طغى انتظار الحكاية على جمالها، قد أكدت لجواد أنّ فخه قد نصب بإحكام.

قال: «الآن عرف العالم سرّ المعمرين الثلاثة، فالأول لا يدخن ولا يشرب الخمر، ويقتصد في طعامه فلا يأكل إلّا ما ينفع وهكذا لم تمتلىء له معدة ولا ضاع منه صواب ولا سحرته متعة كتلك التي يسعى إليها الناس جميعاً، وكان قد امتنع عن معاشرة النساء حين بلغ الخمسين من عمره. وها قد مرّ نصف قرن ولربما أكثر من الزمان على عفته، فما انحنت له قامة ولا اتكأت ذراعه على عصا، فكان يبدو لمن يشاهده يمشي ويتكلم أنه ما زال في عز الكهولة وأن الشيخوخة لن تعرف إليه سبيلاً. وكان إذا أكل لم يشبع وإذا شرب لم يرتو. لا يسرف في شيء

حتى في نومه، فكان له ميقات وحساب لكل خطوة ولكل لحظة. يعرف الفجر جيداً، فيصاحبه كل يوم وكأنه صديق عمر يستقبله بابتسامة، ويودع ضوء النهار باستسلام لفترة الظلام يسلّمها جسده وعقله. وهو يمضي يومه في العمل الدؤوب المنتظم، فهو لا يعرف التعب ولا الارهاق لأنه عرف حدود كل شيء فتوقف عندها بحسبان».

وقال: «ثم أن المعمر الثاني كان له سرّه الذي اختلف فيه عن الأول، فالرجل عرف القناعة وامتلأت نفسه بالرضا عن كل شيء. ما كان يسعى الى ربح، لذا أحجم عن العمل فما أتعب نفسه إلّا لكسب قوت يكفيه يومه، ثم أنه التفت الى الراحة فالاستمتاع بالطبيعة التي قال إنها أمه وعلى الابن ان يبرّ الأم لأنها ولدته ورعته. وقد باتت الأشجار وقمم التلال والأعشاب البرية والحشرات الهائمة، كلها باتت صديقة له يعاينها ويتأملها ويلاحقها بهدوء. ابتعد عن البشر الآخرين، فما عرف المشاكل ولا الخلاف مع أحد، فلم يعارض شخصاً في فعل قام به أو فكرة آمن بها. كان يفاخر أبداً بهدوء البال الذي حصل عليه، فلا هو يصغي إلى قضية تشغل الذهن ولا يلتفت إلى ما يحدث من حوله من فجائع ومصائب لا تخلو منها مدينة أو حي أو بيت. كانوا يقولون عنه: هذا رجل ضرب الدنيا بجزمة قديمة، وكان يقول لنفسه بصوت مرتفع: أنا هادىء البال.. أنا حي إذن».

وقال: «وأما المعمر الثالث، فكانت له حكاية غريبة. وقد أثارت حكاية المعمر تفكير العالم، فقلّبها على جوابنها واستفسر عن أبعادها، فاستأثرت بمجامع قلبه وتفكيره، حتى أنه خشي أن يخرج عن صواب العالم إذا ما استسلم

للعواطف. فالمعمر ذاك، دلّت التقارير أنه إنسان اعتيادي وطبيعي في سلوكه الظاهر، فهو يأكل كما يأكل الناس ويشرب كما يفعلون، وإن كان الاعتدال ظلّ نبراسه يهتدي بخطواته. أحب النساء وتزوج وخلّف صبياناً وبنات، ثم بلغ مرحلة الكهولة متأخراً لأنه لم يعرف سوى الحب..».

وهتفت أسمهان منتصرة:
«لم يعرف سوى حب المرأة.. لذا لم يعرف الشيخوخة».

فنظر جواد إليها نظرة أثارت حيرتها، وبعد صمت قصير، تابع الحكاية:

«كان الرجل يسعى إلى الحب، ولا يدرك معنى للكراهية أو البغضاء، وقد تأكد تماماً أن المعمر لم يعرف شيئاً اسمه الحسد الذي يأكل القلب عادة ويحرم صاحبه من نوم مريح أو طمأنينة دائمة. كان إذا قيل له: جارك وجد كنزاً في أرضه، هتف سعيداً: ليبارك الله له كنزه. وإذا قابل صديق طفولة قديم وقد أُنعم عليه بجاه أو مال أو بالاثنين معاً هتف فرحاً: ليزدك الله من عنده. وإذا عمّ موسم وفير على الناس زادت بشائره وتفتحت أساريره. كان يعتبر رغيف الخبز الساخن وجبة دسمة، وإشراقة الشمس الدافئة بدايةً ليوم عظيم، ورفّة السنونو الخاطفة خفقة قلب جديدة في جسده المتجدد أبداً. وعندما بلغ المائة من السنين، قيل إنه صبّ لنفسه قدحاً من ماء المطر الذي يجمعه في الأيام النقية، ووقف تحت شجرة زيتون ألفية ليشرب نخب السعادة التي يحياها بلذة لا تساويها لذة، وكانت قناعته بالماء لا يعادلها سوى رضاه عن الناس الذين يعيشون معه أو يقابلهم أو يسمع عنهم. ابتسامة نابعة من القلب لا

تفارق محياه، وإذا أغفىٰ جاءه الحلم في صورةٍ لرجل سمع أنه في مأزق فدعا له من الأعماق أن يفك أزمته وأن يفرج كربه. كان الرجل كنبتةٍ تنضح بالحب بدلاً من قطرات الندى..».

وتهتف أسمهان بضيق أدهشه. قالت:
«لم يسمع أحد من قبل بمثل هذه الحكاية».

ثم شددت على ضيقها بتساؤل المستنكر:
«أشك في أن أحداً يعرف مثل هذه الحكاية».

ثم إن أسمهان قالت بشيء من التحدي، وقد بدا على جبينها خط كآثار أخدود في سهل متسع:
«والمعمرون أولئك، ألم يواجهوا الموت أبداً؟».

قال جواد ببرود وهو يقضم تفاحة:
«الموت حق».

فصاحت المرأة من فرح:
«مثلهم من يموت دون ريب».

وبينما تتابع أسمهان فرحها، تابع جواد الحكاية بصوت عميق:
«وكانت نتائج الأبحاث التي توصل إليها العالم تبشر بالخير، فانتعشت آماله فرحاً، وتطلع بثقة إلى نتائج حاسمة قد يتوصل إليها إلّا أن مثل هذه الثقة أصيبت بالخيبة وهي التي كادت تورق أملاً. مات المعمر الأول..».
«ألم أقل لك؟».

هكذا هتفت أسمهان. وظل جواد يتابع:

«مات فجأة. كان جالساً فسقط أرضاً. وجاءت الأقوال جميعها تؤكد أن الموت لم يكن له سوى سبب واحد. الوحدة كانت قاتلة. مات المعمر الأول من الوحدة.

وتمسك العالم بمراقبة الآخرين، لكنه فجع بموت المعمر الثاني، وقد علم أنه قضى نحبه لسبب لم يكن له بديل. مات المعمر الثاني بسبب الملل الذي كان يتراكم على حياته كذرات الغبار التي ما لبثت ان امتصت كل قدرة على متابعة الحياة. اكتشف الرجل الّا فائدة منه في الحياة..».

هنا، هتفت أسمهان بنشوة ساخرة:
«وأما المعمر الثالث فقد مات من فرط حبه للناس!».

وها هو ذا جواد يكتسب عادة الرواة، وكأنما كانت فيه مستترة من قبل فكشفت عنها الحياة الجديدة في دار المتعة. قال:
«الحكاية لم تشر إلى أنه مات».

فتساءلت أسمهان وقد ارتسم خط آخر على جبينها كأنها ما عادت تقاوم أثر الزمن الذي ابتعد عنها طويلاً:

«وهل ما زال على قيد الحياة؟».

فقال جواد وهو يقف على قدميه ليمشي خطوات نحو اللوحة الجدارية يتأملها بإمعان، وكأنه يكتشف وجودها لأول مرة:
«ما عاد على قيد الحياة».

وقال: «لم يتركوا له فرصة للحياة، كأن بعضهم ضايقه ذلك القلب الذي لا يعرف سوى الحب والقناعة والرضى. بحثوا عن

حل لضيقهم، فوضعوا حداً لحياة نموذج متفرد من البشر بات خطراً عليهم في كشفه عن عيوب الآخرين».

وصمت جواد كأنه يعلن عن نهاية الحكاية. كانت أسمهان صامتة أيضاً. فجأة سُمع صوت كأنه لحصاة وقعت من فوق، فنظر جواد، فاستغرب أن قطعة من الفسيفساء قد سقطت من اللوحة ليحدث ارتطامها بالبلاط المرمري أزيزاً ارتجت له المرأة، فبدت كأنها قطعت رحلة طويلة، وأن عدداً من السنين قد تراكمت في ليلة واحدة. كانت أسمهان تطرق برأسها، وبدت كمن له رغبة في نوم عميق، فاقترب منها جواد ليدثرها بفرو ثمين، وجلس يتأمل استسلامها.

إذن، عليه أن يفكر في حكايات جديدة، فالأثر الذي خلفته الحكاية قلب الميزان، فما عادت أسمهان تضيع عليه الهدف باعراء يخشى أن يستجيب له في لحظة ضعف، فالمرأة لا تقاوم، كأنما استنفرت مخزون التاريخ من الفتنة في جسدها ودعوتها. لذا كان عليه أن يستنفر كل تاريخه في اختراع حكايات أخرى تبعد ضعفه عن الوقوع في الفخ.

ـ ٦ ـ

وعلى غير ما توقع، شهد الصباح هجوماً بلا رحمة. كانت الليلة التي مضت قصيرة، لم يعرف فيها جواد سوى اغفاءة على المقعد. وابتدأ الصباح الجديد. نهضت أسمهان من سكونها كملسوعة. هتفت:

«عندي لك حكاية».

وفاجأه تغضن خفيف ارتسم على عنقها، ولم يعلق على

اعلانها بكلمة. أما هي فقد استقام عودها، فضمت إليها الفرو الأبيض. وهتفت باغراء:

«أجزم أنك لم تعرف حكاية البرغوث من قبل».

«البرغوث!».

واتسعت عيناه من استغراب ساعده على استعادة نشاطه.

كانت تردّ له الحكاية إذن بأخرى إلاّ أن حكايتها أعادت إلى القاعة طقس الاغراء، ها هي تتلوى كأفعى تتثاءب بعد سبات طويل. وسيدرك بعد لحظات أن الحكاية ليس فيها كلمات كثيرة بل معدودة، وكانت التأوهات وانثناءات الجسد على الجسد هي لغة الحكاية المثيرة. انتصبت أسمهان وسط القاعة، وكان نصفها الأعلى يتململ بينما كفها يبحث بين ثدييها ولا يكاد يتوقف حتى تهتف:

«البرغوث اللعين!».

ثم تصرخ محتجة، وقد انتقل كفها الى ما بين فخذيها:

«هرب البرغوث».

ثم تعاود البحث متقلبة على المرمر، متململة، متوجعة، وقد انكشف الثوب عن معظم جسدها متأوهة كأن البرغوث أصاب منها ألماً، ثم أنها تهتف منتصرة كأنها عثرت على برغوثها اللعين إلاّ أنها ما تلبث ان تصرخ يائسة منه، وتهتف بجواد مستنجدة:

«ساعدني على الامساك به».

فلا يتحرك من مكانه، وكأنها لا تريد له أن يتحرك فتستوي جالسة ثم تقف على قدميها لتتعرى قطعة قطعة وهي تنقب بين

طيات الملابس الحريرية، فيحس جواد لملامسة أناملها نسيج الملابس الناعم وقع الحريق في أحشائه، ولكنه يقاوم.
«البرغوث.. البرغوث».

وجواد الذي لم ير من قبل دعوة لاحـتواء جسد أنثىٰ كمثل تلك الدعوة، يتصبب عرقاً ويرتعش نبضه، جواد لم يجد سوى مقاطع حفظها من يوميات الجوهري يرددها في سرّه كي تهدأ خلجات جلده الذي كاد أكثر من مرة ان ينجذب إلى أسمهان يشاركها البحث عن البرغوث في كل مخبأ من الجسد الذي انكشف له كقطعة فنية صبت لتوها من حمم بركان نوراني.

وتقترب منه فتحرقه أنفاسها، وتبتعد عنه فتسحب آهاتها ضعفه الذي كاد يتمرغ هو أيضاً على البلاط، لولا قوة هائلة كانت تتخلق بداخله كلما كان الضعف يهمّ عليه كالوحش المفترس. وظلّ جواد وهو يتأمل المشهد متوازناً كأن ما يراه كان مشهداً تمثيلياً في مكان عام لا يسمح فيه بمهاجمة الممثل، ثم أنه صفق كدبلوماسي:
«برافوا.. حكاية جميلة».

فما لبثت المرأة أن توقفت، ونظرت إليه بلؤم، ومن غضب صاحت:
«يا للغبي!».

ثم إنها ارتدت ملابسها بنزق وهي تتابع النظر إليه بحقد حيوان أصابه الصياد بجرح، وما أن تتوجه نحو مقعدها حتى يدخل الفتى بالإفطار الذي سبقته رائحة أسالت لعاب جواد الذي اكتشف بغتة أنه يكاد يموت من جوعه.

هما على المائدة كآدم وحواء وقد اكتشفا لذة طعام شهي هبط عليهما من السماء وهما على أرض قاحلة.

وكانت أسمهان قد نسيت برغوثها، وتجاهل جواد حكاية تتكون في ذهنه. شربا وتحادثا على المائدة كصديقين. حدثها باختصار عن رحلاته، وحدثته عن المنتصرة الكبرى التي شهدت تطورها وكأنها هي التي ساهمت في نموها وعمرانها. ثم تمددت هي لتغفو، فتأمل وجهها الجميل، وراقب الغضـون الجديدة المرتسمة عليه، والتي لم يلحظها للمرة الأولى فيه.

ياللسنوات الراكضة في أيام معدودات من تاريـخ دار المتعة! هل كان لها أثر عليه أيضاً كما كان على أسمهان؟ وفي المرآة الحجرية التي توسطت مجموعة من الصور، تأمل جواد قامته وتفحص وجهه، فاستغرب أن يكون قد اكتسب مثل هذه الحيوية ليصبح كالفتى الذي تحبه الحياة. إذن فلم تكن هناك سنوات ترسم عليه خطواتها، فاعتبر البحث عن أبيه غيمة تقيه وطأة الزمن.

الصور الفوتوغرافية الكبيرة كثيرة تحيط بالمرآة من كل جانب، وكانت تبدو لرجال مهمين، سيعلم بعد حين كما ستخبره أسمهان متباهية أنها لرجال خطرين من المدينة، تعاقبوا على الحكم أو على إدارة نشاطات مختلفة. أوسمة ونياشين استقرت على صدور الرجال كنجوم في سماء ضيقة. طرابيش وعمائم وأغطية رأس مختلفة الأشكال. كان الحائط معرضاً لرجال مهمين تخرج من عيونهم الثقة بالنفس والشهوة لكل شيء، وكان التعالي يميز رجالاً من دهاء يشع عنهم من آخرين. وكان انعكاس صورة جواد على سطح المرآة هو الشكل الوحيد الذي

يمكن له أن يغيب، فابتعد عن المرآة. لم يتساءل جواد عن صلة صاحبة الدار بأولئك الرجال، ولكنه تعجب من مواجهة تلك الصور لعمل فني خطير كاللوحة الجدارية وهي تمثل رحلة الإنسان عبر تاريخ طويل مضىٰ ومستبقل قادم.

كانت أسمهان متعبة بالرغم من أنها استيقظت متأخرة، وقد ظلت حتى الأصيل نائمة وقد كانت لجواد فرصة كبرى في أن يعاين تفاصيلها كلوحة تمثل فيها الكمال. فتحت عينيها ببطء، فابتسم في وجهها. تمتمت: «هل غفوت طويلاً؟»، فقال لها: «بل نمت طويلاً»، فتمطّت كعروس وهي تقول بمحبة:
«اقترب مني».

فلم يقترب وهو يقول:
«أنا بقربك».

وهمست بحياء عذراء ترددت كثيراً قبل البوح برغبتها:
«أريدك».

فقال لها وهو يربت كفها الممدودة إليه:
«هل سمعت بحكاية الأقلام؟».

فتيقظت، وكان الفضول في عينيها تساؤلاً، ولكنها أصغت إليه باهتمام وهو يحكي.
«قال: «أكره رجل على دخول امتحان.

لا الرجل كانت له خبرة في الامتحانات من قبل، ولا الامتحان الذي أُكره عليه كان معروف الطبيعة أو النتائج.

وما دام الرجل أُكره، لم يكن إذن بقادر على الرفض أو

التمرد. وبات الرجل في حالة امتحان، فوضعت أمامه خمسة أقلام، بدت للوهلة الأولى عادية كتلك التي يكتب الناس بها رسائلهم أو يجرون بها حساباتهم في الربح والخسارة، لكن الأقلام لم تكن كذلك.

وطلب من الرجل أن يختار مصيره القاطع في القلم الذي يمسك به ليكتب.
«هو ذا قلمي».

وكان الرجل الذي أُكره على اجتياز تلك المحنة، قد انفرج كربه إذ علم أنه أمام خمسة أقلام تشابهت في الشكل إلاّ أنها تباينت في الفعل، كما قيل له، ويختلف واحدها عن الآخر كما النور عن الظلمة.

وقال لنفسه لا بد أن الحظ سيواتيه في اختيار القلم الذي يكتب له الأفضل، إلاّ أن الوجوم سرعان ما أصابه وهو يستمع، قبل الحكم عليه باختيار قلم واحد من خمسة، الى شرح يفصّل دور كل قلم في الكتابة.

كان قلم إذا ما إستخدم يكتب الخلود لمن يختار، فلا يعرف صاحبه الشيخوخة ولا العجز، وكان هذا يعني أن الموت لن يقترب منه، فهتف الرجل من فرح:
«هذا ما أطمح إليه وأتمناه منذ طفولتي».

ثم فكر قليلاً وتساءل إن لم يكن هذا القلم من نصيبه، فماذا يحدث، وقال:
«وهل الحياة جميلة إلى درجة نتمسك بها ونفاخر من أجل البقاء فيها؟».

وكان قلم إذا ما كتب به الرجل، فإن الحكم عليه بالموت قائم لتوه، فارتعشت أصابع الرجل وقد خيِّل إليه أنه اختار القلم برضاه، وهمس متحسراً:

«الحياة جميلة!».

ولكنه ما لبث أن واسىٰ نفسه وهو يتمتم:

«لوبات هذا القلم من نصيبي، فاني لا بد قانع بما رسمه القدر لي».

وكان الاختيار الثالث في قلم يكتب لصاحبه السعادة أبـداً، فلا تكون له لحظة كرب أو فترة غم، ويقضي كل أوقاته في حال من الحبور المتواصل فلا تنغص معيشته أمور أو أحداث.

«ما أروع الإنسان أن يستيقظ على سعادة وينام على سعادة». هكذا قال لنفسه ثم هتف:

«ألسنا نعيش من أجل الحصول عليها؟».

ثم تساءل فجأة:

«وماذا لو أنها أخطأتنا؟».

فقطب حزيناً، ولكنه سرعان ما تجاوز كآبته الطارئة وهو يقول لنفسه:

«السعادة المستمرة بلا انقطاع، أمر ممل حقاً».

ثم طمأن مخاوفه بقوله مردداً:

«لا يمكن فهم السعادة إلا بشيء من ملح التعاسة نرشّه على حياتنا بين حين وآخر».

وكان قلم إذا ما أصبح من نصيب الرجل، فإن الحكم

بالتعاسة لا بد واقع عليه. فهل يحكم على يده أن تمتد لتختار مثل هذا القلم المريع.

«التعاسة! ومن يريد أن يقترب منها أو يفكر بها، أو أن يتمناها لنفسه؟».

وقال الرجل متوسلاً:
«لا أريد أن أكون تعيساً، فالموت أهون».

إلّا أنه خاف أن يكون هذا القلم له، فقال متأملاً:
«أليست تجربتنا في التعاسة أصلاً طويلة، فما الذي سيطرأ علينا من جديد إذا كتبت علينا وكانت من نصيبي؟».

وأما القلم الأخير فأمره عجيب، لم يستطـع الرجل أن يفهم معناه الذي قيل إنه (الضياع)، يصيب من يكتب به.
«أيّ ضياع هذا الذي يريدونه لي!».

وقيل له إن قدر ذلك القلم يعني أن لا يعرف الإنسان له مستقراً، والاّ يحس بطعم الانتماء إلى شيء محدد، في الوقت الذي يطمح فيه إلى الانتماء إلى ما حوله من أفكار وقيم وبشر، وإن الذي يقع الاختيار عليه في الامساك به، يعني أنه إذا اقترب من الايمان بشيء ما فقد ذلك الإيمان في اللحظة نفسها، فكان من نصيبه الدوار وكان الفراغ بحيرة يسبح فيها.
فتشاءم الرجل قائلاً:
«هذا يعني أني لن أعرف شيئاً في هذه الحياة، كما أني لن أعرف موقعي فيها».

ولكنه ما لبث أن بحث عن العزاء في احتمال كهذا، فلم

يجده، بالرغم من أنه حاول أن يعثر على معنى مفيد له في الضياع..».

هتفت أسمهان التي ظلت مشدودة الى جواد طوال الوقت:
«وأيّ قلم وقع على الرجل؟».
«كان الأمر محيراً حقاً».

هكذا أجاب جواد إلّا أن المرأة صرخت من غضب:
«أو لا تعرف أي قلم كان فيه حظ رجل حكايتك هذه؟».

قال جواد، وكان يتأمل وجه أسمهان الذي تزايدت الغضون نشاطاً في مساحته:
«في الحقيقة، لم يكن هناك اختيار محدد».

فهتفت المرأة بصوت يقربها من الجنون:
«وتقول لم يكن هناك اختيار محدد».

وقالت بشيء من الازدراء:
«أية حكاية سخيفة هذه!».

أما جواد فقد تابع الحكاية بعد لحظات:

«نظر الرجل الى الأقلام وقد تملكته الحيرة، فهو الذي سيختار مصيره بيده ولكن من دون إرادة منه، ولن يكون هناك فرصة له في أن يعبر عن رغبته في هذه الحياة إلّا أن الرجل تساءل بعد لحظات:

«وهل كنت أصلاً أملك أي رغبة محددة في هذه الحياة؟».
«وظلّ واجماً، حائراً يقلب الأمر، ثم اتخذ قراراً..».

هتفت أسمهان منتصرة:
«كنت أعلم أنه سيختار القلم الذي سيكتب له الخلود...».

فقال جواد معاتباً:
«وهل كان يعرف القلم الذي يكتب له الخلود يا سيدتي؟

غافل الرجل حارسه في لحظة خاطفة، وأمسك بالأقلام كلها دفعة واحدة وجعل يكتب بها، فبدت له الحياة آنذاك كأنها ترتسم بكل أبعادها على الورق. وقد أدهش الرجل حقاً أن الأقلام كانت تمشي على سطح الورق بتناقض سلس وتناغم يثير الحيرة».

ـ ٧ ـ

اشتاق جواد فجأة إلى المنتصرة الكبرى. تمنى لو أنه كان طليقاً لمشى في شوارعها، وتجول في أحيائها القديمة، وتأمل الناس في ساحاتها. تساءل فجأة:
«وهل أنا غير حر في الخروج من هنا؟».

«إلى أين تمضي بها حكاياته، وإلى أين سيؤدي به صراعه مع اغراء المرأة صاحبة الدار؟».

هكذا كان يقلب وضعه على وجوهه المختلفة، فلا يستطيع أن يتخيل نهاية معينة لوضعه في هذا المكان، فقرر أخيراً أن يستمر في لعبة كسب الزمن.

وكانت ساعة قد مرت أو أكثر على حكاية الأقلام، والضوء الخفيف الذي كان يأتي من القمريّات الزجاجية في قبة صغيرة من السقف العالي قد خفت حدّته واختفى تأثيره الساحر، ولم

يعد هناك لمعان آسر لمرمر الأرض الفسيحة. وظلّ بصر أسمهان يلمع في العتمة الخفيفة، وضاعت من جواد قدرته على متابعة بصيرتها. كان السكون حاضراً ولكن السكينة غائبة، وكأن المرأة لم تعد تلك الأنثىٰ التي تثير مشيتها أو دلالها شهوة الثور العجوز المقبل على الذبح، وكأن الرجل في جواد أصيب بالعنة. تكلمت أسمهان فكان لصوتها حشرجة امرأة كهلة، قالت:

«حكايات.. حكايات».

ثم أعقبت وهي تتحرك بتثاقل في جلستها:

«حكايات لا تعني شيئاً حكايات لا تاريخ لها..».

وكان جواد قد اكتشف مكتبة هائلة غطت الممر المتفرع عن القاعة، فتساءل في سرّه إن كانت المرأة تعرف كل ما جاءت به تلك الكتب، لذا بدأ يحسب لأسمهان حساباً، وظلّ يراقبها وهي تتقلب على جنبيها بين لحظة وأخرى كأنما أشواك القلق تنخزها. قال جواد إنه يعرف حكاية مختصرة، لا بد من أن الناس جميعاً عرفوا بها، فالتاريخ يشفع لها أنها حقيقية، لذا فهي جديرة بأن تصدق. فأصغت أسمهان إليه.

«هي حكاية رجلين وخنجر.

رجل اسمه سليمان، وسموه بسليمان الحلبي.

ورجل اسمه كليبر، وكان يدعىٰ بالجنرال كليبر.

أما الخنجر فلم يكن له سوى اسمه.

وبعد أن قام سليمان الحلبي بإغماد خنجره في صدر الجنرال كليبر، سقط الرجل الثاني صريعا. ثم أن الرجل الأول حوكم فقتل.

وتشير الحكايات دوماً إلى أن أية حادثة تقع، فيها عادة ثواب أو عقاب. وفي حكايتنا كان الثواب، فكانت المكافأة بانتظار الرجلين. مُنح سليمان الحلبي قطعة من الأرض كانت كبيرة وتمتد على مساحة سفح تلّ عظيم من تلال مدينته القديمة، وقد شهد له الناس على شعور صادق وتصميم شجاع في التعبير عن حبه للوطن، فهتفوا له: «لا يستحق الأرض سواك». وأما كليبر فقد أعيد الى بلاده البعيدة ليكرم بساحة خضراء يتوسطها تمثال كبير له».

استوت أسمهان جالسة، فابتدأ النور بالطلوع من خلفها، فاختفى عنه وجهها إلّا أن نبرات صوتها التي لم تكن مغمسة بحلاوة الأنوثة أو عسل الاغراء، كانت واضحة وهي تتساءل:
«لم أسمع بحكاية كليبر وسليمان الحلبي من قبل».

فصحح جواد تساؤلها بقوله:
«حكاية سليمان الحلبي وكليبر إذ أنّ الثاني لم يكن ليعرف إلّا بالأول».
«وهل يعرف القتيل بقاتله؟».

هكذا تساءلت، وقال هو:
«طالب تملكه شعور بحب الوطن وغريب أجنبي يريد أن يتملك الوطن. تلك هي الحكاية».

وظلت هي تردد:
«وهل يعرف القتيل بقاتله؟».

فهتف جواد بحماسة شاب عاد لتوه من تظاهرة تدعو إلى الحرية:

«من القاتل ومن القتيل حقاً؟!».

وبعد لحظات تابع جواد حكايته بعد أن لمح في عينيها رغبة في معرفة النهاية:

«وكانت الأرض التي منحت لسليمان الحلبي عامرة بالأشجار البرية، التين والزعرور والزيتون، وقد نمت منذ القديم دون رعاية إلّا أنها منحت سفح التل الكبير المشرف من بعد على المدينة مهابة كرم جبلي غنيّ بالثمار، وقد فتح ذراعيه لاستقبال العابرين والفقراء، فأعطاهم بلا حساب. وكانت سعادة سليمان لا تقدر وهو يرى الناس يستظلون بالأشجار ويقطفون منها ما يحتاجون إليه، فيضطجع على صخرته آمناً كسيد من سادات الطبيعة. كان سليمان يتوق في حياته إلى معرفة الجمال، وكان يبحث عنه في الكتب وهو طالب، فإذ به يجده في الأشجار وفي التربة الحمراء والخنافس الملونة والفراشات الطليقة وأصوات الطيور التي وجدت مأوى لها في الأغصان الكثيفة، وفي خيالات المدينة تبدو له عن بعد كأنها أشباح طيبة تسلي وحدته. تعلّم سليمان التأمل بعد أن قاده الاندفاع الى فعله في تخليص الوطن من وجود المعتدي الذي كان متمثلاً في كليبر. كان استقلال الأرض وما عليها من زعتر بري وأعشاب وأشواك وأشجار زادها الهرم وقاراً. كان ذلك الاستقلال متعة يغفو عليها ويستيقظ، فتستسلم روحه لطمأنينة بعد أن استلبت لحظة الاعدام السكينة منها. كان سليمان الحلبي يستمتع بالحرية.

وذات يوم. حدث ذلك ذات يوم دافىء، سمعت ضجة وتعاظمت في سمعه جلبة أيقظته. تطلّع سليمان بعينين كانت

النشوة تغلقهما بحنان، فإذ بالسفح يحفل بجمع من البشر يحملون المعاول، ومن خلفهم آلات تهدر لم ير مثلها من قبل. كان التراب يتناثر والصخور المتفتتة تتطاير، فطار صوابه وهتف بهم من علّيته متسائلاً عن الذي يفعلونه بأرضه، لكن الآذان لا تسمع، والفؤوس تهوي على جذوع الأشجار تنهش وقارها. وانفجر سليمان الحلبي من حنق استبدّ به أن توقفوا عن ذبح الشجر وجرح الأرض، ولكن الغبار سدّ فمه واختنق سمعه بأصوات الطيور المذعورة. كان العمل مستمراً وكان جزعه يتزايد وعجزه عن دفع الناس من الاعتداء على أرضه التي منحت له تقديراً، يشلّ قدرته، ولكنه بالرغم من ذلك قرر أن يفعل شيئاً.

توجه سليمان الحلبي نحو المسؤول عن المقتحمين لسفح التل. أراد أن يعرف حقيقة ما يجري على أرضه، وهو الذي لم يكن له من قبل ملكية تتجاوز ثوبه وكتبه والقصبة التي يخط بها واجباته ورسائله الى أهله، وهم الذين لا يعرف أحد فيهم القراءة. وكان المسؤول وهو يعطي الأوامر للعمال لا يلتفت الى سليمان في احتجاجه الذي كان يذهب بعيداً عن مسامع الرجل الذي ظهر انه يريد أن يحول السفح الى حيّ سكني يبيعه للناس..».

هتفت أسمهان بعد أن لجأ جواد الى صمت طويل:
«وماذا فعل سليمانك بعد ذلك؟».

«بلع التراب وصمت.

قالت سلطات المدينة للرجل الأشعث وقد بدت ملابسه مضحكة، ولم يكن سوى سليمان الحلبي يلجأ إليهم رافعاً

شكواه، فقالت له السلطات هل يملك وثيقة مكتوبة بملكيته للأرض التي يتحدث عنها، فتساءل عن معنى الملكية، فضحكت منه وأشاحت عنه، فعاد الى صخرته، ثم أوى الى كهف مظلم وجلس حزيناً لا يملك من أمره سوى المراقبة والتحسر..».

تساءلت أسمهان ملهوفة:
«لا تقل لي إن الحكاية انتهت هكذا».

فأدرك جواد أنّ اهتمام المرأة قد استثير، فجعل يتمتم:
«وهل يمكن لحكاية أن تنتهي هكذا؟».

وبالرغم من أن المرأة لم تلتقط كلماته، فإنه لم يترك لها مكاناً لاعادة التساؤل، بل جعل يحكي:
«لم تنته الحكاية. كان كليبر يفكر بعد أن كرّم في أنه قد جلس طويلاً على حصانه محفوفاً بالأزهار والمرج دائم الخضرة وبعيون المعجبين وخطب السياسيين على مرّ السنين. كان يفكر في إجازة يروح فيها عن نفسه، وتذكر خصمه سليمان الحلبي، وقال: أقطع المسافات على حصاني أتفرج فيها على الدنيا، وأرى بلاد الشرق ماذا جرى لها، وأزور مدينة ذلك الرجل الذي كان قتله لي سبباً في شهرتي وتكريمي، وقد أقول له شكراً لك أيها الشاب.

ومضى الحصان به في رحلة طويلة تحمّل مشاقها بصبر الفضولي، فقد كان ما يراه في مسيرته من تحولات طرأت على المدن والقرى والبشر يبعث في نفسه التسلية بعد أن ملّ السكون والوقوف في نقطة ثابتة، وهو إذ يقارن بين مدينته الكبرى والمدن الأخرى التي يمرّ بها في طريقه الى هدفه،

يحس بالتفوق وبأنه خلق حقاً من طينة أخرى غير طينة البشر الذين قابلهم من فوق حصانه، فيزداد إصراراً على الوصول الى مدينة سليمان الحلبي.

ويصل الجنرال المزهو متعباً الى المدينة القديمة وقد انتشرت على امتداد الأفق المتعرج. ألقى كليبر نظرة المعجب على الحجارة العتيقة فأحس بالعراقة، وهكذا بدأت مشاعره بالحسد لصاحبه الحلبي، وقال لنفسه: لا بد أن تكريم الشاب يكتسب رائحة التاريخ الموغل في القدم. وكان المساء، ولم تكن هناك ظلمة، فسأل عن سليمان الحلبي فدلّوه على الحي الكبير الذي يحمل اسمه. وتوجه السائح نحو الحي بحثاً عن القاتل الصديق. وهناك فوجىء كليبر بأن العمارات قـد تكدست كالصناديق المثقبة على أطراف شوارع ضيقة وأزقة مختفية، تنتشر أوساخ على أرصفتها، ويركض الأطفال فيها تسابقهم قطط وجرذان كبيرة الحجم أفزعت الحصان المتعب. سأل كليبر رجلاً يعبر حفرة نحو مسكنه:

«أين يمكن لي أيها السيد أن أجد سليمان الحلبي؟».

فنظر الرجل مستغرباً وهو يجيب:

«أنت في سليمان الحلبي».

ومضى في طريقه. فطرق الغريب باباً فتح له بعد لحظات لتطلّ امرأة تزينت وكأنها بانتظار عاشق طال غيابه، نظرت إليه مستنكرة فسألها عن سليمان الحلبي، فأغلقت الباب في وجهه وهي تصرخ:

«اسأل المخفر».

واستوقف طفلاً يهرول:

«هل تعرف أين يقيم سليمان الحلبي؟».

فقال الطفل مبتسماً كأنه يجيب على نكتة بأخرى:

«هو في كل مكان هنا».

فتعجب كليبر لهذا التكريم الحافل بصديقه اللدود إلّا أنه لم يستطـع أن يعثر على أثر لشخصه، فغلبت الظلمة عليه، وأحسّ باليأس يخالطه التعب،فمضى إلى أعلى التل الذي كان ما يزال عارياً تجرح أقدامه أشواك حادة، فقرر هناك أن يعود بخيبته وقد علم أنه يبحث عن سراب، وشعر في تلك اللحظات أنه يتوق إلى ساحته يقف فيها بانتظار تكريم لا تنقطع أمواجه، فتوجه نحو العودة..».

وكانت أسمهان تخلد إلى الصمت. وجهها يبدو أقل نعومة، وعيناها نصف مغمضتين. وخيّل إلى جواد أنه سمع صوت سقوط حصى على الأرض، فتلفت نحو اللوحة ليجدها وقد فقدت قطعة جديدة من السيراميك، وأنّ التشقق قد لحق ببقعة من الألوان، وأنه الزمن يغزو دار المتعة. وعاد إلى أسمهان ليجدها قد أغمضت تماماً، فلم يعرف إن كانت قد أغفت أو أنها استغرقت في تفكير عميق، فصمت ساكناً كأنه يستعد لحكاية جديدة.

- ٨ -

دعته في اليوم التالي لقضاء وقت في الحديقة كأن شيئاً لم يحدث من قبل، وقادهما سلم حلزوني إلى السطح الذي كان واسعاً تزخر أرضه بالرسوم والنقوش، وتتشكل قبة القيمريات

بروزاً أشبه بحلية أثرية في صدر فسيح، وتحولت النباتات وقد بدت كأنها تنمو في تربة غنية، إلى حديقة معلقة تعكس خير السماء وبركتها.

ظللتهما عريشة من ورد تتساقط بتلاته مع أية ريح ناعمة تهب، فاسترخت أسمهان على أريكة من خشب ثمين، تتسلل أشعة الشمس الدافئة عبر ثيابها، فيضج الجسد الوردي بالحياة. نظر جواد إليها في وداعتها الجديدة، فوجد أن أوصاف كتاب اليوميات لم تعبر بدقة عن فتنة المرأة وجمالها، كما أنها لم تلمح إلى تحولاتها من أنوثة هائجة إلى هدوء وديع يهيّج أكثر العواطف تعنتاً وصلابة، وأحس بجنون جارف يدفعه إلى احتوائها بين ذراعيه وإلى الالتصاق بها، لكن المنتصرة الكبرى، وقد انكشفت أمام باصريه ماثلة كسجادة يشكل جمالها لا تجانساً فطرياً، بدت بنتؤاتها كالزخارف وبتعرجاتها كالأخاديد، فاتنة كالمتاهة. المنتصرة الكبرى هي التي تملكته في تلك اللحظات وهو يفتش عن أسرارها من أعلى نقطة فيها. يا للمدينة المخيفة تدعوك إلى مضاجعتها فتختلط متعتك بها بقتلك على يدٍ لا تعرفها! عذبته في مراكز جنونها أقبية هيمنتها على البشر، وأضاعت والده. وها هي الآن أسمهان أمامه كالمدينةنفسها تدعوك لتغيبك في حواريها وكهوفها. وكانت المرأة تستلقي أمامه بتعاريجهاووهداتها وكأنها دعوة مفتوحة. تذكر فجأة حكاية عن الأقبية.

«حكاية عن حب مظلم».

فتنبهت المرأة إلى إعلانه. نظرت إليه كمعاتبة، ولكنها

سرعان ما أفردت له مكاناً بقربها على الأريكة الواسعة. وبالرغم من حرارة جسدها المهيجة، جعل يقول:

«هل يمكن لكائن ما أن ينزل في جب انساناً حتى يخرج منه وحشاً؟».

فما كادت أسمهان تسمع بذاك التساؤل حتى انتفضت من مرقدها لتنتصب كالزوبعة واقفة، ثم تمشي بخطواتٍ صارمة على السطح، فيسمع لأقدامها التي تحتك بنقوش البلاط البارزة وقع، ذكّره بخطوات السجان نحو زنزانته بعد طول غياب. تقف عند السور الذي كان أشبه بزنار يحيط بقلعة، ثم ترتد وقد غابت الوداعة عن وجهها بينما أشعة الشمس تُظهر بقسوة، حلقات زرقاً خفيفة تحيط بالعينين الشهوانيتين وتهتف بصوت صارم:

«أيّ جبّ ذاك الذي تتحدث عنه!».

ثم بغضب متكتم:

«ما الذي ذكرك بالجب وأنت في أعلى نقطة؟».

وأدرك جواد بغريزته أن للمرأة ما تخفيه، وأن شيئاً ما في سرها قد يفيد في البحث عن أبيه.

قال لها:

«هل يثير الفضول الجبّ نفسه أم ذلك الكائن الذي دخله انساناً فتحول إلىِ وحش؟».

هتفت أسمهان:

«يثير فضولي أنك تعرف أشياء كثيرة».

قال جواد ضاحكاً:

«الأذن تسمع والعين ترى».

وبينما تتيقظ حواس المرأة، كانت تعطي سمعها لحكايته وهي تغطي ركبتها الوردية بطرف ثوبها.

«وقف الجندي حائراً أمام هيئة المحكمة التي أحاطت به كالكماشة التي كان ذراعاها قاضيين متعجرفين تزين صدريهما الأوسمة. كانت التهمة واضحة، فالجندي الذي كان نحيلاً، التحق بالخدمة كي يحصل على طعام أفضل وأكثر. الجندي اتهم بأنه لم يقف احتراماً لقائده، فامتثل الجندي للاتهام، غير قادر على فهم ما يدور من حوله ولا إدراك ما حدث له منذ بداية المشكلة وحتى هذه اللحظات.

«هل أنت مذنب؟».

ففكر في معنى تلك الجملة، وقرر أن يقول لا إلاّ أن الحكم كان قد صدر: «يرمى بالمجند يوسف بن أيوب إلى الجب، ويضلّ فيه إلى أن يصدر القائد عفواً عنه».

كان الجب ثقباً في الوادي الصخري الذي تعسكر فيه الفرقة. وكانت فتحته تتسع لجسد آدمي، وهو كالزجاجة يؤدي عنقها إلى جوف كبير، تبتعد أرضيته السحيقة عن الفتحة كثيراً، فإذا ما أنزل السجين فيه وأغلق عليه، ظن نفسه في قبر هائل. لم تكن الأشباح هي التي تسكنه وحسب، بل الجرذان والرطوبة والوحشة القاتلة.

وهكذا استسلم يوسف للقدر الذي كتب عليه، ولكنه لم يستطع أن يفهم سرّ العقوبة التي وقعت عليه، فهو جندي لا يخالف أمراً لمن هو أعلى رتبة، بدءاً من الرقيب الذي يتلذذ بالسخرية من بساطته وانتهاء بأعلى قائد للفرقة لم تكتحل

عيناه بمشاهدته. وكان يوسف المحدث الخدمة لم يرَ خلال شهوره القليلة الأولى شخصية مهيبة في الفرقة إلّا في اللذين حاكماه. وهكذا فإنه لم يعر انتباهاً للأمر عندما صرخ الرقيب بالجنود المستلقين على فرشهم في المضجع: «لقد جاء لقد جاء»، فهب الجميع من أسرّتهم واقفين في لحظة استعداد، وكأن أحداً ما يستنهضهم قبل الدخول في معركة حاسمة. ظلّ يوسف مستلقياً على فراشه كما سيقول بعد ذلك لأنه لم يلحظ أحداً قد جاء. كان يفكر في حبيبته التي وعدته بالقبلة الأولى إذا ما عاد منتصراً من الحرب التي قيل أنها على الأبواب فلم تأت بعد، وقد نسي النحيل أن على الجميع الوقوف احتراماً لقائد الفرقة لمجرد أنه اقترب من حدود المعسكر الجبلي أو أن موكبه قد أحدث جلبة على بعد ألف متر. كان الدرس قاسياً، وقد أخطأ يوسف في التقدير فكان مصيره الجب.

وتبتدىء العقوبة. في اليوم الأول ظلّ السجين يصرخ من قاع الظلمة ويقسم أن يقف احتراماً ما بقي له من عمر لكل شخص يطلب أن يقف له، ولكن أحداً لن يسمع شكواه أو قسمه. وفي الأيام التالية لن يسمع أحد نحيبه، وفي الأيام المتعاقبة التي لن يكون فيها تمييز نهار من ليل لم يخرج صوته من فمه لكثرة ما نسج الذعر من خيوط عليه.

قيل إن الشاب المسكين كان يوقت حبسه في الجب خيط الضوء الذي يتسلل من الفتحة العالية مع وجبة الطعام الوحيدة ترمى إليه مرة واحدة في اليوم. تعلم كيف ينام واقفاً حتى لا تقضم الجرذان أذنيه أو شفتيه، وكان يقيس الحفرة بخطواته ويحفر الصخر بأصابعه. يسلي نفسه بذكرياته الفقيرة والتي لم

يكن فيها سوى أب أعمى وجارة طيبة تقدم لهما المساعدة بين حين وآخر، ولم تكن هناك سوى الصبية التي كانت تمّنيه بوصال لم يتحقق وأيام دراسة لم تستمر وفترة عمل قصيرة في الفرن يقف أمام لهب حارق، إلاّ أن النحيل استطاع بعد فترة خلق ذيول لتلك الذكريات إبعاداً للوحشة في الجب. الأعمى بات يرى بعد أن غسلت دموع الفراق على ابنه الوحيد، الغشاوة عن العينين المظلمتين، والجارة تقيم فرحاً لعودة الفتى من غيبته وتعلن للجيران أن يوسف هو كالابن لها، والصبية تهتف أقبل بك حبيباً وزوجاً للمستقبل.

وهكذا استطاع أن يستأنس الأوهام والجرذان التي تشاركه الطعام وكفّت عن مهاجمته. لكن الزمن يطول به في الجب، إلاّ أنه لم يكن قد يئس بعد من أنهم سيغفرون له، وسيخرجونه من وحشته فبات يكتب على الحائط بأظافره كلمات التمجيد لقائده ولكلِ القوّاد في العالم..»

وإذ يتأمل جواد أفق المدينة الملتف على بصره، ينقطع عن الكلام فترة من الزمن» تهتف أسمهان:

«وماذا حدث بعد ذلك؟»..

يكمل هو كأنه يريد أيضاً أن يصل إلى نهاية الحكاية.

قال: «جاء فتيان من المدينة بصحبة ابن القائد، وقد وعدهم بتسلية لا تنسى، فالتف الجند من حولهم بالترحيب والتهليل وبالهتاف لحياة قائدهم. وجعل الجند يتسابقون في اظهار براعاتهم وحيلهم، تقرباً من الابن وصحبه وإظهاراً لاحتفائهم بهم. قام جندي بالتصويب الماهر من بندقيته، وتسلّق آخر ظهر جواد كفارس جاهلي يقطع به المعسكر جيئة وذهاباً بحركات

بهلوانية وصراخ همجي، وتصارع اثنان من الجنود كديكين شرسين وجسداهما ينضحان عرقاً وخدوشاً. إلاّ أن شيئاً من كل ما أحدثته الاحتفالات لم يذهب بالسأم عن ابن القائد الذي كان فتى يحب المفاجآت فعاتب أهل المعسكر أنهم لا يعرفون كيف تكون التسلية، وأن أمل رفاقه قد خاب دون شك، وألمح إلى أن والده لن يرضيه أنه جاء وخرج من المعسكر دون فائدة، فانبرى واحد من الجنود، كان يوسف يحبه ويأنس إليه في الأمسيات، وقال إن مفاجأة لا تنسى موجودة في المعسكر ولا بد أن اخراجها من الجب ستثير الدهشة. آنذاك تذكر ضابط المناوبة ذلك النحيل الذي نُسي منذ أشهر طويلة في سجنه، ولم يصدر عنه بعد أمر بالعفو، فقرر اخراجه لعرضه على الضيوف القادمين من المدينة يسليهم ثم يعيده إلى جبّه.

أنزل السلم من الثقب، فلمعت أعين الفتيان انتظاراً للمفاجأة. وكانت لحظات مثيرة تلك التي سبقتها همهمات تخرج من الجب وكأنها لوحش جائع، فتوثبت الحواس واتجهت الأبصار نحو الفتحة، ليطل يوسف برأسه منها. ولم تكن المفاجأة هي التي تنتظر ضيوف المعسكر، بل أهله أيضاً. كان حشد كبير من الفضول يحيط بفتحة الجب، ورفيق يوسف الذي دلّ عليه يقف بالسوط بانتظار خروج السجين لتأدية نمرة مسلية تمنحه رضا القائد عبر ابنه الفتى. كانت اللحظات حاسمة حين أطلّ يوسف بشعره الكثيف ولحيته الطويلة ورائحته النتنة تسبق اطلالته. هتف فتى من أهل المدينة: «الوحش».

فتراجعت أجساد المنتظرين تحسباً لما يمكن أن يحدث.

وكان الضوء حاداً فأغمض يوسف عينيه اللتين لم تريا النور منذ زمن، وغطى وجهه بكفيه اللذين نمت الأظفار فيهما كخناجر يغطيها العفن، ودار بملابسه الممزقة دورة حول نفسه، فبدا قميصه كقشرة ثمرة جافة تخلخلت فكادت تسقط عنه. وهمهم بصوت حيواني لم يفهم أحّد له معنى. وسقط السوط على جسده. فصرخ والصوت يخرج من حنجرة يابسة، فرددت صراخة سفوح التلال المحيطة. هتف فتى من أهل المدينة: «الوحش»، فارتج على الفتية الآخرين، كما أن الخوف تلبس عدداً من الجنود، فاتسعت الحلقة من حول السجين، وكانت تتسع أكثر فأكثر كلما توالت الصرخات، إلى أن انفرط عقد الجمع، وبات الفضول هرباً. وكان الوحش يتقدم من حامل السوط، والهواء النقي قد منحه قدرة نسر مصاب فجعل يتحرك في كل اتجاه بينما الذعر ينتقل إلى الجميع فيهربون، حتى أن الرفيق القديم حامل السوط خشي على نفسه من يوسف الذي فاق بصراخه الوحش نفسه، فرمى بالسوط أرضاً وجعل يعدو هو أيضاً. وامتزجت استغاثات الفتية بتحذيرات الضابط بكلمات يرددها الجميع: «الوحش.. الوحش»، بينما السجين يركض ويهمهم صارخاً، فلم يذكر بعد ذلك إن كان صراخه احتفالاً بحرية مفتقدة أو ذعراً من الآخرين.

بعد صمت، قالت أسمهان وكأنها تعاني من مغص حاد:

«وماذا حدث للوحش بعد ذلك؟».

«وضع الضابط حداً لتلك التسلية القاتلة، فصوّب سلاحه على السجين الذي كانت طلقة واحدة كافية لاسقاطه على تراب المعسكر دون حراك. وبعد ذلك طَويت صفحة من الذعر،

وأثارت الجثة الهامدة استحسان الفتية القادمين من المدينة، وبات هدوء أنفسهم المضطربة مكافأة للضابط الذي استطاع أن يقتنص وحشاً طالما أقضّ بخطره مضجع المعسكر لسنوات طويلة، فعادت الطمأنينة إليه بعد اضطراب وهلع».

- ٩

المدينة ما زالت تتنفس بهدوء، ولكن خروج أسمهان تحول إلى عاصفة أحدثت اضطراباً في المشهد الذي كان جواد يتأمله. استبد الغضب بالمرأة، فكادت تتعثر وهي تهبط السلم وأحس جواد وهو يلحق بها إلى القاعة أنه سيعثر على سرّ ما قد تكون له علاقة بحكاية يوسف الوحش. ويقول لنفسه إن الوقت قد حان ليستفسر منها معرفتها بعبد الكريم أو مصيره، إلّا أنه لم يجدها في مقرها، وكانت القاعة خالية من أي إنسان.

وقف من جديد يتأمل اللوحة الجدارية، فكانت أجزاء قد تساقطت طبقة الألوان منها، أو قطع الفسيفساء كأن مرضاً كذاك الذي يصيب الجلد قد لحق باللوحة الكبيرة. هل هو الجذام؟ فارتعشت أوصاله لذكر المرض الخبيث وهو الذي رأى بأم العين معسكراً ذات يوم جمعت فيه أجساد بشرية لحق بها شيء كالجذام، وقيل له إنه مرض نفسي أصاب من فقد القدرة على التأقلم مع المجتمع الذي ظن أنه ما يطمح إليه في حياته. ويذكر جواد أنه حنّ آنذاك إلى بلده، ولكن الفرصة لم تكن مواتية له إلّا بعد استعطاف أمه في العودة.

ووجد في المكتبة فرصة للهرب من اللوحة، فجعل يقلب

مجلداتها المطبوعة والمخطوطة، وأدهشه أن يرى فيها مجلدات بلغات مختلفة لم يستطع أن يتعرف واحدة منها بالرغم من معرفته الواسعة بعدد من اللغات الحية، إلّا أن الذي أثار استغرابه مخطوطة ضخمة كتبت بحروف عربية ولكنها غير مفهومة، وأنها لغة قديمة أو لغة مرموزة لا يكشف عن فحواها سوى الرسوم التوضيحية والخرائط التفصيلية لأجزاء من جسد الإنسان، كشفت الألوان الصارخة فيها أسراراً دلت على أن المخطوطة كتاب علمي يفصل الإنسان عقلاً وروحاً. وجعل جواد يقلب الأوراق السميكة باهتمام يخيّل إلى من يراه أنه يقرأ محتوياته بيسر، وبالرغم من أن المعادلات التي ملأت عدة صفحات كانت بتلك اللغة المرموزة، فإنه قدّر لها أن تكون مفتاحاً لإدراك جواد أن الكتاب يبحث عن سرّ خلود الإنسان، وأنه كتاب سحر بأسلوب علمي، فقال لنفسه لو أن الظروف أتيحت له في البقاء مدة أطول في الدار لعمل على فك جميع الرموز، وكأن فكرة الخلود أو المحافظة على الشباب هي الهدف الذي يكمن في روحه طموحاً مشروعاً. وقد دلته صفحات من المخطوطة على أن الكائن الحي يظلّ محتفظاً بحيويته وفتوته إذا ما عاش على كائنات بشرية أخرى يستمد منها استمراره، بينما هي تفقد قدرتها على الاستمرار. هتف جواد فجأة:

«أهذا هو سر أسمهان؟».

هل يعقل أن المرأة قد احتفظت بمثل هذه الحيوية والجمال بل الشباب لأنها استنفدت حيوات رجال لا حصر لهم؟

من هم أولئك الرجال؟

أين هم الآن؟ وهل يمكن لعبد الكريم أن يكون واحداً من ضحاياها؟ وأين هو عبد الكريم الآن؟

توقف عن المحاكمة عندما سمع صوتها. جاءته دعوتها من عمق عميق، فأغلق المخطوطة وتوجه نحو موقع الصوت، فكانت تقف بقامتها النورانية أمام فراشها الذي كان كمخدع تنزل من أعلى السماء بخيوط شفافة. وهي تبتسم له، أحس كأنه مقدم على صديق قديم يريد أن يعبر عن افتقاده لأيام جميلة مضت. وكان لا بد من حكاية جديدة يفكر في حبكة مثيرة لها، فأسمهان بدت عن بعد أكثر إثارة من أي وقت آخر، كأنما دهنت برحيق يجتذب أبرد الرجال عاطفة، وكان لطغيان أنوثتها في تلك اللحظة الأثر في سحق أي مقاومة. وبالرغم من كل شيء، تقدم نحوها وهو يحاول أن يتجاهل ذلك الشق في الثوب الأملس، وقد امتد من بطن الساق حتى الصدر فظهر وكأنه انهدام في لحم يبتلع من يقف أمامه أو ينظر إليه. همهمت بسحر رددته بالرغم من خفوت طبقته جدران القاعة:

«اقترب مني أيها الجميل فقد اشتقت إليك».

وآزاحت بمنكبيها طرف الستار المرتعش لتجلس على طرف الفراش، فاقترب جواد خطوتين، وهتفت هي بوله:

«تعال إلي ودثرني».

وتقدم هو خطوة واثقة، تبعتها خطوة مترددة، فسمعها تقول:

«لن يطفىء الحريق سواك».

وجعلت تفح بصوت متكسّر:

«جواد.. جواد.. أيها الجميل الجميل».

وكان هو يفتش في زوايا تفكيره عن حكاية ما إلى أن هتفت هي مستجدية:
«يصيبني الجنون إذ أراك، فهيا أرني نفسك كما خلقت».

تذكر حكاية زائلة، غابت في ثنايا التفكير، إلّا أنها ما لبثت، لحاجته إلى شيء يحكى، أن تجمعت أشلاؤها وبدأت في التشكل من جديد. كان قد بدأ يصبح أكثر وثوقاً من قدميه الواقفتين على البلاط المرمري. هتف جواد:

«هل أحكي لك أمراً لم تسمعي بمثله من قبل؟».
قالت هي والرغبة تشتد فيها:
«اقترب مني».
فقال هو، وكأنما يختبر قابليتها للاندهاش:
«قصة الملك والعدل!».
فتساءلت بفضول:
«أي ملك؟».
أجاب كمعلم في اختراع الحكايات:
«الملك الذي نشر العدل»
«نشر العدل!».

ونظرت إليه مرتابة كأنما تريد أن تتبين سخريته المبطنة من سذاجته التي ظهرت على وجهه، فزاد حسنا في نظرها، فأصغت إليه باهتمام.

«كان الملك مغرماً بالعدل.

سمى الملك دولته الصغيرة الممتدة ما بين جبلين متقابلين منذ أن ولدت الخليقة، بمملكة العدل. وأطلق على ابنه البكر فورَ

ولادته لقب الأمير العادل. وأصرّ على أن يكون الكوخ الطيني الذي يحكم منه أرضه وشعبه، والذي تماسكت جدرانه مع السقف الكبير بدعامات خشبية، أصرّ أن يكون بيتاً للعدل. لذا فإن الملك الذي أغرم بالعدل لم يقبل أن يستقبل مظلوماً من الرعية إلّا ويكون الظالم معه يقف إلى جانبه، فالعدل لا يتحقق عند الملك إلّا بالأشياء ونقيضها، وقد باركه الحكماء على هذا، واعتبروا الملك مؤسساً لفلسفة العدل.

وكانت مملكة المغرم بالعدل قد تكونت مع مرور السنين وانقسمت مع تطور الأحداث إلى قسمين، الأول كان فيه الملك يقيم مع الحاشية والحرس وأصحاب الغابات والأراضي المزروعة وكذلك الحكماء، وفي الطرف الثاني كان شعب المملكة يعيش فيه ويأوي أفراده إلى الأكواخ الصغيرة والكهوف المحفورة في السفوح، وذلك بعد تعب في الزراعة أو البحث في أعماق الجبال عن المعادن.

وفي بحثه عن العدل، كان الملك لا يرى مانعاً في أن يعتدي واحد من الذين يعيشون في القسم الأول من المملكة على آخر من أهل القسم الثاني، كي يتاح له فرصة في إقامة العدل تحت مظلة كوخه الكبير. وكثيراً ما كان يمضي على منصة الحكم والفصل بين المتخاصمين أياماً بطولها، وهو يستمع إلى الأقوال المتناقضة وإلى الشهود مهما كان عددهم. وكثيراً ما كان الفرح الذي كان من صفات الملك الشخصية يدفعه إلى معاقبة المظلوم لأنه أعطى الفرصة للخصم كي يظلمه، ويعفو عن الظالم لأنه منحه فرصة كي يتسلى بلعبة العدل.»

قالت أسمهان وهي ما زالت تصغي باهتمام إليه:

«كنت أعلم أنك ستقول عن العدل إنه لعبة».
وعلق جواد بكلمات مثيرة قبل أن يكمل الحكاية:
«ستصبح اللعبة أكثر تعقيداً».

قال: وتعاقبت الفصول ومرت الأزمان، فكبرت المملكة واتسعت رقعتها لتحتل رؤوس الجبال والتلال ولتمتد إلى ما خلفها من سهول وينابيع ومساقط أنهار. وأحسّ الملك بوطأة الحاشية عليه، وقد تململت من لعبة العدل التي تمسّك بها الناس وجعلوا يتحدثون عنها في حياتهم اليومية، وتطول ألسنة بعضهم في الدفاع عنها، فكان الملك ذكياً إذ يعلن أنه ملّ العدل، وأنه يريد شيئاً جديداً يتناسب والأهمية المتزايدة لمملكته، التي تتوسع وتنمو لتحقق وجوداً خطيراً بين الممالك الأخرى، فقال إنه يريد شيئاً جديداً غير العدل يزجي به وقته.

وأنكب الحكماء على التفكير في بديل من العدل، يصبح دستوراً لملكهم ووسيلة يسلّي بها نفسه التي لا يمكن لها أن تعرف الملل، وإلّا حلّ الخراب وعمت المصائب. وبعد أن كان العدل هواية له كان لا بد من شيء يشغل الملك نفسه به، فاقترحوا عليه أن يسنّ القوانين المكتوبة بعد أن اعتادت المملكة عليها شفوية لا سند لها في جلد أو ورق، فلاقت الفكرة هوى عنده. أصدر الملك أوامره إلى كتّابِهِ، فانشغلوا في تدوين أفكاره وآرائه، لتصبح قوانين تعلق على الجدران وتحفظها السجلات في الخزائن. ولما كانت غالبية الناس لا تعرف القراءة، فقد ظلت القوانين بعيدة عنهم لا يدركون لها معنى.

ثم أن الملك، وقد انتهت لعبة تدوين القوانين، أصيب بالملل

من جديد. أريد شيئاً جديداً ومسلياً. هكذا صرح للحاشية من حوله وهو يميل برأسه إلى مسند العرش الذي يمضي جالساً عليه الوقت كله. فاقْتُرِحت عليه للتوّ لعبةٌ هلل لها، وقبلها. وهكذا فرضت (الابتسامة) على وجوه الرعية كافة من نساء ورجال، مهما كانت مراتبهم. وبات من بلغ الحلم، مجبراً على أن يحمل ابتسامته ليل نهار، في عمله وفي بيته، ولن يغفر له مرض ألمّ به أو موت لحق بمن يحب. والذي يضبط متلبساً بهروب الابتسامة عن محياه، متهم بمخالفة القانون، فيحضر إلى الملك الذي سيفرض عليه العقوبة المناسبة. ثم إنّ الملك فرح بالنتائج المبهجة بعد أن عمت الابتسامة أرجاء ملكه، فغيّر اسم الدولة لتصبح مملكة السعادة. وظلّت الرعية المطيعة ملتزمة بالقانون الملكي، تمشي في الشوارع والأزقة وتذهب إلى الحقول والجبال والدكاكين، لا تفارق الابتسامة وجوهها. وهكذا لم يحظ الملك بمتعة محاكمة مارق واحد على أمره، فتسرب الملل إلى قلبه، وطالب بتسلية أخرى يطول أمدها، فلا حكاية العدل طالت ولا تدوين القوانين ولا لعبة الابتسامة، فهو يريد شيئاً يشغل اهتمامه ويسد عليه أوقاته، وأن يكون ذلك الشيء قائماً لعشرات السنوات القادمات، فقد كره التغيير والتجريب، ويريد أن يعرف الاستقرار في متعة ومباهج أيامه. وهو لمثل هذا الطلب لوح للحاشية من حوله مستشارين وحكماء بمكافأة لا يستهان بها، فصاحب المشورة المقبولة يصبح الوزير الأول دون جدال. فعكف الرجال على التفكير ليل نهار بحثاً عن فكرة يتقدمون بها علّها تصيب هوى عند مليكهم، ولكن فكرة واحدة لم تكن مقبولة، فازداد قلق الملك الذي تحول إلى غضب أرعب رجاله من حوله، فأعلن أنه سيعلن الغضب شعاراً لحكمه إذا لم

يتوصل أحد إلى طريقة تحقق طلبه، فهمس ذات ليلة حكيم في أذنه أنه اكتشف وسيلة لا تسلي الملك وحسب، بل تجعله أيضاً يقف على أرض صلبة تمنحه القوة وتشعره بالعظمة الدائمة.

قَبِلَ الاقتراح.

وابتدأت التجربة الأولى للتو والحال.

جاء عمال الجبال بقطعة كبيرة من الصخر المهذبة سماها الحكيم بالبلاطة، فوضعت على أرض الكوخ الخشبية، وطلب من الملك أن يقف عليها لحظة فوقف مستسلماً وهو يكاد لا يفهم شيئاً فارتفعت قامته ليحسّ بنشوة أخفاها عن عيون الحاشية التي لم تكن بدورها قد فهمت ما تريده الصخرة. قال الحكيم: هكذا يكون الملك ثابتاً، والثبات يعني القوة والقوة هي المهابة، وأما المهابة فهي التي تفرض على الجميع القانون، والقانون يمنح العدل للمملكة، والعدل يوزع الابتسامة على الوجوه.

كانت البلاطة اللامعة قد اقتطعت من الجبل، فاقترح الحكيم أن يستبدل الكوخ الذي يخص الملك ببناء من حجر، فهلل الملك للفكرة فأمر بها، كما تقرر أن تكون بيوت الحاشية الجديدة من حجر يستبدل به ما كانت الأكواخ عليه من خشب وطين وقش. وهكذا ابتدأ العمل الذي سيطول ويطول، وباتت القاعة التي يجتمع فيها الملك بحاشيته تسمى (بالبلاط) تكريماً لأول بلاطة أقنعت الملك بالفكرة، وأصبح رجال البلاط أكثر قوة مما كانوا عليه، وقد بات فيهم من يشرف على المقاطع ويدير شؤون العمال الذين يحضرون الأحجار بأنواعها كي تتحول إلى قصور وأسوار، وتفتقت مواهب وطاقات مجهولة عند بعض

البنائين، فاخترعوا زخرفة ونقوشاً تميز قصر الملك من غيره، ومنزل مستشار من مستشار وفقاً لأهميته وثروته. وخطط كبير المهندسين، وهو حكيم اشتهر بأفكاره المنتظمة فمنح ذلك اللقب، خطط لبناء ملحق بقصر الملك، فكان ذلك البناء معبدا، بحث له رجال البلاط عن وظيفة، فكان لا بد من طقوس تقام في ذلك المعبد، وهكذا أصبح للمملكة دين. واحتاج الدين إلى كهنة، فتحول رجال أقوياء من أهل البلاط إلى سدنة لذاك المعبد، فاخترعت تعاويذ وصلوات وتسابيح باسم الملك تمجده وترفع له طاعة الناس كي يرضى عنهم.

وظهرت طبقة من الوسطاء تقدم لمشروع الملك في ترسيخ الحجر، عمالاً للزينة في الحدائق وآخرين للمطابخ وغيرهم للخدمة في البلاط أو للتسلية في المخادع. وظهر نوع من الطموح بين سكان المملكة الذين كتب عليهم البقاء في الأكواخ الطينية والمغائر الجبلية، فباتوا يتنافسون للوصول إلى مرتبة ما تقربهم من سكان المنطقة الحجرية، فظهر النفاق قوياً وبرز التملّق بأشكال لا حصر لها. وعاشت المملكة عصراً من الحركة والنشاط لم يعرف من قبل، فدخلت البهجة قلب الملك، وباتت مراقبته المستمرة لما يجري حوله من تحولات، متعة يدين فيها بالفضل لعصر الحجر الذي كانت قيمته تترسخ مع مرور السنين، فما عاد يعير اهتمامه أي أمر آخر، وأمسك بزمام الكثير من الأمور والشؤون رجال من البلاط كانوا يديرون دفة الحكم على هواهم، فجندوا الرجال لاحتلال ممالك مجاورة فزادت ثرواتهم وتكدست الأموال في خزائن المملكة، وكانوا يتفقون أحياناً على أمر بينما يختلفون في آخر، فظهرت المؤامرات والدسائس، وتفشت بين ساكني الأكواخ والبيوت الطينية أو

الخشبية، تفشت رغبات في التعبير عن حقوق لهم في الحياة، فسنّت قوانين جديدة للعقوبات التي تقضي بالعذاب وأحياناً بالموت على من يرفع صوته باعتراض أو احتجاج، بينما الملك السعيد يدرك يوماً فيوماً أن الحياة ما عادت قابلة للملل بأي حال من الأحوال فيزداد استغراقاً في تأمل ما آلت إليه الأحوال».

ـ ١٠ ــ

ظهرت بوادر الهلوسة على أسمهان. فقد طلع عليها الصباح التالي، والضوء يتسلل من زجاج القيميرية فلا تعيره ابتسامة ما كعادتها. مشت في قاعتها كاللبؤة ثم توقفت مفجوعة بقطع من اللوحة قد تساقطت حجارتها وألوانها، فانتشرت كالوشم على البلاط. مالت تلملم قطع السيراميك الملون بحرص وخيبة وهي تتمتم:

«أما عدت مرغوبة؟»

وعندما رفعت رأسها تنظر في وجه جواد الذي جلس بعيداً. كانت ظلال من القسوة تسقط على تفاصيل وجهها فتبدو له كأنّ الرغبة قد انطفأت في بشرتها. وعندما دخلت الخادم بعربة الافطار طردتها. كانت أسمهان كامرأة هرب النوم منها فلم يبق من فتنتها سوى الاعياء، فتماسكت حتى لا تطير القوة بعيدة عنها، وصرخت:

«ماذا تريد؟».

ثم وهي تمشي بخطوات مضطربة تتمتم بصوت مسموع:

«أريد مرمماً يعيد لوحتي إلى ما كانت عليه».

وتدور حول نفسها في حركة حلزونية، وتقول لنفسها:

«ماذا يريد هذا الرجل أن يقول؟».

وتقترب من جواد حانقة:

«ألا تحب النساء؟».

فيهتف كطفل مذنب:

«أنا انسان سوي.. أنا أحب النساء».

فتهتف بصلابة:

«أولست امرأة من النساء؟».
فيقول وقد غمرته موجة صدق عاتية:
«أجمل النساء.. أجمل من رأيت».
فتقول بتوسل:
«ألا تريدني؟».
فيهتف:
«بلى.. أريدك».
فتتوقف بائسة في مكانها كأنها فقدت القدرة على اعطاء نفسها، وتلقي نظرة متشككة على جواد وتلوي عائدة لتتوجه إلى غرفة بعيدة لتختفي فيها.

أدرك جوادأن مخططه يمشي في الطريق التي رسمها له، فعاد إلى اللوحة يتأملها فقد كانت بحاجة إلى أيام وأيام يقضيها المشاهد أمامها ليفهم سرّ تكوينها وتفاصيل مواضيعها،

كذلك كان بحاجة إلى فهم سر تآكل أجزاء منها خلال اقامته التي لم يستطع أن يحصي أيامها بعد. وهكذا جعل يفكر في أثر الزمن على جسده وعقله. هل أصابه تسارعه العجيب؟

بعد حين لا يعرف له توقيت، فتح جواد عينيه ليرى المرأة قادمة وقد تعرت إلّا من سروال ضيق يعتصر جسدها كأنه يريد أن يدخل تحت الجلد، وشال لا تستطيع ثقوبه أن تستر الثديين. كانت أكثر اشراقاً وقد استعادت شيئاً من اغرائها السابق. استلقت على الوسائد، وقالت بدلال اقترب مني، فوجد نفسه يقول لها وقد كادت الغريزة أن تستيقظ فيه:

«أريد أن أكون لائقاً بك».

وهبّ واقفاً وهو يستجمع عقله، ثم ما لبث أن هتف:

«تذكرت حكاية البغل والحصان».

فتنبهت حواسها، فبدت مصغية إليه بحركة شبه آلية.

«كانت الساحة الخضراء مرتعاً لخيول السباق الأصيلة. تمشي على مرجها النضر بخيلاء، وتتيه فخراً بالعناية المحاطة بها في كل خطوة من حياتها، وقد أحاط بها المدربون فكانت تجري كالريح في مجرى السباق وتقفز من فوق الحواجز كأبطال مجنحين، وإذ يفوز أحدها في سباق، يتوج بالهتاف والدلال ويجري من خلفه فريق من السياس والخدم كأنه أسطورة قادمة من فجر التاريخ.وكانت المروج الخضر تعطى لنادي المدينة امتيازاً، فكان الأعضاء المشاركون كالخيول الفائزة أبداً، يتمتعون بالشمس الدافئة والأرباح المتدفقة والخدمة الكاملة، يحيط بهم فريق من السقاة والخدم، لا همّ له سوى ارضائهم وتقديم المتعة لهم. وكان النادي الذي يتوسط

المدينة، قلباً ينبض بالطمأنينة والسعادة لأهله، ويخفق بالمفاجآت والاحتمالات للمترددين إليه من أجل متابعة السباق. وقد حدث ما حدث، فساد ذعر، واعتبرت ادارة النادي أنه نذير بخطر قادم..».

واستوت أسمهان جالسة، فردت على الجسد العاري طرفاً من المعطف الفرو كمن يحس ببرد مفاجىء، بالرغم من دفء المكان الذي يشبه في اعتداله الجنة في طقسها المتخيل. تساءلت ملهوفة:

«ماذا حدث لكي يكون هناك خطر قادمَ؟».

«جاء البغل ذات صباح. كانت العربة، التي يجرها البغل، تحضر العلف كل يوم، فيقوم صاحب العربة بربط البغل إلى وتد خُصص له بالقرب من الاسطبلات، ثم يمضي بها يدفعها بساعديه نحو الجرن يفرغ فيه العلف المخصص للخيول.

في ذلك الصباح نظر البغل حواليه كعادته يسلي انتظاره، فلمح حصاناً أبيض يقوم اثنان من الرجال بتدليك جلده، فقال لنفسه:

«حصان مخنث!».

ثم تطلع إلى الطرف الآخر، فكان ثمة حصان أشهب يؤدي تدريباته في القفز من على الحواجز، فكان رشيقاً أثار حفيظة البغل، فرفس الهواء بساقيه ثم شد رباطه ضيقاً فإذا بالرباط ينحل من الوتد. وهكذا وجد البغل نفسه طليقاً، توقف لحظة غير مصدق فأطلق في الجو صهيلاً، فلم يكن سوى حمحمة بغل غاضب، فتنبهت الخيول القريبة إلى الصوت العجيب لتتطلع

إلى مصدر الحشرجة بأنفة واستعلاء، ولم تعر الغريب أي اهتمام، آنذاك هتف البغل بعناد:

«ولم لا؟».

تساءلت أسمهان وكانت لا تزال مقطبة:

«ماذا يعني البغل بقوله هذا؟».

فقال جواد مرحاً وهو يقلد صوت بغل:

«لم لا أكون مثلهم سريعاً؟ ولم لا أحاط بالعناية مثلهم؟ لم لا أركض بحرية؟

وقفز في الهواء بكل قوته، فما كان منه إلّا أن سقط على قوائمه الاربع ثم انه سرعان ما تجاوز فشله الاول، واسرع باتجاه حاجز يريد ان يطير من فوقه، إلّا انه اصدم به ليقع على الأرض، ولكن القوائم سترتطم به ويقع على رقبته. وكان صاحب العربة قد تنبه اخيراً إلى أن البغل ليس في مكانه المعتاد، فتطلع بحثاً عنه ليجده يحطم الحاجز الخشبي بقائمتيه الخلفيتين. كان البغل قد قرر الانتقام من تلك الحواجز اللعينة. صرخ صاحب العربة آمراً اياه بالعودة، لكن البغل كان قد قرر أن يجري طليقاً في حلقة السباق، فانطلق بجنون من امتلك حريته بعد عذاب.كانت حوافر البغل تثير التراب المتطاير مع العشب الذي يقتلع من مكانه،فمضى السياس والخدم من خلفه يريدون الامساك به، إلّا أن اندفاعه في الجري لم يترك مجالاً لأحد أن يصل إليه، كما أن الخيول جعلت تهرب من طريقه، وتأثرت خيول الاسطبلات المرهفة الحس، فجعلت تتدافع هرباً

كأن خطراً ما سيداهمها. وأما المباني في الطرف الآخر من الساحة فقد سادها هرج، إذ يقترب البغل كالقذيفة الطائشة وهي تتحرك في مسار متعرج كأنها تريد أن تصيب أكثر من هدف. وتقاطر عشرات الرجال من كل جهة من جهات النادي، يريدون ايقاف الهجوم الصاعق للبغل، ولكنه لم يستسلم لأي منهم ولم يرضخ للعصي المشهرة في وجهه، فخرج عن مسار حلقة السباق يدوس أحواض الأزهار وهي تحيط بالمقاعد والطاولات التي تطايرت من هول رفساته التي كان يرسل بها في كل اتجاه، فيهرب الناعمون بحرارة شمس الصباح وهم يتصارعون طلباً للنجدة ولإيقاف تلك الوحشية الطارئة على ناديهم. ومضى البغل من جديد عائداً إلى درب السباق يناطح المسافات بخيلاء، وأن هياج الناس والخيول هو الثمن الذي قبضه كتصفيق وتهليل لبطولته».

توقف جواد لحظة وهو يتأمل المرأة التي اختبأت في الفرو، فلم يعد ظاهراً منها سوى وجه يحمل آثار جمال قديم، فأشفق عليها وقرر أن يصمت، إلّا أنها ما لبثت أن هتفت به مستجدية:

«ثم ماذا حدث؟»

فأجاب جواد، وهو يأخذ مكاناً بالقرب منها:

«كان لا بد للبغل من أن يتعب.

وعاد البغل، إذ ينهي دورة السباق، إلى حيث انطلقت ثورته. اقترب من الوتد الذي يربط إليه عادة، وأحنى رقبته التي ظلت مرتفعة طوال فترة الجنون. كان يبدو وكأنه ينتظر صاحبه أن يشده من جديد إلى المصير الذي طالما كتب عليه..»

هتفت أسمهان منتصرة:

«وأخيراً عاد عقله إليه».

فأكمل جواد حكايته قائلاً:

«وعاد عقل البغل إلى رأسه، وطار عقل الآخرين دون ريب».

«ماذا تقصد بقولك هذا!».

«سكن الذعر عقول أهل النادي، فقد ظلّ هياج البغل هاجساً يؤرقهم فلا ينسون ما حدث أبدا».

- ١١

وسيكتشف جواد سراً من أسرار دار المتعة. كان الليل قد انتصف، وأسمهان تبدو كالمحمومة في فراشها البارد وحيدة تتقلب بين حين وآخر، حين يكتشف جواد مصادفة ذلك اللوح الزجاجي الذي كان مختبأ وراء ستار من قطيفة خضراء. كان الكشف عن ذلك اللوح هتكاً لسر من أخطر أسرار أسمهان. نظر إلى الزجاج مذهولاً، وقد بدت فيه تباعا تفاصيل الطابق الأرضي، بهوه الكبير وغرفه الواسعة. كان المشهد عبر اللوح متناوباً كعين حراسة لا يخفى عليها شيء. وبالرغم من تقلب مشاهد الدعارة أمامه من غرفة لأخرى ومن امرأة إلى غيرها، فإن تفكيره كان ينصّب على الكشف الذي انبسط أمامه بوضوح والذي قد يفسر أموراً كثيرة كانت غامضة له.

هل كانت أسمهان تختار الرجال من بين الذين يترددون إلى غرف المتع؟ وهل كان عبد الكريم واحداً من الذين اجتذبتهم إليها، بعد أن رأت فيه ذلك الجمال؟ وإذا كان تحليله في مكانه، فأين عبد الكريم الآن بعد كل هذه السنين؟

كانت أسمهان تردد اسمه ما بين رجاء ويأس، فتوجه نحوها

ليجلس على حافة السرير الكبير، فأمسكت بكفه لتقبلها برفق وهي تتمتم بضعف:

«كنت أنتظر رجلاً مثلك».

وجعل هو يردد بصوت عميق:

«كنت أتمنى امرأة مثلك».

«كن معي دوماً».

هكذا توسلت، فقال:

«ألست معك؟».

«التصق بي ما دمت معي».

وشدته من ذراعه إليها، فتخيل أباه في تلك اللحظة يستسلم لإغرائها، فسحب كفه من بين كفيها المرتعشين، وقال:

«تذكرت حكاية».

فصرخت من ذعر تملكها:

«ما عدت أحتمل حكايات. أريدك أنت».

ثم بشهوانية شرسة:

«قل لي.. ماذا تريد مني؟».

«أريد آذاناً صاغية من سمعك المرهف. أتمنى أن تمنحيني محبة اهتمامك».

هكذا قال، وقد تحول إلى طبيب يتعاطف مع مريضه المفضل.

طافت بذهن جواد حكاية كان قد سمعها ذات مرة، ولم يعد يذكر تفاصيلها، إلاّ أنه فكر في المناسبة التي يمكن له أن يعيد قصها على المرأة، فلم يجد معنى لها في تكرارها، إلاّ إذا كان الغرض هو استثارة أسمهان لتصبح أكثر قدرة على الادلاء بكل ما تعرف عن اختفاء والده. جعل يحكي:

«كان في المدينة رجل مهيب. وكان الناس يحملون له احتراماً لصدقه، ولشجاعته في التعبير عن آرائه. وكان بالرغم من رجولته الشابة وهو الذي لم يتجاوز بعد عقده الرابع، يطلق أحكاماً على كل ما يكتب أو يصنع في لوحة فنية أو تمثال أو بناء، فيمتثل لآرائه الكتاب والفنانون والمهندسون، فيمشي الناس من خلفه يؤيدون الكاتب أو الفنان الذي امتدحه الرجل المهيب، ويعرضون عن الذي أعرض عنه، لسخف في كتاب مؤلف أو لضعف في لوحة فنية أو تمثال، أو لبعد البناء المشيد عن روح البيئة والتاريخ. وهكذا لُقّب الرجل أحياناً بالناقد الصارم وتارةً بالعادل، وبالشجاع الذي لا يخشى في الحق لومة لائم.».

تساءل جواد فجأة وهو يعاين اهتمام أسمهان بمقدمته المختصرة:

«هل يذكرك هذا الرجل بأحد يا سيدتي؟».

فنظرت إليه بغضب خفي، ثم ما لبثت أن تمالكت نفسها مبتسمة، وقالت:

«ثم ماذا حدث للرجل المهيب؟».

«وكان ثمة شاب ملأ فراغ وقته بالرسم. انتشرت لوحاته في غرفته الصغيرة وكان ما يزال ضابطاً صغيراً، سرعان ما يهرع إلى ريشه والوانه عندما ينتهي من واجباته مع جنوده. لقد بات حلم الضابط الرسام أن يحصل على اعتراف صاحبنا الناقد فيصبح فناناً ذائع الصيت، ولكن الرجل المهيب لم يفعل.

رسم الضابط الشاب أزهاراً ووجوه جنود وجذوع أشجار

يابسة، ونقل بأمانة بالغة أشكال الأسلحة والمباني التي ترفرف عليها الأعلام، وصور نفسه في أوضاع مختلفة إلّا أن عشرات اللوحات الزيتية لم تقنع الرجل المهيب الذي زار المرسم للحكم على فن الضابط، كما يفعل عادة مع الناشئين والمبتدئين بحثاً عن موهبة يحتضنها. قال الناقد الصارم الرأي وقد قضى ساعات في تأمل الأعمال وسبر أسلوبها:

«هل تريد أن أكون صادقاً معك أيها الشاب؟».

«دون شك يا سيدي، فأنا رجوتك للحضور كي أسمع حكمك».

هكذا توسل الرسام برجاء وهو ينتظر الحكم. قال الناقد وقد قبل الدعوة لشرب كأس الشاي:

«لم تخلق أيها الشاب فناناً، فأنت مقلد لا خالق. وصدقني أن أصابعك تنفع في الإطباق على البندقية أكثر مما تصلح للامساك بالريشة. إحساسك باللون فقير، والظل والنور عندك متساويان. الزهرة عندك ميتة أكثر من جذع زيتونة منخور».

فهتف الرسام من ألم:

«أنت ظالم».

«أنت الذي يظلم نفسه لأنك لا تجيد الاختيار».

فصاح الضابط من حرقة وغضب أحال عينيه إلى لبؤتين مفترستين:

«سترى هذا الذي حقرت فنه كيف سيكون أمره».

فقال الناقد بوقاره الذي لم يخرج عنه:

«يا بني أن تكون جندياً صالحاً خير لك من أن تكون رساماً لا علاقة له بالفن، وأن تتذوق الفن باخلاص أفضل ألف مرة من أن تدعي خلق الفن».

فصمم الرسام على الانتقام..».

قالت أسمهان وقد استهوتها الحكاية:

«ولم ينتقم من صاحب رأي صريح؟».

فتمتم جواد بكلمات شبه واضحة:

«ربما كان ينتقم من فشله.. ولكن هذا لم يحدث.

ومرت الأيام. ارتقى الضابط الشاب في عمله، ليصبح ذا شأن. وكانت البلاد ضعيفة منقسمة على بعضها، فنفذ الضابط الكبير بدهائه الذي كرس حياته من أجل تنميته واستغلاله، نفذ من جدار العمل الذي كلف به، لكي يكون حاكماً للبلد».

استوت أسمهان في جلستها، وكتمت آهة كادت أن تفلت منها، ثم قالت:

«أية حكاية عجيبة هذه!».

فقال جواد:

«أية حياة عجيبة هذه!

قبض الحاكم بيدٍ من حديد على مقاليد الأمور في البلاد. وكان أول ما فعله هو جمع الرسامين والمثالين والنقاد كافة،

ليأخذ منهم اعترافاً بفنه. فتوجّه الجميع فناناً أولاً وملهماً لا حدود لعبقريته إلاّ أن الرجل المهيب لم يكن بين الذين بايعوه، فقد اختفى وما عاد يرى أو يسمع شيء عن أخباره، حتى ظنه الناس قد مات. لكن الحاكم أصرّ على أن يبحث عنه. كان يريد أن يسمع اعترافه به وجهاً لوجه، لكن جهود رجاله في العثور عليه لم تصل إلى نتيجة. وأعلن الحاكم في كل أنحاء البلاد عن جائزة كبرى لمن يعثر على الناقد الصارم، إلاّ أن الاعلان لم ينفع. وانهمك الحاكم في متابعة انشغاله بالرسم بالرغم من تزايد مشاكل حكمه. كان يحلم أن تعلق لوحاته في كل مكان، فتحقق الحلم، وباتت أعماله شائعة في أبهاء القصر والادارات الكبرى وفي بعض من الساحات الكبرى، إلاّ أن قلقه في أخذ اعتراف الرجل المهيب ظلّ يأكل صدره كلما خلا إلى نفسه في وحدته. لن يهدأ له بال إلاّ بقول الناقد إنه الفنان الذي لا مثيل له من قبل ومن بعد.

قيل إن الناقد الصارم مات، فأرغى الحاكم وأزبد، وأمر بتفتيش القبور. وقيل له إنه هاجر فأمر برسله أن تذهب في كل جهات العالم بحثاً عن الرجل المهيب. ووشى أحدهم بأن الناقد الصارم قد تنكر منذ أن تسلم الحاكم أمور البلد، فجن جنونه وقرر أن يسفر الناس عن وجوههم ويكشفوا عن رؤوسهم، فلم يسمح بعد ذلك بنظارة على العينين أو غطاء لرأس أو لحية تغطي وجها. وأصيب الحاكم الرسام بجنون سماه مستشاروه من حوله في السر، بجنون الصارم، إلاّ أن أجهزة التقصي والتحقق لم توقف لحظة ولسنوات طويلة بحثها عن الرجل المهيب. وكان الرسام بعد أن أرسى دعائم حكمه فبات الناس

يدينون له بالطاعة والخوف، يكرس معظم وقته للرسم. وقد استورد أجهزة آلية متقدمة تساعده على انجاز أعماله، فمن أذرعة أوتوماتيكية تضع على اللوحة الخلفية البيضاء، ومن بعدها البقع الملونة التي يختارها، إلى بخاخات تملأ الفراغات. وهكذا بات الحاكم أكثر انتاجاً للّوحات المرسومة، من أي فنان أو رسام في تاريخ البلاد ولربما في تاريخ العالم.

ثم حدثت المفاجأة.

عثر الرجال السريون على عجوز يعاني آلام مرض عضال، يستلقي على فراش المرض في دار للشيوخ، فتبين لواحد منهم أنه الرجل المطلوب. فحملوه في جنح الظلام إلى طبيب القصر الذي حقنه بالمقويات، فاستوى على قدميه يكلل الشيب راسه، ليقدم هدية إلى الحاكم.

صرخ الحاكم بوقار، وقد أحاط به رجال القصر من كل جانب:

«ها نحن نتقابل من جديد».

وتمتم الرجل المهيب وقد ظلت ابتسامته الواثقة لا تفارق وجهه منذ عشرات السنين:

«الأحياء يتقابلون».

طلب الحاكم من الرجل أن يلقي نظرة واسعة على ما يدور من حوله من لوحات كبرى:

«والآن ما هو رأيك بالفن الذي أعطيه؟».

توقف الرجل المهيب طويلاً أمام واحدة من اللوحات الجدارية الهائلة الحجم، وهي تسد فراغ الواجهة الرئيسة للبلاط الكبير. كان يتفحصها باهتمام وفضول ظهرا في العينين وفي قامته التي استعادت شبابها فجأة، وكأنما ابتعد عن معاينة الأعمال الفنية لفترة طويلة. تابعته العيون في كل حركة أبداها بيديه أو ومضت بها عيناه. ثم أنه تطلع بعد قليل إلى الحاكم الذي خرجت اللهفة من وجهه مع غضب الانتظار، ثم تقدم منه بخطوات الشيخ الذي تعب فجأة، فبات قريباً منه مما أثار حفيظة الحرس الذين لبثوا ساكنين باشارة خفية من الحاكم.

قال له:

«لم يتغير شيء. سنوات ولم يحدث هناك أي تقدم يلحظ».

وأعقب، مع صرير الأسنان يسمع من الحاكم يرسله قلقاً:

«كنت أتصور أن الزمن يعلم.. لكن نظريتي خابت».

«ماذا تقصد بقولك هذا أيها العجوز؟».

هكذا أفلت الغضب من الحاكم، ثم بحكمة تمتلكه كمكابح عجلة متينة لا تخطىء السيطرة:

«حسن.. حسن. الآن أسألك رأيك الفني، رأيك الأمين الذي نحترمه، في هذه الاعمال التي تفحصتها بعينك الخبيرة».

وبينما آذان أهل البلاط تتجه نحوه، كان العجوز يكرر:

«لم يتغير رأيي السابق.. يا سيدي».

«لم يتغير رأيك السابق؟».

ثم يتابع ضبط النفس ويتوجه الى العجوز برجاء أثار حفيظة الرجال في البلاط.

«ألا يمكن لك أن تعيد النظر من جديد؟».

وهنا ألقى العجوز نظرة خاطفة على اللوحات، ثم ما لبث أن تمتم بصوت سمعه أقرب الرجال إلى الحاكم:

«سبق أن قلت لك يا سيدي، هل تذكر، أنك مقلّد.. ولست خالقاً».

وساد هياج صامت، وكأن نبض الغضب يكاد يصل حد الانفجار، وتحفز اثنان من الحرس للانقضاض على العجوز إلاّ أن الحاكم أوقف شراستهما برفة عين. تابع العجوز:

«يؤسفني، وحقاً ما أقول، أن شيئاً لم يتغير في أعمالك، سوى حجم اللوحات».

ثم برقة أب حنون:

«لعبة الفن أخطر مما نتوقع».

وسرت همهمة النقمة بين أهل البلاط. قطيع ذئاب يعوي من بعيد، شوهدت العيون تلمع كما الأوسمة على الصدور، ثم ضاقت الحلقة المحيطة بالحاكم، كأنما كل منهم ينتظر إشارة أو أمراً لتمزيق العجوز الوقح. ثم حدثت المفاجأة.

تحرك الحاكم الذي امتلأ جسده، فكادت أزرار الزيّ الذي صممه بنفسه أن تقفز في وجه العجوز الذي لم يتحرك شعرة

واحدة. نظر إليه نظرة لم يفهمها أحد، وإذ هو يتفحص الناقد الساكن، كان ينادي أمين سره:

«سجل عندك: يضاف إلى القانون العام المادة التالية».

ثم توقف عن المتابعة وهو يرمق أمين سره الذي شحذ قلمه في وجه الورقة، بنظرة لا يمكن أيضاً لأحد أن يدرك معناها. قال بعد لحظات:

«اكتب: يكرم بتمثال يقام له في ساحة من ساحات المدينة، من أبدى شجاعة حقة في إبداء الرأي، وامتلك الصدق الكامل في التعبير عن فكرة دون تهيب».

ثم بكبرياء وهو يدور حول الشيخ متفحصاً:

«انتهى القانون».

وتوقف يتأمل وجه الناقد الذي لم يظهر أي انفعال. ثم يتمتم في وجهه:

«ألا تستحق أن تكون الأول في تطبيق هذا القانون.. يا سيدي الناقد؟».

فانقض الحرس على الرجل المهيب يقودونه أمامهم، بينما نظرات أهل البلاط تشيعه بلا معنى، فقد تحولت العيون إلى فتحات بيضاء. وتحرك ركب الشيخ بعيداً عن الحاكم الذي رفع كأساً يشرب نخبا طالما تمنى أن يرفعه منذ عقود كثيرة من السنين، فارتفعت الكؤوس من دون أن يدري أصحابها لمن النخب المرفوع..».

وزحف القلق مع التجاعيد، ابتدأ من عروق الرقبة ليمّر بطرفي الفم ومن ثم زاويتي العينين الداخلتين لينتهي بجبين أسمهان. وخرج صوتها مضطرباً كأنما بلعت حصوة علقت باللهاة:

«وكيف طبق الحاكم قانونه الجديد على صاحبك المهيب؟».

«كان العجوز يمشي بقامته المتهالكة وسط أجساد مشدودة تضرب بأقدامها الأرض، فيتطاير شرر الصلف والقسوة. كان هو الوحيد الذي لم يعرف وجهة الخطوات المنتظمة. وعندما أدخلوه مشغلاً في الطرف الآخر من القصر، عرف أنه في الورشة التي تصبّ فيها التماثيل، فاستسلم لرجل يبدو عليه الانهماك في عمله، وقد جعل يقيس قامته وأطرافه وحجم الرأس ومحيط الخصر، بينما العجوز مستسلم وكأنه يقف أمام خياط ماهر.»

هتفت أسمهان وقد بدت لسامعها كعجوز نزقة فقدت نعومة الصوت:

«أريد أن أعرف ماذا حدث دون تفاصيل لا لزوم لها».

ثم بضيق متبرم:

«ما عدت أحب الحكايات المطولة».

«قام عمال الورشة بصبّ طبقةً من الخلائط المعدنية المصهورة على جسد الرجل العجوز، فلم تصدر عنه في اللحظات الأولى سوى رعشة همدت من بعدها كل حركة أو أي آهة محتملة.ونظر الحاكم إلى تمثال الناقد فابتسم ببرود ثم

منح أهل الورشة رضاه. ونقل التمثال إلى ساحة صغيرة تقع في الطريق إلى القصر، اقتلعت من وسطها شجرة نخيل، فارتفع فيها التمثال على قاعدة من المرمر نقش عليها بخط جميل: رفع هذا التمثال تكريماً لرجل امتلك الشجاعة ذات يوم فقال رأيه».

- ١٢

اهتزت دار المتعة. رددت الجدران أصوات استغاثة وفزع، كان الطابق السفلي يرسلها متواترة وكأن خطباً خطيراً يحدث. بعد لحظات، بينما أسمهان ساهمة تفكر، اقتحمت مديرة الدار المكان وقد فقدت أنوثتها المسترجلة، وكانت تهتف مذعورة:

«لقد قطع أوردته».

ثم انكفأت عائدة، فلحقت بها أسمهان التي قفزت من مكانها، وكأن حدثاً هاماً تقدر هي وحدها أهميته، فاختفت خلف المرأة المذعورة. حاول جواد أن يلحق بهما، لكن الباب أقفل في وجهه فجلس وحيداً، فلم يجد شيئاً يتأمله سوى اللوحة الجدارية يعيد تفحصها من جديد.

كانت أجزاء مختلفة من اللوحة تساقطت فظهر الملاط من تحتها، وكأن الجرب أصاب الألوان. وجوه فقدت ملامحها، ونباتات ذبلت أزهارها. حيوانات حقيقية أو خرافية اختفت أجزاء منها فبات الحقيقي خرافة والخرافي شكلاً يثير الرعب. المرج الذي كان يلمع بخضرته الآسرة، بات بني اللون وكأن ريح حريق هبت فكادت رائحة الخراب تخرج منه. وظهرت بقع كبثور الجدري في أكثر من مكان، وكأن رطوبة كهف قد تعشقت

باللوحة تحاول أن تلتهمها، فأغمض جواد أسفاً وهو يتمنى لو أن آلة التصوير بين يديه ليسجل ذلك الأثر الفني العجيب وهو يصور رحلة البشرية الطويلة، ولكنه أحس بغريزة اكتسبها من الترحال بين البلاد والشعوب أن شيئاً سيئاً لا بد قادم.

وعادت أسمهان أكثر ارهاقاً. كانت تتمتم بكلمات لم يفهم لها معنى، ثم أنه علم بعد أن هدأت أنفاسها المتهدجة أنّ رجلاً اشتدت عليه وطأة الشبق قد قطع شرايين معصمه بأسنانه، وقد مات مبتسماً بين ذراعي الفتاة التي قيل إنها أتت من جزر بعيدة لتشعل في دار المتعة الجنون في جسد أكثر من رجل، كان آخرهم ذلك الذي اختار ميتة مضمخة بدم ساخن، رسم على الفراش أشكالاً قد تلهم الفنانين لغرابتها.

قالت أسمهان وهي تتأمل الرجل الهادىء الذي جلس قبالتها مصغياً:

«ما زال الرجال يموتون من أجل امرأة. هل تؤمن بذلك؟».

لم يكن في القاعة ساعة توقت الزمن. اكتشف جواد أن ساعة يده التي احتفظ بها هدية من امرأة قالت له أن يتذكرها دوماً كلما ضاق به الزمن، قد فقدت، أو أن أحداً انتزعها منه وهو في الغيبوبة. كان قد نظر إلى أسمهان وهي تكرر عليه جملتها وكأنها حكمة يعقبها تساؤل، وأحسّ أن الفجر يقترب. قال:

«ذات يوم، كان رجلاً قد وصل به اليأس حافة الجنون. لم يقترب حقاً من شجاعة الانتحار، فقد كان يتذكر دوماً نعمة العقل عليه، لذا هدأت انفعالاته..».

قاطعته أسمهان قائلة وكأنها تستعيد فضولها:

«هل تعرف حقاً أي شيء عن الرجل الذي قطع شرايينه؟».

لم يكن ليحب التضليل بأي حال من الأحوال، فقال لها:

«لا أعرف أي شيء. صاحب الحكاية نظر ذات مرة إلى شرايين معصمه، ولكنه قرر أن يفعل شيئاً له قيمة، فقد كان الموت عنده فعلاً لا طائل منه».

هتفت أسمهان وقد تحولت إلى اذن تتوق إلى معرفة المزيد:

«قرر أن يفعل شيئاً.. حسن، ماذا فعل بحق الآلهة؟».

«وبلغ به الضيق ذات يوم درجة لم يستطـع فيها أن يتمالك نفسه، فهتف كالذبيح في غرفته العالية يلعن ما يحيط به من كذب وزيف وتقتير في الرزق. جعل يتذكر الزوجة التي أحبها وبذل نفسه من أجلها فهجرته لفقره. واسترجع أيام وظيفته الحكومية والتي طرد منها لأنه لم يصبر على السرقة التي كانت تدور من حوله فحاول الكشف عنها. ثم هو ينظر في المرآة المشروخة ليجد وجه حيوان تائه ضائع. وقال لنفسه إنه يجب أن يحتج، وأقنع نفسه أن يفعل شيئاً ما وإلّا انتهى الأمر به إلى قميص المجانين.

كان يجيد صنع الجمل المفيدة والمؤثرة، فجعل يكتب انفعالاته على ورقة بيضاء كان قد عثر عليها بين كتبه. لعن الزمان الذي يعيشه في خمس جمل، لكنه سرعان ما مزق ما كتب. ثم إنه بحث عن ورقة أخرى فوجد دفتراً منسياً من أيام دراسته الجامعية التي لم يستكملها، وكان الدفتر مخصصاً

لتسجيل محاضرات أستاذ الحقوق المدنية، فلم يكتب عليه آنذاك سوى العنوان والتاريخ، فظلت الأوراق بيضاً تثير أفكاره في استخدامها كدعوة يوزعها على الخلق للاجتماع في ساحة المدينة الكبرى، للتداول في المصاعب التي يواجهونها والأحزان التي تجثم على الصدور.

(أيها المواطن العزيز، أنت مدعو للاجتماع الكبير في ساحة المجد وذلك عقب صلاة الجمعة من الأسبوع الأول في الشهر القادم)

وجعل يكتب مستصرخاً ضمير من تصل إليه الدعوة أن ينسخ ما يقدر عليه من أوراق ويوزعها على من يعرفه أو يجاوره أو يلتقي به. وكرر كتابة الدعوة حتى أنه استنفد أوراق ذلك الدفتر المنسي، فقضى يومين وليلة دون نوم أو راحة كي ينجز المهمة. ثم هو يخرج في جنح الظلام يوزع الدعوات على البيوت ومداخل العمارات وأبواب الدكاكين المقفلة وصناديق الشكوى في الدوائر الحكومية، ومراكز التجمع بانتظار وسائل المواصلات الداخلية..».

صمت جواد لحظة يحاول أن يقرأ في وجه أسمهان الذي لم يكن يعبر إلّا عن شيء واحد هو ترقب ما سيكون عليه الأمر عندما يكمل هو حكايته. ثم أنشأ قائلًا:

«وبالرغم من أنّ دعوة الرجل قد أثرت في عدد من الخلق، فسمع الناس يتهامسون بها إلّا أنه لم يقدر أنّ تلك الدعوة قد وصلت إلى أيدي الأجهزة الرسمية المكلفة بحفظ الأمن والهدوء في المدينة، وأنها أخذت ذلك الأمر بجدية في حساباتها الدقيقة والمحكمة».

وعمد جواد من جديد إلى الصمت. كان الإرهاق قد ظهر كالبثور على لسانه تثير تلعثمه، فتوقف عن الكلام. وكانت أسمهان نصف مغمضة فتحفزت متيقظة، لكن الصمت يطول والفضول يتزايد، فلم يكن هناك بد من أن يتابع الحكاية:

«جاء يوم الجمعة، نصف غائم والريح خفّت حدتها بعد خميس ثائر. وتعالت أصوات المؤذنين تدعو إلى الصلاة، ثم سمعت كلمات الخطباء في المساجد تتردد في الأجواء تدعو إلى التقوى والصبر. وكان الرجل القابع في غرفته العالية، يفكر في الاجتماع الحاشد الذي ستحفل به ساحة المجد بعد قليل. ثم أنه تسلل إلى الشارع فكان فارغاً، ولم يكن هناك من مارة أو عابرين يستطيع أن يقرأ في وجوههم احتمال ما ستأتي به الساعات القادمة. وفي الشارع الكبير الذي يتصالب مع آخر، كان شرطي المرور يتثاءب من الجمود والسكينة. وإلى الطريق نحو الساحة وبينما هو يفكر في الكلمات الأولى التي سيتوجه بها إلى المحتشدين هناك، كان يحس بغريزة متيقظة أن شيئاً غير عادي قد يخيم على كل شيء. لكنه مضى عبر الشوارع والحواري الفارغة كما لم ير من قبل. وسيدهشه إذ يطلّ على الساحة من بعيد أن البلاط الممتد على مساحة هائلة، لا يشغله الآن سوى النصب التذكاري في الوسط وشجرتي الكينا عند طرف البركة. لم يكن هناك أحد في الساحة من خلق المدينة. قال لنفسه إن الناس لا بد يتقاطرون فجأة، لكن الصلاة مرّ عليها زمن ولم تظهر بعد أية علامة. تساءل والشك يأكل قلبه، إن كانت رسالته لم تصل إلى مائة شخص على أقل تقدير فلبى الدعوة منهم عشرة، إلّا أنه ما لبث أن نفى الشك باليقين الذي كان قد بلغه خلال الأيام الفائتة وهو يستمع بأذنيه إلى حديث

جماعة عن اجتماع الجمعة المرتقب. قرر أن يتابع طريقه نحو الساحة، فعبر الممر إليها ليصبح الوحيد فيها فأحس بالوحدة. ثم أنه تمالك مشاعره، وخطا إلى النصب بثقة وجلسَ على درجة من القاعدة الرخامية. كان يقول لنفسه ويردد:

«لا بد أنهم آتون».

ولن يعلم المنتظر كيف خرج الرجال المسلحون من كل طرف. مئات الرجال بخوذاتهم المعدنية وخطواتهم السريعة هجموا عليه بحذر شديد وكأنهم يطوقون حيوانا خطرا لا يعرف متى ينقض عليهم بطريقته الشيطانية. كان الرجل ساهماً عندما فوجيء بالمسلحين، وكان يراهن في تلك اللحظات على أن احداً ما سيلبي دعوته، وها هو الآن يخسر الرهان. لذا لم يملك من رد فعل في لحظة الاطباق عليه سوى الدهشة تمسح الغشاوة عن عينيه..».

هتفت أسمهان كأن مغصاً معوياً ينغصّ عليها:

«ثم ماذا حدث؟».

قال جواد بعد توقف أثار حفيظة المرأة عليه، لكنها تمالكت نفسها:

«لم تذكر الحكاية تفاصيل دقيقة عن النهاية التي حلّت بالرجل، بل كانت الروايات متضاربة، مع أن اجماع الآراء كان على أن الرجل كان مجنوناً دون ريب. قيل إنه شوهد في الصباحات الباكرة يمشي في أرجاء المدينة وهو يكلم نفسه، وقيل إنه ما زال حبيس أربعة جدران في مصح عقلي، وقيل إن أحداً في المدينة بعد حادثة الساحة لم يعد يفكر في عمل أحمق

كذاك العمل. وقيل أيضاً إن الحكاية تلك مختلقة من أساسها لأن رجلاً يمتلك ذرة من العقل لا يمكن أن ينسب لنفسه شرف دعوة الخلق إلى الاجتماع في مكان عام للتداول في هموم وأمور ليست أصلاً من اختصاص العامة بأي حال من الأحوال».

- ١٣ ———

اختفت أسمهان. كانت متوترة كقماش مبلل، فقامت فجأة واختفت. لم يكن جواد حبيس القاعة إلّا أنه لم يجد منفذاً يخرج منه. كان الطعام يأتيه في طقس من الحفاوة والتنوع الذي لم يسمع عنه إلّا في الحكايات الشرقية بينما تتسلل إلى سمعه موسيقا القانون تأتي من مكان لم يستطع تحديد مصدره، وكانت المقامات الموسيقية متعددة لكنها عذبة تعدّه روحياً لاستقبال أحداث لا بد من أنها آتية فلم يستطع أن يعثر على أي تصور لها.

قرأ في مخطوطات المكتبة، ثم ما لبث أن عاد من جديد إلى تلك الوثائق العديدة في الصندوق يقلب فيها. هو الملل حقاً تلبسه، كأنما تعوّد أن يكون له شريك يحكي له، فيرى في وجهه امارات الدهشة أو علائم الغضب. وسيعود إلى اللوحة الجدارية يتأملها بينما التآكل يستمر في مهاجمتها، فيشيح عنها أسفاً أو خوفاً من البرص الذي يوحي به ذلك التآكل. وينظر في المرآة، يقلب في شكله فيجد أنه يزداد قوة، وبشكل أدق وهو يخجل عادة من الاعجاب بنفسه، يزداد جمالاً مع شباب يضجّ بالحياة. وفكر في أسمهان التي ظهر خيالها عارياً

معه في المرآة. كان يكتشف لأول مرة أن رغبته الدفينة في احتواء جسدها بين ذراعيه تخف حدتها، ويقول متمتماً باصرار:

«لا بد أنها ستعترف، عاجلاً أو آجلاً، بمصير عبد الكريم».

وهكذا بات على يقين لا تراجع فيه بأن والده قد دخل دار المتعة ذات يوم ولم يخرج منها، كما أنه يحسّ بالقوة الآن لأن قدرته على التحكم في غرائزه قد أكسبته النقاط التي لا تحصى في جولات صراعه مع المرأة المثيرة. وهكذا استلقى على بساط يتأمل السقف ويفكر في حكاية اخرى.

طالما تساءل جواد في غربته الطويلة عن معنى تعلمه لأشياء جديدة ولاكتسابه خبرات كثيرة. لغات ومهن ومعادن بشر، الآن جميعها في كفة وذلك الأثر الذي خلفه في كفة تمنعه عن الاستسلام لأسمهان. هل كانت حكاياته التي اخترعها هي السبب في قوته أم أن السبب يكمن في ضعفها كأنثى؟ لا يعلم.. هو لا يعلم.

استسلم لنوم عميق كان الأعمق منذ دخوله الدار، وقد أحس للمرة الأولى بمعنى الاسترخاء الذي ساد كل شيء فيه حتى الجهاز التنفسي. وداهمه حلم اختلطت ألوانه وتزاحمت صوره، ولكنه بقي حلماً مريحاً رسم على وجهه النائم سعادة. عبد الكريم في لباس السفر يدخل على الأم وقد أقعدها الانتظار، فإذا هي تهبّ كالفراشة تعانق الحبيب العائد، وثمة خيوط من نور اشتركت مع وجه الأم الصبوح في اشعال الفرح، فكأن الدار التي تجمع فيها الأبناء والأحفاد والأقارب والجيران، قطعة من الجنة. ويستيقظ جواد مع عذوبة آخر نذير

كآبة قادمة. وانتهى تأثير الحلم فعرف أن أسمهان هي التي عادت، وكان البرنس يغطي الجسد مع رأسها، إلّا أنها لم تكن تلك الساحرة التي توقظ شهوة الحياة في جسد هرم بحرف تنطق به شفتها أو تشير به عيناها. وكامرأة متصابية لكنها ما زالت تمسك بناصية الكبرياء، قالت شبه آمرة:

«أريدك أن تضاجعني. أريد ذلك الآن».

ولم يستغرق ردّ فعل جواد أي زمن يمكن أن يحسب. هتف بحبور:

«هل يمكن لك يا سيدتي أن تتصوري ما حدث بعد أن مرّ المذنّب بالمدينة؟».

«أي مذنب؟».

هكذا بدت لهفتها وهي تستسلم من فورها لمفاجأة متوقعة. قال:

«كانت حسابات الفلكيين دقيقة، فالمذنّب القادم من أعماق الفضاء سيمر في اجواء المدينة بعد فترة من الزمن أعلنت على الخلق جميعاً. وبالرغم من بعد تلك الفترة فقد حفل الانتظار بتفتح المشاعر، وترقب الحدث الصغير والكبيـر من أهل المدينة، الغني والفقير، والمتفائل منهم، والذي أصيب ببلوى التشـاؤم، ومن كان لا يبالي بأي شيء من حوله..

كان القلق يسيطر على الجميع مع اقتراب الموعد الذي سيعبر فيه المذنّب أجواء المدينة كذلك تعاظمت الأمنيات في نفوس بشر واشتدت المخاوف عند آخرين. كان معمرون لهم

كلمة بين الناس، قد قالوا إن أحداثاً جساماً قد تقع مع مجيء المذنّب، وهكذا ترقب خصوم الملك موته، وتمنى الأنصار أن يغلب الأعداء في معركة حاسمة. حلمت النسوة العواقر بالحمل يملأ البطون بالذرية، وعلم الفقراء أن الرزق الوفير سيهلّ عليهم كما المطر الغزير يفعل. وقالت عجائز إن ضوء المذنّب السماوي يطيل العمر، وفكر أطفال وفتيان في حرارة ينقلها إلى أجسادهم المذنّب نفسه، فتنضج أسرع، فيبلغون الرجولة مبكرين. وتخوف مزارع كبير من انتشار فئران الحقل تقضم جذور مزروعاته، وكان مزارع صغير، يريد أن يضمن لابنه البكر مهراً يقدمه لصبية يحبها، يحلم بحبة القمح تأتيه بمائة، بسبب زيادة المذنّب للديار.

ثمة عاطلون عن العمل قد طمح بعض منهم إلى العمل إثر الخراب الذي سيعمّ البلاد، وتمنى بعضهم أن تكون له فرص عظيمة في التنقيب عن المعادن الثمينة التي لا بد من أن جوف الأرض سيحمل بها بعد أن يمسّها المذنّب بذيله الطويل. وتخيل رجال في الظلّ عاشوا زمناً، أن المذنّب سيخرجهم من عتمة الاهمال إلى نور المواقع الأقوى والمراكز الأفضل في حكم المدينة. وقليل هم الذين عادوا إلى الكتب والمراجع العلمية لفهم أسرار المذنّب وظهوره المتواترة عبر القرون السالفة، مما جعل الفترة التي تسبق قدومه غنية بالتأويل والخيال الذي لا حدود له.

جاء يوم المذنّب. كانت السماء منذ الصباح صافية، ولكن الريح الساخنة بدأت تهب برفق من كل اتجاه وما لبثت أن اشتدت، فتطايرت أوراق الأشجار مختلطة بأكياس البلاستيك

الفارغة، وتجمعت الأشواك والأغصان اليابسة عند مداخل الحارات والشوارع، فخيمت على المدينة كآبة، دفعت بالناس إلى الاحتماء بالمباني والأسوار، ولم يبق في الشوارع والساحات سوى المشردين والذين لم يكن لهم مأوى فهاموا على وجوههم تحسباً لحدث قادم. وعند منتصف النهار أيقن الخلق أن الأمور قد لا تسير على ما يرام إذا ما تزايدت الرمال التي حملتها الريح النشطة، فارتعشت القلوب وتشوشت الأذهان. ومع اقتراب المساء ارتفعت حدة الابتهالات، وسمعت المعابد تردد أصوات التقرب من الله، كي يبعد عن المدينة شبح خراب متوقع. ومع بداية احتلال الظلمة لخط الشفق الملتهب، ظهر المذنب لامعاً يتوهج بذيله الذي كان يقسم صفحة السماء كسكين قاطعة..».

كانت أسمهان واجمة. بدت ضعيفة منهكة، لكنها ما لبثت أن قالت:

«وانتهت حكاية المذنّب؟».

«الآن يا سيدتي.. ابتدأت حكاية المذنّب.

«صفا الجو مع الفجر. خيمت السكينة على المدينة بعد أن مرّ المذنّب في لحظات معدودات عابراً السماء كالوهم، قادماً كالكبرياء من مجهول، ومتجهاً بعجلة من أمره نحو مجهول. وهكذا ولد هدوء لم تعرف مثله المدينة من قبل فاستيقظ البشر مبكرين عن موعدهم. وكان ثمة طفل صغير قد قفز من الفراش ليعدّ محفظته من أجل الذهاب إلى المدرسة. قلب دفتر وظائفه كعادته وهو يتأمل ما قام به من واجب فإذا الصفحات بيض،

اختفت منها الكتابة كذلك السطور نفسها، وكأن كل شيء قد مسح بممحاة سحرية، وقلب كتاب القراءة فإذا هو كالدفتر لا تظهر فيه كلمات أو صور، كذلك كتاب الحساب تختفي منه الأرقام وأي شيء آخر فيصبح كالسبورة البيضاء. صرخ الطفل من ذعر وهو يتخيل عقاب المعلم له، فهبت أمه التي كانت قد أغفت من تعب وضمت الطفل إلى صدرها من دون أن تفهم ما جرى لكتبه ودفتره. وأما الأب الذي كان معتزاً باللوحة التي علقها في صدر الغرفة تحمل الشعار الذي يعتز به «إن الله مع الصابرين»، فأدهشه أن الكتابة اختفت من لوحته المباركة فصاح:

«اللهم لطفك!».

وكان جار لهم قد طرق عليهم الباب مرتعش الكلمات:

«انظروا فبطاقتي الشخصية اختفى منها كل شيء».

ثم يقول بذعر ملك عليه أنفاسه:

«كيف سأثبت أني أنا ولست شخصاً آخر».

ومع بداية يوم جديد، بات معروفاً للجميع أن أي شيء له علاقة بالكتابة المسجلة على الورق قد اختفى تماماً. كتب المدارس ومجلدات الثقافة والآداب وأسفار الأولين وصحائف العقائد، كلها تحولت إلى بياض. حسابات المصارف والمتاجر وسجلات المحاسبين، ما عاد فيها دليل على رقم أو كلمة، كذلك الأوراق المالية. القوانين المحفوظة اختفت آثارها، وكذلك الوثائق الشخصية والأنساب العائلية التي يحتفظ بها معظم الناس للتأكيد على الأصالة وأوراق الملكية بأنواعها المختلفة،

لم يعد لها أثر سوى الأوراق الخام. لقد اختفى أي أثر للكتابة في المدينة. وكانت الصدمة قاسية. قال حكماء إن المذنّب الذي محا بشعاعه الكتابة قد أدى خدمة للناس كي يتجاهلوا الماضي فيبدأ عصر جديد. وأبدى رجال متزمتون شماتتهم، فالعقوبة السماوية كانت حقاً مشروعاً على المدينة بعد أن فسقت وبغت إلّا أن المشكلة ابتدأت يوم أعلن الملك عن قراره في الدعوة إلى إعادة تنظيم الفوضى التي سادت، واقترح وللمرة الأولى في أيام حكمه أن يتخير الناس بأنفسهم قرارهم في تحديد الموضوع الذي ستكون له الأولوية باستعادة ما كان مكتوباً. وكان لهذا الاقتراح دوره في انقسام الخلق إلى فرق وأحزاب وشيع. قالت جماعة إن العلم مهم وإن إعادة كتابة المؤلفات المدرسية يستحق العناية الكبرى والأفضلية عن أي شيء آخر. وهتفت جماعة لخطورة التاريخ والأنساب والوثائق الشخصية لأن نسيانها يعني فقدان كل شيء. وتبنى حزب أمر القوانين التي من دونها تسود الفوضى وتتسيب الأمور بينما أجمع الكثير من المواطنين على خطورة العلاقات المالية وحسابات التجار والمصارف واسناد الملكية الشخصية. وقالت جماعة بأفضلية العقائد. وابتدأ الخلاف في وجهات النظر هادئاً يظهر في حلقات حوار ونقاش، ثم اشتد ليصبح مع اقتراب موعد الانتخاب حاداً، يظهر في صراع واشتباكات ما لبثت أحياناً أن أخذت طابعاً دموياً. وكان من المتوقع أن تقوم السلطات بوضع حد للحرارة المتصاعدة في المدينة إلّا أن اجراءً ما لم يتخذ، فسادت المدينة ضغائن واحقاد، ومرّ يوم الانتخاب من دون انتخاب، وتبين للمؤرخين وكتاب اليوميات من بعد ذلك أن قوة السلطات واستمرارها في الحكم لسنوات

طويلة، يعود إلى أن الخلافات بين الخلق لم تجد لها حلاً، وأن الأفكار المتصارعة ازدادت تمسكاً بما تؤمن به، وأن أحداً لم يتنازل قيد شعرة عن معتقداته. وبالرغم من أن الكفة كانت تميل إلى حزب دون غيره إلّا أن جهة معادية لذاك الحزب ما تلبث أن تستعدي رجلاً قوياً من أهل القصر فتصبح الغلبة لها. وهكذا.. المدينة ما زالت تعيش إلى يومنا هذا في أتون من الغضب والحقد بات مضرب الأمثال بين الشعوب والأمم..».

- ١٤

ومما جاء في الحكاية أن المرأة تدثرت باللحاف الذي صنع وجهه من خيوط الذهب، وقد أصيبت بنوبة من السعال ارتعش لها جسدها المطمور، واهتز لها الرأس الذي غطته بالمخدة المنتفخة كثدي عرم. كان جواد يراقبها، تتنازعه عاطفة الاشفاق وارادة الاستمرار في دفع أسمهان إلى حافة الاعتراف. وسيطول الأمد بالمرأة وهي ترتعش فيختلط الشخير المتقطع بكلمات غير مفهومة كأن لغات بائدة تستيقظ لتوها من كهف صدرها. ثم يحدث الشيء المفزع.. شيء لا يمكن للعين أن تصدقه.. شيء جعل الرجل يقف كالعاجز عن الفهم.

انكشف الغطاء. كانت ذراع مكرمشة كالأرض اليباب تزيح اللحاف، ثم أطلت أسمهان. لم تكن هي نفسها، بل عجوز تجعد جلدها وبات شعرها كتلة من شوك بري سفّت عليه الرمال. استوت في جلستها، ثم وقفت على قدميها وجعلت تصرخ بصوت خشن وهي تحاول أن تمزق ثوبها الداخلي بأظافر طويلة:

«ضع حداً.. واروني بمائك».

وأيقن جواد أن الفرصة باتت مواتية للمساومة، فقال هادئاً:

«أعدك أن أكون لك دوماً أمنحك الحب، إذا قلت لي أين عبد الكريم».

ثم يكمل وهو يدير لها ظهره ويتظاهر بتأمل اللوحة الجدارية:

«وأظنك تعرفين الآن من هو عبد الكريم».

فلم تترك أسمهان له مجالاً كي يضيف كلمة أخرى تمتمت:

«اتبعني اذن».

تأملت وجهه، ثم قامت بالرغم من عجزها كجندي يستجمع قواه من أجل الطلقة الأخيرة، وردت على جسدها البرنس وسعت بخطوات ابتدأت بطيئة ثم تسارعت لتبلغ المكتبة، بينما جواد يناقش الأحداث جامداً ثم ما لبث أن تبع المرأة بخطوات متلهفة.

هناك مدخل سري على بعد خطوتين من آخر خزائن المكتبة، فدخل جواد فيه خلف المرأة التي كانت في عجلة من أمرها، وهي تنزل عبر درج حلزوني كان يلف بهما كدوامة تسحبهما إلى القعر. كان جواد يحسّ في تلك اللحظات أنّ نصراً قد أحرزه، كما أن خوفاً كان يدق صدره بقبضة الترقب والتهيب من نهاية المطاف. وكانت اللغة الميتة تتصاعد من صدر أسمهان وهي تغوص درجة فدرجة في عمق الحلزون. لم يكن فمها يتحرك، لكن الظلمة أعطته يقيناً بأن الكلمات كانت تخرج منها، فعمل عقله على تحليل تلك اللغة، لكنه لم يستطع أن يتوصل إلى فك أي من رموز الكلمات التي كانت تتردد في

فضاء الحلزون الذي ما لبث أن انفتح عن اتساع عند نهايته، لتصب الدرجات في مكان معتم تصعب الرؤية الواضحة فيه بالرغم من نور ضئيل كان يتدلى كثمرة من سقف غير ملحوظ. الطقس كان مخاطياً، فتشاءم جواد، لكن اللهفة إلى لقاء والده جعلته يفكر طويلاً في ما قالته أسمهان بصوت ضعيف:

«هل وصلت إلى ما تريد؟».

كانت حواسه تعمل كلها في اكتشاف المكان، ولربما أن الكهف يصحّ تسميةً أدق له. قبو متشعب يقف المرء في نقطة فيه، فلا يستطيع أن يرى ما تخفيه شعبه وانعطافاته، كأنما حفر في بطن التل ليصبح متاهة إلّا أن الباحث في غشاوة النور الضعيف سيلمح كومات من تراب متقاربة، وكانت توحي بأنها قبور لا تحمل أية شواهد، فجثم الضيق على صدر جواد إلّا أنه ما لبث أن هتف منادياً بصوت متحفظ:

«عبد الكريم.. عبد الكريم».

فلم تردد الجدران صدى ندائه لأنه سيعلم بعد قليل أنها كلسية كتيمة، فيتقدم من أقرب جدار يتفحصه فكان ثمة خربشات عليه حفرت بالأظافر، كتابات وخطوط ورسوم متناثرة، أساليب متباينة وأزمان متعاقبة إلّا أن الباحث عن أبيه لم يضع وقته في تفحص معرض الحفر على الكلس، جعل ينادي من جديد:

«عبد الكريم.. أنا ابنك جواد».

مقبرة أم تحصين أم أن الكهف مجرد فجوات تحمل الدار على وسادات من فراغ يعطي الاحساس بالمتاهة؟ أية نقطة رجراجة

يقف عليها جواد الآن! أي سراب ليقين تاه منه! ينادي على الغائب فلا يسمع استجابة لرجائه الذي سيتحول مع مرور الزمن البارد إلى استغاثات تتعالى كلما أوغل في التنقل عبر شعاب الكهف، وسيتأكد لجواد أنّ عدد القبور المتزايد في كل بقعة من الكهف يدل على بشر دخلوا ولم يخرجوا، فهل كانت هنا نهاية عبد الكريم؟ واجتذبته نقوش غير مكتملة تميز بها جدار، فقرأ فيها شيئاً أشبه بمهارة أبيه، فصرخ مستغيثاً باسم عبد الكريم وكأنه درويش فقير ينادي على وليّ من الأولياء، كي يضع حداً للبؤس المرير الذي يمضّه ويضنيه.

وفي ركن معتم من فجوة رطبة أنعشه تيار بارد يأتيها من بعيد، لمحه مقرفصاً. ضرب قلب جواد كما يفعل الخائف إذ يدق باب النجاة بقبضته ويحسب لليأس حسابه، ثم تقدم بخطوات تقيس المسافة، وتقدم أكثر ليصبح أمام كتلة آدمية. كان شيخ مجلل بالبياض والنسيان يجلس على الأرض وقد مال رأسه على صدره، فتحرك بتململ واهن لتتصاعد منه رائحة حياة ذابلة. ودون أن يتطلع الشيخ نحو المقتحم، سمع جواد صوته يردد الكلمات:

«لم يبق أحد يواريني الحفرة».

هتف جواد بصيغة تساؤل متشكك:

«عبد الكريم!».

فقال الشيخ كأن شيئاً من روح قد رد إليه:

«من هنا؟».

وكأن صوت جواد جديد عليه فاستبشر خيراً، فرفع رأسه ببطء. كان في طرف المكان خشبة رفعت على حجرتين لتبدو كمائدة وقد وضع عليها طعام كأنه من شمع أو أن يداً لم تمسه.

«ما عاد هناك من فائدة، فلقد تأخرت».

هكذا قال الشيخ الوحيد.

استند جواد متعباً إلى الجدار، فكان جاراً يستمع إلى الشيخ الهزيل. وابتدأت الشكوى من أن آخر الأحياء الذي كان يؤنسه قد دفنه بنفسه منذ أيام لا يعرف لها عدداً. قال الشيخ فجأة:

«هل أنت الضحية الجديدة؟».

ثم متفحصاً وقد أدهشته حيوية جواد:

«مثلك لا يمكن أن يكون ضحية لها».

اكتشف جواد عشرات الفجوات التي كانت أشبه بمقصورات حمام مهجورة، لكن الكتابات على الجدران ذكرته بالأزقة الشعبية البعيدة عن عمران المدن الجديد. غزل واضح بالمرأة صاحبة الدار إلّا أن سطوراً من ذاك الغزل بل كلمات منه، كانت تتداخل مع صرخات تعذب الذات وتندد بأفعالها، ونقد مرير خالص كتبه بائسون:

«كيف استسلمت هكذا لسحر الجسد؟»

«ماذا فعلت بنفسي وأي ضعف؟»

«كانت التجارة خاسرة، فقد اشتريت المتعة بموت الجرذان»

«لم اخترت الموت قبل الأوان؟»

استرد الشيخ أنفاسه وقد علم أن الرجل ليس سجانا يعطيه الطعام والماء بين فترة وأخرى، فقال وهو يتمدد على بساطه الخشن الذي صنعه من بقايا ثياب رفاقه الراحلين:

«انفد بجلدك ايها الرجل.. اهرب».

وعن السؤال حول زميل في هذا الكهف اسمه عبد الكريم، جميل وحاد الذكاء والسخرية، قال الشيخ:

«كنت جميلاً أيضاً، وشهد الناس بذكائي، ولطالما سخرت من الضعفاء والأغبياء».

ثم أشار إلى مجموعة قريبة من القبور، لكنه ما لبث أن قال:

«لا أنصح لك بالبحث في أي منها».

وقال ملتقطاً أنفاسه:

«اخرج.. اهرب بأية وسيلة وحدث الناس جميعاً.. حذرهم. قد يكون عبد الكريم قد دفع الضريبة عنك، فانفع الناس بما سمعت ورأيت».

ثم لنفسه وكأنه يلفظ أنفاسه الأخيرة:

«وهل استطعت أن أهرب؟».

هل كانت المرأة ترتوي برجولة عشاقها، فتزداد حيوية وجمالاً؟ وهل كانت تكرههم على الاستسلام لها.. أم أنهم قدموا إليها مستسلمين دون قيد أو شرط؟

كان الشيخ الوحيد آخر المنفيين عن فراش الحب، قد قضى شهراً بين أحضان المرأة يتمرغ عند تمنعها عنه ثم يستسلم لها إذ تشير له. امرأة لا تشبع ولا ترتوي. كلما صببت ماءك فيها صرخت تريد المزيد. وإذ تلعق أقدامها ترفسك بعيداً، ثم لا تلبث أن تستدعيك بنظرة فتزحف طالباً المتعة والمغفرة. لا أعلم كيف اختارتني، لكنني شعرت وأنا تحت في الدار أنني أرتفع على غمامة لأصبح فوق في مخدعها، فتستسلم لي بمشيئتها فأسلمها كل شيء، ثم يحكم عليّ بالنفي إلى هذا القبر الكبير. كنت أقوى الرجال.. كنت أجمل الرجال.. وكنت أحكمهم. فقدت قوتي بينما ازدادت هي قوة، وذهب جمال رجولتي لتتألق محاسنها هي، وذهبت حكمة العمر سدى. وأنا هنا أسترجع كل شيء أعلم أنّ الندم ما عاد ينفع. انظر خلف ذلك الجدار فستجد آخر حفرة في هذا المكان، ولقد حفرتها بنفسي. وسدّني هناك قبل أن تذهب.

كل شيء حدث بات باهتاً الآن، والمشكلة هي في خروجه. هو لا يريد أن يعود إلى أسمهان التي لا بد من أنها تنتظره عند نهاية الحلزون. أين المفر؟

هل انتهى بحثه إلى لاشيء؟ فعبد الكريم دخل دار المتعة دون ريب، لكنه لم يخرج، فهل ينبش القبور المنتشرة في شعاب الكهف بحثاً عن دليل؟

لم يكن في تلك اللحظات بحاجة إلى برهان، فاليقين هو ما عاشه ورآه وأحسه وتبينه بفطرته وخبرته. لقد قرر أن يعيش. يجب أن يخرج من الكهف.. من هذه الدار، ويعيش من أجل شيء واحد هو تثبيت كل هذا اليقين كي يعرفه كل الناس.

واحتوى الشيخ بين ذراعيه وكان يرتعش كغصن يابس ويتمتم واهن النبرات:

«ضعني في حفرتي واخرج».

ثمة خيط من هواء منعش كان يمر على خدّه، فهمس الشيخ محتضراً:

«ما دام هناك هواء يأتي من الخارج، فالخروج ليس مستحيلاً».

وكانت كلماته تخرج بصعوبة:

«لو كانت لي القدرة لبحثت...».

فتبع الخيط ليعثر على ثقب، فأطلّ منه ليلمح بصيص نور. هز الشيخ برأسه كأنما يصدق على ما اكتشفه جواد. تمتم الشيخ قبل أن يستسلم لطلائع الموت التي أطبقت على الحنجرة:

«حدّث الناس جميعاً...»

وإذا صدق أن خرج جواد، كما تروي الحكاية باختصار مريب. فلا بد من أن ما روي من تفاصيل وأحداث وقصص عن دار المتعة، كان جواد هو المروج الأساسي لها إلّا أن الحكاية المكتوبة لم تشر من بعيد أو قريب إلى مصير جواد هذا كأن ما خلفه للناس هو الذي يثير الاهتمام وليس أي شيء آخر، كنهايته التي لم يكن الرجل بحريص عليها بعد أن رأى ما رأى وسمع ما سمع، وبعد أن عاش حياة تستحق أن يقف منها المرء متأملاً ومفكراً.

«إني أكتب لك في هذا الموضوع يا... لأني مغيظ من كتاب فرغت لساعتي من قراءته، وقد بلغ من الضخامة درجة يخيل إلى المرء معها أنه قد حوى علم الدنيا. لكنه كسر رأسي من دون أن أتعلم منه شيئاً»

مونتسكيو

«رسائل فارسية»

دَارالمتعــة

بلغته السهلة والمتينة، وبأسلوب مبتكر جذاب، يقدم لنا وليد اخلاصي روايته «دار المتعة».

من خلال فصولها ـ بل سطورها ـ ينتقل بك من وصف دقيق للمدينة والدار إلى وصف للناس والحكّام ، فيضعك في الموقع الذي تحدد أنت جغرافيته. كما يدمج التاريخ والماضي بالحاضر والعصر بطريقة انسيابية عجيبة،فتلاحظ استمرار العادات والتقاليد، وينطبق تراث الأمة على فنونها الشعبية التي تمارسها اليوم.. وليؤكد لك أخيراً أن هذا الاستمرار لا يرافقه تطور، وأن التغيرات والتبدلات النفسية والأخلاقية تكاد تكون معدومة، وأن الناس هم هم في كل العصور والأزمنة.

رواية «دار المتعة» وعاء صبّ فيه وليد اخلاصي فكره وفلسفته في الحياة، ولكن هذا الوعاء السحري، حوى أوعية أخرى هي حكايات تتوالى، وفي كلٍ منها حكمة.

«دار المتعة».. ليست سبراً لأغوار النفس البشرية فحسب، بل هي تسجيل رمزي لتاريخ حياة أمة، ولكنه تسجيل محبوك في شكل رواية. تهز رأسك أحياناً وأنت تقرأ وصفاً دقيقاً في أحد فصولها، أو تبتسم لإصابة جاءت في الصميم؛ ولكنك ستلهث في أحيان أخرى بل وسيشدك التشويق إلى الانتقال إلى الفصل التالي مباشرة من دون توقف.

لن تغيب عنك المتعة، وأنت تقرأ «دار المتعة».

خلدون فنصة

185513330X